سليم نَصيب

ترجمة: بسّام حجار



كَانَ صَرْحًا من خَيَال

(أمّ كلثوم)



دار العين للنشر

كَانَ صَرْحًا من خَيَال (أُمُّ كلثوم)

سليم نصيب

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019م

دار العين للنشر www.elainpublishing.com
الإدارة : 4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: 23962475 2+ فاكس: 23962476 2+
المدير العام: د. فاطمة البودي
دار شرق / غرب www.edizionieo.it
via Camozzi, 100195-Roma.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 17626 / 2009
ISBN: 978 - 977 - 490 - 010 - 5
هذه الترجمة العربية لكتاب : Titolo Originale: Oum

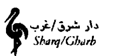
كَانَ صَرْحًا من خَيَال

(أُمُّ كلثوم)

سليم نَصيب

ترجمة

بسَّام حجار







بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

نصيب، سليم

كان صرحا من خيال (أم كلثوم)/ سليم نصيب؛ ترجمة بسام حجار.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩.

ص؛ سم.

تدمك: ٥ ٠١٠ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

أم كلثوم، فاطمة إبراهيم البلتاجى، ١٨٩٨ – ١٩٧٥

١ – الفنانون

٩٢٧

رقم الإيداع / ١٧٦٢٦ / ٢٠٠٩

الجزء الأول

(1928 - 1924)

1

كنتُ قد عرفتُ الأولاد الذين راحوا يهمسون أسماءهم بحياء، وفتحتُ ذراعيَّ لأولاء الذين ولدوا في غيابي. وكانت أمّي لا تكفُّ عن سكب المزيد من الطعام في طبقي وتراقبني كأنَّ عليَّ أن ألتهم مسقط رأسي كله في وجبة واحدة. عيناها ترمقانني بنظرات ثابتة أنا الذي ولدتُ من رحمها. كنف الأهل الرحب لاقاني وها هو يضّمني إليه جيّدًا، أعضاؤه أعضائي، لربما شعر المرء ببعض النفور إن طال به الوقت على هذه الحال. ولكن لم أكذب على نفسي، فقد اشتقت إلى هذا كله. انتابني هذا الإحساس في غمرة العناقات الرجوليّة والضحكات، وخصوصًا في غمرة التخاطب بالعربية، العربية مجدّدًا، من حولي وفي كل مكان، تتناهى إلى مسمعي رنّة هذه اللغة الرائعة، بلادي الحقّة.

علت الزغاريد، وتشابكت الأسئلة. لقد عرفت باريس وذقت فاكهتها. ولكن كيف أروي. كانت أمي وأختي سلوى تتبادلان فترات صمت مطبق، ذلك الصمت الذي يضمر انتظار الكثير منك. إنهما الوحيدتان اللتان تعرفان جيدا معنى غيابي ثلاث سنوات. إخوتي وأخواتي الخمسة الآخرون لا حساب لهم. فقد عدت حاملا شهادة من السوربون، أصبحت رب الأسرة وأنا لم أجاوز الثالثة والعشرين من العمر. وعاودني بشيء من الأسى تذكار غرفتي في باريس. هناك لم أكن أحدا.

محمد هو الذي أنقذني مما أنا فيه، محمد عبد الوهاب، صديقي الوحيد. ببذلته على الطراز الغربي وطربوشه. اختطفني من بينهم ورحنا نسير، جنبا إلى جنب، في وسط الشارع، خفيفين، مراهقين. كنا في نفس السن تقريبا، وكان قد حقق نصيبا من النجاح وشرعت أبواب الشهرة أمامه. مطرب وملحن وموسيقار. موهبته لا تخفى على أحد. لم أفهم يوما لمَ اختارني أنا صديقا له. جاء إلى باريس ذات يوم وأمضى فيها أسبوعا واحدا. رأيته يقتحم باب غرفتي، وينام على الأرض، منذ تلك اللحظة لم نفترق.

وها هو الآن يصحبني سيرًا لأمُتع أنظاري بما أراه من حولي. لقد فاتني يوم الاستقلال، ومنظر الحشود التي اكتظت بها الشوارع، والفرحة الغامرة، لا أدري ما فاتني بالضبط، فحتى الهواء في ذلك اليوم يكون مختلفا. كنت أنظر من حولي وأتنشق الهواء، لم يتبدل شيء لحسن الحظ، المحال، ضجيج الليل وصخب الترامواي، ورائحة الكهرباء التي تنبعث منه. إنها القاهرة التي أعرفها. كنت مستغرقا في إدراك الفارق بين المكان الذي غادرته لتوّي والمكان الذي حللت فيه. الهواء الدافئ يكتنفنا. والشوارع تجري مسرعة على جانبي خط الترامواي، وتلمع واجهات المحال على ضوء مصابيح الغاز، وينام الشرق في خطوط يافطاتها الأنثوية. رفوف الأفاويه، والفاكهة، والمقاهي، والرجال الذين لا يخطئون موعدا، كلها هنا لم يتبدل شيء منه. نسم من الطراوة، كان النذير بأن حياة الليل قد بدأت.

نقدْنا الحارس بدَل الدخول واجتزنا بوابة حديقة الأزبكية، فانتابنا الإحساس بأننا وصلنا. فالأشجار والممرات بينها ترتسم في خطط مألوفة، لكن الموسيقى، خصوصا الموسيقى، والوشوشات، كأنها واحدة حديثة أتعرفها مغمض العينين. كأنني لم أغادر يوما.

كان حشد ينتظر أمام المسرح، النساء فيه أقل من الرجال، كالعادة، غير أن الطرابيش طغت على العمائم والقبعات على الطرابيش. كنت أعتمر "بيريه" أهل الباسك. أما محمد فكان قد خلع طربوشه وراح يشق طريقه وسط الناس الذين ينتحون جانبا حالما يتعرفون إليه. لا أدري لِمَ كان يذكّرني بجان كوكتو، بشعره الأشعث المفروق. لم تكن الصالة تتسع لأكثر من مئة شخص، وكنّا حجزنا آخر مقعدين. والناس يتدفقون على الممرات ويتربّعون سويّة الأرض.

كانت الفرقة قد احتلّت مكانها على المسرح، فلاّحان يرتديان الجبّة الرمادية الطويلة ويعتمران العمامة، شيخان وفدا لتوّهما من القرية أمامهما في الوسط، صبيّ لا يُحرك ساكنًا، وقد اقتعد كرسيًا، وبدا الذعر على محيّاه، فيما يداه مشبوكتان فوق بطنه، باذلًا ما بوسعه لإظهار صرامة في القسمات بمقدار ما يستطيع مراهق مثله إلى ذلك سبيلا. لا يُرى منه إلا اليدان والوجه، وجه مستدير، منتفخ قليلا، أقرب إلى الدمامة لو لم يتسع لعينين واسعتين سوداوين. وبرغم القيظ الشديد والكشّافات، كان يلف جسمه بعباءة بدوية ويغطي رأسه بعَمْرَة مشدودة على الرأس بحلقتين، معقودة أسفل الذقن.

لا شيء يحدث، الناس يتبادلون أطراف الأحاديث، والفتى الجالس على المسرح لا يدري ماذا يفعل. علا صوته على ضجيج الحضور مُنشدًا، كانت تلاوة الفاتحة أولى سُور القرآن. تناهى الصوت فتيًا غير واثق ولكن مميّزا، تطلقه حنجرة غير مألوفة، ونفس متطاول كأنه لا ينتهي. أنشد الفتى الآية الثانية بصوت خفيض لكنّه يعلو تدريجيًا، منغمًا ومحوِّرًا. أجابه الحضور بملاحظات استحسان. وراح الصوت يتلو النص المقدس مقطعًا العبارات بحسب وتائر تنفسه الذي لم يعد مضطربًا. كان الصوت يستأنف التلاوة بعد وقف، يرتفع حيث ينبغي، ويتردد طويلا عند القفوة. حتى جاء الدعاء الخير إضمارًا.

علت صيحات (الله أكبر). أمّا هو فلم يحرّك ساكنًا. مكث مُطرقًا لا تبدر منه أي إشارة استجابة حيال الجمهور، ثم عاود الإنشاد، فصعدت الدماء إلى رأسي، إذ أدركت أنه يُنشد أبياتًا من شعري كنت كتبتها مباشرة قبل رحيلي، (الصب تفضحه عيونه..)(*) قصيدتي تنشدها هاتان الشفتان البدويّتان. التفتُ نحو محمد، إذًا هذه هي القصة. ابتسمت له، غير أني كنت أود لو أن الأرض تنشق وتبلعني. فثمة ما نفّرني في غناء هذا المراهق. القوة، والرنة، وامتلاك النفس واضحة جدًا، ولا يسعني أن أنكر ذلك، غير أن هذا الصوت الذي يُباشر المطالع على هواه، يُفعمني بعفوية غير

(*) معتمدنا في أغنيات أم كلثوم وفي أسماء بعض الأماكن: (أم كلثوم: صوت في تاريخ أمة) لسعد سامي رمضان، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1997، و(حياة وأغاني كوكب الشرق، أم كلثوم)، دون ذكر لاسم المؤلف، عن منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، دون ذكر لتاريخ النشر.

و(ديوان أحمد رامي) منشورات دار العودة، بيروت دون ذكر لتاريخ النشر.

محتشمة، لا واعية. ففي ثنايا بعض النغمات تُضفي تلك البحّة الخفيفة نكهة شهوانية، شيئًا من الشعور. كنت أشعر بضيق.

كان كيانه يرتعش انسجامًا وتتحول كلماتي إلى أداء ما يريد هو، وكنت أنا، حتى أنا، أصدق أنها حقيقة. لم تكن الكلمات بل الشيء نفسه، الإحساس، سريّ الحميم الذي يُعلن للناس كافة. لم يكن الغناء صادرًا فقط من الحنجرة، بل إن الجسد بأكمله يرتعد، لا بل كأنه يحلّق، لإطلاقه إلى الخارج. رعدة انتشاء ساكنة. استطاع هذا الفتى الأمرد أن يجسد الألم والرقة اللذين كنتُ أسمعني، أنا نفسي، معبرًا عنهما للمرة الأولى، عبره هو. كان الألم والرقة فيه هو.

كنت أعرف اللحن، فالشيخ أبو العلا لحّن القصيدة وأنشدها وطبعها على اسطوانة 78. وقد أدى الفتى اللحن بأمانة وفي أدق التفاصيل. لكن الفرق يكمن في الصوت. لقد دوّنت الحروف، وجاء لينفخ الروح فيها، وما زال يواصل الغناء، كأنه ابد. وها أسمع الآن البيت الأخير: (وبي الذي بك يا ترى/سرّي وسرّك من يصونه).

لم أعد إلى بلدي غريبًا، كانت تلك هدية محمد لي، لم يتوقع مني هذا المقدار من الانفعال الذي يكاد يكون مؤلمًا، و لم ارغب في أن أظهره له، ونهضت هاتفًا مع الهاتفين. نهض الفتى البدوي بدوره محاولا أن يرجع من الغيبة التي ألمت به، وأحسب ان أحدًا لا يدرك حاله كما أدركها أنا. كان ينحني للجمهور باسطًا ذراعيه إلى الوراء. وفي الأثناء انحسر طرفا عباءته عن نحْره، فسارع بحركة عصبية إلى جمعهما بكلتا

يديه. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية واحدة. غير أني استطعت أن ألمح في انحسارهما الخاطف، استدارة نهد تحت زي الفلاحين الخشن.

بحركة تكاد تكون غير محتشمة، خلعت عَمْرتها، فبدا شعرها الأسود الكثّ. لقد غنيت لك هذا المساء، بدرت إلى القول. لم يبق للشحوب أثر على سيمائها، ما عادت تخشى شيئًا. إنها بدوية، لا بل حتى إنها ليست بدوية، مجرَّد فلاَّحة، من بلدة تدعى (طماي الزهايرة) بالدلتا. والآخران هما والداها شيخ مسجد البلدة وشقيقها وهو شيخ أيضًا، أهلٌ بأهل على نحو ما. والمعروف أن أصول الحشمة تقضي بأن لا تصعد الفتاة إلى خشبة المسرح، غير أنها كانت تكسب في ليلة واحدة ما يكسبه والدها في شهر كامل. لذا اضطرت إلى التنكر بهذا الزي.

كنت خائفة. فهذه قصيدتك، وأنت حاضر بين الجمهور.

كنت لا أصدق عيني، فما زالت في نظري فتى - فتاة، ولا شيء قد يمحو ذلك من ذهني، إذ بدت شبهة الخنثوية وجمال صوتها مرتبطين على نحو غامض. أمرٌ فاتنٌ وعجائبي قليلا. مصدر اضطرابي تلك اللحظة وما تلاها؛ تكاد لا تنقضي، جَمُدَ الكلام فوق لساني. كان محمد بجانبي، فيما الشيخان يحيطان بمحطيّهما مبتسمين، بدا الأمر سخيفًا. فامسكت بيدها ورفعتها إلى شفتي ألثمها، نوع من التحية الصامتة لا أكثر، غير أن أصابعها استسلمت لكفّي وتراخت الذراع استجابة. فأحسست بتلك الحيوية الجسمانية، وبذلك القبول الخفي. التمعت عيناها، لأقل من ثانية، ورأيت التماعها يقينًا، نظرة حادة، محض اقتدار، محض متعة.

- زدتنا بركة وشرفًا .. رجل مثلك.

أدركني الشيخ إبراهيم بمعونته، فعبارات اللياقة هي المنقذ في مثل هذه الأحوال، ومن دونها يقع الويل.

– لقد غنّت قصيدتي، فالشرف لي.

قلت للوالد فيما الفتاة ترمقني بنظراتها. غَضْنُ العينين يجعلها أشبه بفتاة آسيوية، وكانت تقرأ ما تقوله شفتاي وما يدور في رأسي، علانية، كأنها تعرف كل شيء عني.

– لم لا تكتب لي، سألتني بصوت خفيض.

– سأكتب لك.

– ولكنْ..

– ولكنْ ماذا؟

– اكتب أشياء بإمكاني أن أغنيها.

– لا أفهم.

– كم من الناس تصلهم كلماتك؟ أقصد الناس العاديين الفلاحين... لم أستطع أن أغني "الصبُّ تفضحه عيونه" إلا بمعونة الشيخ أبو العلا.

– الشعر يُكتب بالفصحى.

– تخل عنها لأجلي، واحتفظ بها لسواي. لـمَ لا يكون الشعر بلغة يفهمها الجميع، لـمَ لا ؟ كان محمّد يحدّق بي مذهولًا. كان يغني نصوصي، وكان صديقي، وما كان ليجرؤ يومًا طلب كهذا. ولكنه سمعني وسمعت نفسي أجيبُ هذه الفتاة التي التقيتها لتوي قائلاً:

– لا ادري إذا كنتُ سأفلح في ذلك،ولكنني سأحاول.
– سأرحل غدًا برفقة أهلي إلى رأس البر،وسنقضي الصيف هناك على الشاطئ. تعال إليّ حين أعود.بيتي في شارع (قَوْله) بحي العابدين،سيرشدك إليه الشيخ أبوالعلا. وبدرت منها ضحكة.ثم استدارت نحو والدها فاتحة ذراعيها،كأنها تقول: الأمر لكَ الآن.

2

فتحت النافذة على مصراعيها فطالعتني الشمسُ بمشهد مدينة تزخر بالحياة ، لصيقة بي ، واقعية كما لم أرها من قبل.
نزلتُ إلى الشارع يحثُني الحر والرغبة في أن أخالط الناس وأن أمتزج بأصواتهم وروائحهم وعرقهم . رد لي بائع الصحف (الفكة) ينظر إلي ، فقد كنت واحدًا منهم . ومع ذلك كنتُ أشعر بأنني وحدي ، من بينهم، المفتون بكل شيء،الغريب الذي يغرق في زحمة الشوارع ؛ كنت أشبه بمتخلف عقليًا. لا أثر للجنود الإنجليز .فالاستقلال وشيك ، والجنود الإنجليز يعسكرون عند القنال ، لكنهم توارَوا من الشوارع . كم كنت أود أن أعانق المارّة. فما أراد محمد أن أراه بالأمس، أبْصِرهُ الآن على الوجوه. كلُ شيء من حولي يضج مودة وأضحك من تلقائي، فينظر الناس إليّ استهجانا، ولكني لا أبالي. المدينة، تلك الفتاة، الموسيقى، كل شيء يُحسن

وفادتي. وليس عليَّ الآن إلا أن أستسلم للتيار الذي يحملني، أن اطفو على مياهه. الشعراء، الآن، هم مطلب الناس. والفرق يسطع نجمها أو تأفل، والليالي مكتظة بالنيازك، وكل دعيّ يزعم أنه مخرج مسرحي. ليس هنـاك من لا يجـد مكانـه، وإن لم يجـد يرتجله. المهم أن يطلق أقصى ما في جنون المرء قبل أن تدور الدائرة، ودورات الدائرة أسرع مما يُظن. كانت القاهرة شديدة الإغواء، وكنت الواقع في إغوائها.

الشيخ أبو العلا. وجدته جالسا في حديقته المهملة، كئيبًا. بلغت الشيخوخة مبلغا؛ وجنتان ضامرتان وشعر أشيب، ونظرات ساهمة لمستوحدٍ يعلم أنه وحده. عانقته وأعطيته قنينة الويسكي التي أحضرتها له من باريس، بذل جهدا واضحا لملاقاتي وشكرني على هديتي. وأوضح أنه لم يأت لاستقبالي عند وصولي لأنه بات لا يُغادر البيت تقريبا. كان الشيخ أبو العلا صديقا للمرحوم والدي، وقد ساعدني كثيرا في طبع ديواني الأول، وكنت أحبه كثيرا. شربنا معا وحكيت له ما فعلت منذ عودتي! السهرة التي قضيتها بصحبة محمد، وحفلة حديقة الأزبكية.

– إذًا رأيتها.

– أجل.

– وسمعتها تغني.

– أجل.

– وما رأيك؟

– ...

– لابدّ أنك لاحظت .. أنها تغني .. ولكن ما تؤديه ليس شيئا يُذكر مقارنة بما يمكن أن تؤديه. أنا أعرف جيدا قدراتها الدفينة. لم تعط منها إلا القليل .. كانت تجلس بجواري كل مساء. هنا، في حديقتي، كل مساء، لو أرادت .. ولكنها ما زالت طفلة بعد.

– كان مهموما، مثقل النفس، وبقدرة قادر زالت عنه معالم الشيخوخة. مكثنا معا كتوأمين مذهولين. و لم يتوقف عن الشراب كرعا من عنق القنينة.

– وبالطبع، ذهبت بعد الحفلة لزيارتها في الكواليس؟

– ..

– هل حدثتك عني؟

– تقول إنك أستاذها، وتدين لك بكل شيء، وأنك علمتها كيف تغني "الصب تفضحه عيونه" ..

– .. إنني أستاذها وأنها تدين لي بكل شيء؟

– أجل، هذا ما قالته لي.

– مسح فمه بظاهر كفه.

– كان ذلك منذ بضعة أعوام .. بعد أن أحييت فرحا في إحدى بلدات الدلتا، كنت أنتظر القطار على رصيف محطة السنبلاوين وجاء شخص وحيّاني. كان ذلك الشخص والدها، الشيخ إبراهيم، الذي أعرفه معرفة عابرة فهو يغني ويتلو القرآن. وكانت هي برفقته، كان يصحبها في جولة بين البلدات وهي لم تتجاوز بعد الخامسة عشرة، جنيّة صغيرة، انحنت على يدي وقبلتها مردِّدة: الشيخ أبو العلا،

أهذا أنت، اهذا انت، كنت أحسب أنك توفيت! و لم أكن أفهم ماذا تقول. حاول الشيخ إبراهيم أن يبعدها عنّي غير أنها تشبثت بيدي وهي تردد أنني أكبر مطربي مصر وأعظمهم. فقد سمعت أغنياتي المسجّلة على فونوغرافي ابنة العمدة. وأقسمت يمينا معظّمة أنها ستقتل نفسها إن لم أرافقهما، هي ووالدها، في الحال إلى بيتهما في "طماي الزهايرة". لم يكن لديّ ما أفعله في القاهرة، وتلك الفتاة.. بدت مصممة على أن ارافقهما بالفعل. وما إن وصلنا إلى البلدة حتى جمعت الناس من حولنا، وطلبت مني أن أغني فغنّيت. وراحت تُصاحبني بالغناء. وما إن سمعت صوتها.. فاتتني مواعيد كل القطارات. فانتحيت بالشيخ إبراهيم جانبا، إنها خطيئة، هذه الفتاة على قدر كبير من الموهبة ويجب أن تأتي إلى القاهرة. قال لا. لا يعني لا. بعد ذلك غادرتهم. و لم تخطر ببالي تلك الفكرة إلاّ العام المنصرم: قلتُ في سرّي إن الشيخ إبراهيم سيقتنع ربما لو أن أحد أرباب الأسر الكبيرة يتعهد له بانه سيتكفل بها. وشاورت عبد الرزاق بك بالأمر فوافق. ووصلوا إلى المحطة المركزية: الأب والأخ وسعدية الطيبة محمّلة بمؤونة من الطعام لستة أشهر، وهي معهم متنكرة في زي صبي. وجدت لهم سكنا وأسكنتهم فيه وبذلت ما بوسعي، وليس لها أن تلومني على شيء.

- ولكن ما مأخذها عليك؟

- قلت لا شيء كل مساء، عند السادسة بالضبط، تكون هنا، كل مساء في نفس الوقت، معها كلمة شغل لا معنى لها، لم يكن شغلا،

كان استغراقا في الموسيقى ورحيلا... إلى أبعد مما قد تظن. أعطيتها ما أملكه وما لا أملكه. كان الغناء في دمها، فعلمتها أن تغني من القلب. غير أن شهيّة الغناء لديها لا يشبعها شيء، جوع مستعص. الشعراء والموسيقيون تريدهم لها، كلهم. تستعجل كل شيء كان لا وقت لديها، كأنها ستموت غدا، وهي لا تزال في الثانية والعشرين من عمرها. ربما تعتقد الآن أنه لم يعد لديّ ما أعلمها إياه، لا أدري. أنا تلميذ الحامولي، ووريث ثروته الموسيقية، وهذه الفلاحة الصغيرة ستكون وليدة، لا بل وريثة فن بأكمله. وسوف ترى. منيرة المهديّة ليست من هذا الطراز، وحده صديقك محمد على هذا المستوى. وبرغم إغواء النساء والألقاب التي يغدقها عليه البلاط، وحلمه الدائم بالغرب، ليس باليد حيلة، إنه يمتلك الموهبة وسيكون وريث هذا الفن رغمًا عنه. ولكن هي، صدقني إنها سليلته الشرعية.. الآن انتهت مواعيدنا اليومية. وصارت تزورني، أحيانا.. وأحيانًا تقصد مقهى الريش لتسمعني؟ فما رأيك بحالي؟

كان القصد من ذهابي إلى باريس أن أتعلم الفارسية وأتقنها لأترجم قصيدة واحدة، هي "رباعيات" عمر الخيّام. إذ لا نعثر على ترجمة عربية لهذه القصيدة عن الفارسية مباشرة. فالترجمة الوحيدة المتداولة منقولة عن الإنجليزية. لقد كنا مجبرين على الالتفاف من طريق الغرب.

في باريس درست أيضا علم تنظيم المكتبات، فقد كان عليَّ أن أعيل سبعة أنفار، ولابد من ذلك. لذا عملت موظفا في المكتبة الوطنية المصرية.

كنت أعمل كثيرا ولا أغادر البيت إلا فيما ندر. وبأية حال فإن الحياة في القاهرة بطيئة خلال فصل الصيف، وكنت أشعر أنني أحيا فاصلا طويلا قبل أن تبدأ الحياة الحقة.

مع حلول الخريف، يكون أواننا. كان طه حسين قد شرع بإلقاء محاضراته المرتجلة في مقهى الفيشاوي مُبرهنا فيها على أن العرب والغرب لهم جذور مشتركة وينهلون من معين مشترك هو الحضارة اليونانية. وأن الفرع الشرقي من هذا الجذع قد أهمل حتى اليأس. أما الثورة التي كان الشيخ أبو العلا يتحدث عنها، أو ما يُسمى بالنهضة الذائعة الصيت، فلم تطُل فقط إلى ميدان الموسيقى بل طاولت أيضا الشعر والرواية والفلسفة والسياسة وحتى الإسلام. وكانت ترجمتي للخيام تندرج في هذا السياق. فقد كان هناك من يدعون إلى التقرب من الغرب، ومن يودون العثور في ثقافتنا الخاصة على أسس لحداثة شرقية، خاصة بالشرق. كان الأمر أشبه بغليان مُدهش، أو الأحرى أشبه بفوضى مدهشة.. من يدري؟ فمع رحيل الإنجليز بدا بلدنا فتيا مثلنا. وكنت أنتظر، بفارغ الصبر، أن ينقضي الصيف.

عند المساء ألازم غرفتي منكبًا على ترجمة الخيام، وأكتب تلك اللغة الأخرى بلغتي. لم تكن مجرد قصيدة. فالقدر عندنا معقود بالكلمات، إن شاء الله، ولابد لنا في تلك المشيئة، نحيا ما كُتِبَ لنا، وما كُتِبَ هو الذي يسير بخطانا، والجنة في انتظارنا. جميعنا نحيا في هذا المناخ الذي قبلناه منذ قرون من الزمن. أما الخيام، فتراه وحيدا، مائلا أمام الفراغ،

وعدم الماوراء. إن يقين الغياب يرشح من كل بيت من أبياته، تصوُّف دربه المستوحدة نحو الله. إنه يتنكر للعزاء والجماعة والتخلي. وليس سوى الخمر، والشكر الصوفي، وهما واحد. إذا كان قدرنا أن نستحيل غبارا، فليكن هذا الغبار طينا تُصنع منه الدنان التي يشرب منها العشاق لاثمين جماجمنا بشفاههم. فكل مقبل مخيِّب، والخيبة حتم، لنشرب الخمر إذًا، مفتونين حتى الثمالة الموقظة، لنشرب بعد، إلى أن نفقد القدرة على النسيان.

"فانعم من الدنيا بلذاتها/من قبل أن تسقيك كفُّ القدر"، هذه الدعوة أستشفها في كل بيت من أبياته، وأحسبها لي، كأنه يلومني. كان الخيام يضعني أمام رغبتي، مهما بدت تلك الرغبة غامضة. وكنت أقاومه وأستمتع بمقاومتي. كل ليلة تمضي عليّ برفقة نصه، أزداد غوصًا في عالمه، في شهوته. اللغة العربية واللغة الفارسية مختلفتان لكنهما شرقيتان، لغتان من عالم واحد. وكان هذا التجاوز الحسّي يُفعمني إثارة تؤرق ليلي. تكون الرباعية قاب قوسين في المتناول ولكن مستعصية. وعندما تتكشف وتبذل معانيها، عندما تعثر موسيقاها على إيقاعها العربي، أشعر بأن انفعالا عمره تسعة قرون يتفلّت مني.

في العتمة المطبقة، كانت الأبيات تطربني حتى الثمالة. يستوقفني أحيانا لفظ غريب. فأنهض من مكاني مرارا ثم أعود إليه، أتخطى الصعوبة ومع ذلك لا أشعر بارتياح. فثمة دائما ما يفوق إدراكي. وأشعر بنقص ما .. لا من حيث سلاسة اللغة أو المفردات أو الإيقاع. ولا حتى من حيث النص نفسه. ما ينقصني هو نوع من الخاتمة، عنصر ما من شأنه أن

بختم عملي ويُكسبه معناه كله. فجأة، أدركت ما الأمر. فهذه الترجمة إنما تنجز من أجلها هي. ففي أعماقي كنت أريد أن تغني تلك الفتاة (رباعيات) الخيّام، هذا ما أردته وهذا ما ينبغي أن يكون. فالرباعيات ستصبح عربيّة إذا أنشدتها بحنجرتها. هذا كل ما في الأمر. ما كنت أبحث عنه طيلة ثلاث سنوات في باريس، وتنقُّلي بين ألمانيا وبريطانيا مقتفيا آثار مخطوطات الشاعر الفرنسي، ليس هذا فقط، بل أيضا كل ما كان يعتمل فيَّ، في البلاد، ومحمد والشيخ أبو العلا وحديقته، انتابني إحساس بأن كل هذا قد يجتمع في صوتها علي نحو غامض. بإمكانها أن تكون دربا، دربي.

بالطبع سنعمل كل يوم إذا دعت الحاجة. وسأنظم لها أبياتا، لـمَ لا، فقد قطعت لها وعدا بأني سأفعل. وبالفعل، بدأت كلمات قصيدة تعمل في رأسي، وانسكبت كلماتها كلمة تلو الأخرى، قصيدة بلغة بسيطة مفهومة، تماما كما أرادت، كأنها رسالة أكتبها لها. أضأت الغرفة من جديد، وكتبت لها، في تلك الليلة، أغنيتي الأولى. "خايف يكون حبك ليّ شفقة عليّ".

3

كان بيتًا قديمًا، بيتًا من تلك البيوت المبنية من حجر منقوش، وقد حتَّته أمطار الرمال الخفيّة التي تهطل دائما على المدينة. كان يقع عند تقاطع شارعين، وعرفته من بعيد حالما رأيت شرفته الدائرية التي وصفها لي

الشيخ أبو العلا. فلاحون يرتدون الجلابيات الطويلة، متقلصين، يقتعدون طبليات خفيضة، وقد وضعوا بين سيقانهم قُفَفًا من القش يعرضون فيها بضائعهم من أكواز الذرة والجوافة والليمون الحامض الأخضر، والأفاويه، وذلك النوع من الموز المرقّش ذي الشكل الهلالي الذي لا يُعثر على مثيله في فرنسا. الروائح الحرّيفة هي الهواء الذي نتنشقه، لبّ الشرق، مُشبع بها، إلى حد الغثيان، طبقة لزجة تلتصق بالنعال.

كنت أشق طريقي في وسطهم، فيلتفت الناس نحوي ويرمقونني بنظراتهم، أو ربّما هذا ما شعرت به. أوقفني فلاح في الممر.

– الشاعر، أهو أنتَ! قال بحماسة ظاهرة.

إنه الشيخ إبراهيم. شد بيديه على راحتي، كأنه يريد التثبت من أنني حقيقة ولست مجرد وهم. وكان محقًا في ذلك، فقد كنت أنا أيضا، أنظر إليه بعين فاحصة. كان هو حقا بشحمه ولحمه. فقد ظهر فجأة من بين الفلاحين الجالسين القرفصاء، من بين ألوان الجلابيات والبشرات السُمر، وأكوام الجزر والبطاطس الطالعة تواً من الفلاحة. ذاك كان منبتها.

– إني لا أحسن القراءة غير أني أُجلُّ الشعر كثيرا، البيت بيتك، ابنتي تنتظرك. وسوف ألحق بك حالا.

كان لا يُجيد القراءة، يُصرُّ على إعلان ذلك. كنت أصغي إليه وبي شرود غريب، إذ يبدو لي أن الأمور ليست على حالها. رأيته حاملا قفة كبيرة فارغة، وأدركت أنه يتردد في شراء ما يحتاج إليه إذ يصعب عليه أن يدفع مالا لقاء الطماطم والليمون الحامض. أما أنا فأحمل قصائد في جيوبي. الدهشة إياها أراها في عينيه وأحس بها في عيني. وصلت

إلى باب العمارة، فخفّت الوشوشات والتعليقات، أو ربما كنت أتخيل سماعها لا أكثر.

طالعتني المرأةُ البدينة التي فتحت لي الباب، بما يُشبه ما ارتسم على وجه الأب من إعجاب حيي وارتباك. حافية القدمين على أرضية بيتها النظيفة، كل شيء فيها يوحي باليُسر وسعة اليد والنعمة، وهي ترتدي منديلها الأبيض الذي بالكاد يغطي شعرها.

– يا ألف أهلًا وسهلاً. الآنسة ستحضر بعد قليل. تفضَّل.

تنحَّت جانبًا لتسمح لي بالدخول، ووقفت هنيهات ترمقني خفية كأنها تود أن تتثبت من أنني، كالبشر، من لحم ودم.

– لا بد أنك الوالدة؟

لطمت صدرها وقالت:

– طبعا هي مثل ابنتي ولكنني لست سوى سعدية، حماها الله، ربيتها في حضني كما رُبيت في حضن أمها. أما أنا يا سيدي، فأمها الثانية، لا بل أمها الأولى منذ أن قدمنا إلى القاهرة، إذ ينبغي أن أُبقي عيني عشرة على عشرة، أما الست فاطمة، أمدَّ الله في عمرها، فقد اضطرت للبقاء في البلدة للاعتناء بالبهايم، وأوصتني بابنتها وأرسلتني بدلا منها إلى هنا، إلى هذه المدينة اللعينة حيث الناس لا يفكرون إلا بوسيلة لسرقة مالك، أو دفعك إلى حياة السوء، فليحفظنا الله من كل سوء، يا لتعسي، في "طماي الزهايرة" كنا ننام وأبوابنا مشرَّعة، القاهرة ليست لنا، سامح الله الشيخ إبراهيم، إنه عنيد، بقى على رفضه الفكرة أعواما، غير الآخر أقنعه في

النهاية تلك الليلة في "رمسيس" كنا أربعة من حولها وبالكاد، حتى ملابسها البدوية ما عادت تحميها، فهم الآن لا يوقرون حتى الصبيان، جازاهم الله.

وددتُ أن أقول لها إنه ينبغي ألا تخاف، فالقاهرة مثلها تعج بالفلاحين الذين حملوا معهم إليها قراهم. وجدت نفسي في صالة الاستقبال، أو ما ينبغي أن يكون كذلك، وهو عبارة عن حجرة شبه فارغة. فُرشت الأرض بحُصر قديمة وعلى طول الجدران بُسطت على الأرض مرتبات من القش، وإلى الجهة اليُمني فُردت أكياس الجوتة والمساند والأغطية المكدسة.

خرجت إلى الشرفة التي تحوط واجهة البيت كلها، وأسندت مرفقيَّ إلى درابزين الحجرة. ولكن ما الذي ينتابني ويشعرني بمثل هذا التوتر. من حيث أقف، من فوق يبدو السوق ضئيلا، فيما الأشياء تجف بدعة تحت أشعة الشمس. لقد عدت مجددًا إلى القاهرة، وجرفني حنيني إليها. ومكثت مستغرقا في تأمل السطوح والنوافذ المشرعة .. وإذا بحفيف ثوب ورائي.

كانت سعدية قد أحضرت الشاي. فعُدت أدراجي إلى الداخل وجلست متربعا فوق الحصير، سوية الأرض، قبالة الخواء، كأنني في مسجد. ليس في الحجرة أثاث، بل بالأحرى بعض الأثاث؛ طاولة، كرسي وما يشبه دكة من قصب، لكنها وُضعت هنا كيفما اتفق، مبعثرة بين زوايا المكان دونما رابط بينها. أما عنصر الديكور الوحيد الذي يزين هذا الشعور، فهو عبارة عن آية قرآنية خُطّت بواحد من الخطوط الفنيّة العربية وضعت في

إطار وأسندت إلى أحد الجدران. إنها أسرة فلاحين أقامت رحالها هنا دون أن تسكن المكان بالفعل، بين هذه الجدران الغريبة بعيدا عن موطنها الأصلي.

فجأة برزت المسافة أمام عيني. "فلا تتب عن حسو هذا الشراب/ فإنما تندم بعد المتاب". هذا البيت وحسب.. كل المخادعات حول السكر الصوفي لن تُبدِّل من الأمر شيئا، الخيام هو الشيطان، ولا بد أنها ستهرع هاربة. لا يجب أن أفاتحها بالأمر مباشرة. في البداية ألقي عليها قصائدي، وبعد ذلك سوف نرى. ومكثت أرقب الباب حيث غادرت سعدية.

دخلت عبر الشرفة كأنها خيال ظل، عرفتها من اختلاج قلبي. مدَّت لي يدها مصافحة فأحسست مجددًا برخاوة تلك الأصابع المستسلمة.

- الجو حار هنا، تعال نجلس على الشرفة.

طاولة مستديرة وضعت لصق الدرابزين، ولكن لم يكن هناك سوى كرسي واحد. جلستُ على المرتبة التي فُرشت على الأرض، وجلستُ بقربها، فرأيتها أخيرا. كانت ترتدي جلابية برتقالية اللون، واحدا من تلك الأثواب الفاقعة الألوان التي تُلحظ من بعد حين ترتديها الفتيات الصغيرات في حقول القطن. الحجاب، وستر الشعر، أمران ضروريان في المدينة، حيث ترود نظرات الرجال وحملقتهم. أما هنا، فنحن في القرية. لذا كانت حاسرة الرأس وقد جدلت شعرها، ومن حين لآخر تداعب جديلتها وتمسِّدها بكفها دون انتباه، بتلقائية، وهي ترمقني بنظرات بين أجفانها المغضية.

- قيل لي أن أحاذر الشعراء.
- لـِمَ؟
- يبدون دائما في مظهر الحالمين الأبرياء.

عادت سعدية وجلست على حصير صالة الاستقبال بحيث تستطيع أن ترانا وتسمعنا. أحسست بوطأة نظراتها على قفاي، غير أنها لم تصدقني، كنت لا أعير انتباهًا لغير الفتاة الجالسة قبالتي. وراحت تخبرني عن رحلتها إلى رأس البر.

- أعشق البحر، والعائلة كلها كانت هناك، فأحسست أني في بيتي. حرة ومصونة. وكانت عزيزة صديقتي الإسكندرانية، هناك أيضا. نتفق على كل شيء، وليس بيننا أسرار. أشعر براحة أكبر بصحبة الفتيات. أما الفتيان أو الرجال، لا أدري، أحسب أنني أكون سعيدة جدا لو لم يوجدوا أصلا.

ضحكت كأنها سمعت دعابة وتحمّرت وجنتاها.

- الشعراء مختلفون، ففي أعماقهم شيء ما أنثوي.. ليس في أجسادهم بل في روحهم. إني واثقة مما أقول.. فبصحبتك مثلا أشعر بالأمان.
- أما أنا فلست واثقا مما تقول. فتشت في جيوب سترتي وسحبت منها القصائد التي كتبتها لها، وحين مدت يدها لتأخذها، أشرت لها بأن لا تفعل.
- بلى، اقرأ أنت، هذا أفضل، قالت.

أسندت ظهرها إلى الخلف وأغضت في نصف إغماضة فتحت

أوراقي. القصيدة الأخيرة كانت بلا قيمة، وما قبل الأخيرة أسوأ منها، أما الثالثة فكانت عدما شرعيا. فاستثنيتها جميعا إلى أن وصلت إلى قصيدة الليلة الأولى.

"خايف يكون حبك لي شفقة عليَّ.." رحت أتلو كلماتها بأكثر ما أسعفت من نبرة الحياد. كانت قصيدة بسيطة ولكن يعز عليَّ أن أعترف لها بذلك. كانت لا تزال مغمضة العينين كأنها لا تسمع شيئا، وعند تلاوتي البيت الثالث راحت تهز رأسها بتمهل وانفرجت شفتاها. مثل هذا النوع من الطرب والافتتان لم أرهما من قبل إلا عند دراويش الصعيد عندما تبدأ قشعرة "الذكر" بالاعتمال في كيانهم. سقطت الأوراق من يدي، فقد كنت أحفظ القصيدة غيبا، ورحت أحدِّق بها بثبات لم أكن أحسب من قبل أنني قادر عليه. كانت شفتاها تتمتمان مرددة الكلمات التي أتلوها. كأنها صلاة. وفي الوقت نفسه، شيء ما جسماني صرف يتملك كيانها، كأن الكلمات تتسرب من مسام جلدها فتفقد السيطرة على جسمها. احتواني هذا القدر من الانتشاء، وشعرت بأنه لا يحد. انتابني الإحساس بأنني أقحمت نفسي عنوة في أمور النساء، وبالذات في ذلك الموضع المخيف حيث الغريزة أقوى منهن. وحدي أدركت تلك الحميميّة التي استفاقت فيها، وربما دون أن ترغب هي في ذلك. على بعد متر واحد مني، على المرتبة نفسها. كان حريًا بي أن أشيح بوجهي، لكني عجزت عن ذلك. كنت أصغي إلى تردد أنفاسها.

كنت أهمس الكلمات بصوت متهدِّج، لم أدرك حقيقة الأمر، إذ سرعان ما تغيرت نبرتي، كنت أقرأ الأبيات لها وبصدق. من الطبيعي جدا

أن تجري الأمور على هذا النحو، فهذه القصيدة قد كتبت لها. تبنئني الرعشة التي أسرت كيانها أن كل شيء قد أصبح على نحو غامض، حقيقة وقبل أن ندرك ذلك.

سكت، واستغرقنا الصمت لبعض الوقت. ثم استأنفت في جلستها مجفلة وفتحت عينيها. رمقتني بنظرات ثابتة دونما حراك، دون أن تعرفني. إما أنها لم تنتبه إلى ما حصل، وإما أنها نسيت كل شيء.

وبصوت خالٍ من أي انفعال سألتني عن معنى أربع أو خمس كلمات لأنها لم تفهمها. ففسرتها لها بشيء من الغُصّة.

– والآن، أبإمكانك أن تقرأ عليّ قصيدتك مرة أخرى، وبتمهّل؟

– فشرعت أتلو قصيدتي دون تفكير، وعاودَت إغماض عينيها.

ولكن سرعان ما تبدّت لي هذه التلاوة الثانية اختبارا شاقا لا أقوى عليه، ذلك أن حال النشوة المنفردة التي ستمنحها إياها القصيدة ستكون فوق طاقتي واحتمالي. ولكن لحسن الحظ جرت الأمور على غير ما خشيت فمنذ البيت الأول راحت تصاحبني كلماتي بتلاوتها. تتدفق الكلمات من شفتيها بيسر لأنها حفظت الأبيات كلها. في البداية، في المقطع الأول جاء صوتها خفيضا مترددا، ولكن في المقطع الثاني أصبح واثقا وواضحا. عند بداية المقطع الثالث تعمَّدت أن أخفض صوتي لكي تتلو منفردة، ففتحت عينيها وداهمني سوادهما حتى الأعماق. كانت شفتاها اللتان تتلوان أبياتي تفترّان عن ابتسامة واضحة المغزى، فانتابني الإحساس فجأة بأنني عاشق وقع في شرَك العينين اللتين تقولان، في غمرة الحب، انظر ماذا

تفعل بي، وبرغبتي أتيح لك أن ترى. بادلتها هذه النظرة، بثبات، فهذه المرة كنا قد أصبحنا سويا.

في غضون الثانية التي، استغرقها تبادلنا النظرات الثابتة بعد البيت الثالث، شعرتُ بأننا نطرح على نفسينا السؤال ذاته، أجل أم لا؟ وربما كنت مخطئا بالكلية. بدرت منها ضحكة مكتومة، ضحكة عاجلة وصادقة على ما أعتقد، وقد تكون ضحكتها الصادقة الأولى. ضحكت لها رنة الأحاسيس، طبعا، ولكن رنة اللذة أيضا. وشيء آخر أيضا، يشبه المودة، أو بالأحرى يُشبه الـ "وجَدْتها" التي يُسر بها الطفل لنفسه حين يدرك فجأة أنه التقى رفيقا يشاركه اللعب.

ضحكة تكسر الجليد، وتحررنا من أخذة الموقف. التفتت نحو سعدية التي كنت قد نسيتها تمامًا. وإذا بها ما زالت في مكانها هناك، جالسة على الحصير، خلفي، لا تُحرك ساكنا. سوى أن جسمها ذا البدانة الفلاحية، بَلْه الفرعونية، قد انحنى إلى الأمام كأنه على وشك السقوط.

– إذًا ما رأيك؟

نهضت سعدية من مكانها واقتربت. نظرت إليّ وهزت رأسها مرارا. ومطّت شفتيها علامة استحسان قبل أن تنفرج شفتاها عن ابتسامة كوّرت وجنتيها وأغرقت عينيها في محجريهما. رقة ما سرَت في جسمها وتدفقت سيلا إلى وجهها الذي أصبح مشرقا. فأحسست أنها أكثر من مجرد مربيّة، بل هي مستشارة، ومرشدة، وميزان قياس موثوق. احتضنتْ فلاحتي بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها، وراحا يضحكان سويا. مدّتا لي أيديهما

فأمسكت بها ونهضت من مكاني، ورحت أضحك أنا أيضا، مثلهما ضحكة ربما كانت الأجمل في حياتنا. أو حياتي أنا في الأقل.

4

أرادت أن تغني قصيدتي على مسرح "البوسفور" في افتتاح الموسم الذي تفصلنا عنه خمسة أيام فقط. ولأن الشيخ أبو العلا لا يُلحن إلا قصائد بالفصحى، كان علينا أن نجد ملحنا آخر، شعرت بأنني خُنته دون أن اقصد. سألتني عما بي، فلم اجد جوابًا.

– أعرف ما بك، قالت همسا. كل صغيرة أو كبيرة تجرحك. لا تظن أنني لا أفهم. لقد أمكنك أن تشعر، على ما أعتقد، بلى بتأثير شعرك عليَّ. بعد بضعة أيام سأكون وحدي أمام الجمهور، مع شعرك، ولا شيء بيننا. يجب أن تمازج الموسيقى روح القصيدة، صبري النجريدي (*) سيضع الموسيقى، سيأتي. وبدءًا من الغد سنقوم بالتمارين نحن الثلاثة، ليلا ونهارا إن اقتضى الأمر. يجب أن أمتلك القدرة على استبطان كل شاردة وواردة في العمل، حتى ما غاب عنك أنت.. فأنا لا أجيد أسلوبا آخر. قُل نعم.

– قلت نعم. أردت أن أغادر. سمعنا حرتقة مفتاح في قفل الباب. إنه الوالد. ذهبت لملاقاته عند المدخل. و لم أسمع إلا صوته مؤنبا.

– سيّان عندي إن كان لا يزال هنا! ماذا فعلتِ بشعرك؟

(*) هو د. أحمد صبري النجريدي (المترجم).

دخل بمفرده إلى صالة الاستقبال. وشعرت بأنه ما زال مرتبكا كما رأيته من قبل، سوى أن عينيه تتجنبان النظر إليّ. تراجعت سعدية إلى باب الرواق، ومكثت واقفا. لم يكن هو نفسه يدرك سببا لغضبه، إذ أدرك أنه يمقت كل شيء في هذه المدينة.

عادت مُطرقة، وقد غطّت جدائلها الملمومة بكعكة عند أعلى الرأس، بنقاب شفيف أسود ينسدل حتى كتفيها، ويلف جسمها بأكمله. فلاحة خلف والدها، خيال محتجب، أخرس. كأن المكان خلا فجأة منا، أصبحنا جمادًا.

– إذًا، قال الشيخ إبراهيم دون أن ينظر إليّ، يبدو أنك كتبت قصيدة.

– ...

واستدار نحوها.

– ماذا تنتظرين، أسمعيني القصيدة!

ذهبت نحو الطاولة حيث كانت الورقة التي كتبت عليها القصيدة. ورمقتني بنظرة وكأنها تود أن تنشق الأرض وتبتلعها. وراحت تتلو عليه بصوت مكتوم ورتيب لا نبرة فيه، حبّي لها.

شاحبة، مترّبة الوجه مثلي، لا بل أكثر مني. كان الوالد يهز رأسه. كأننا أمام امتحان. وتوالت على لسانها الأبيات، جوفاء، مسطحة، لأنها ارادت أن تكون كذلك، فكرهتها جميعا، بيتا تلو الآخر، ولما صمتت أخيرًا، كانت القصيدة مرمية هناك، جثة مهملة بيننا نحن الثلاثة.

– إنها قصيدة جميلة، قالت سعدية بحبور، ليس فيها ما يُشين.

وهرعت هاربة، قدماها الحافيتان تخبطان البلاط.

– سأشتري هذه القصيدة ولكنني لن أدفع أكثر من جنيهين.

– ولكن..

– لن أريد قرشا واحدا.

– كنت أريد أن أهدي القصيدة لابنتك.. إنها القصيدة الأولى التي انظُمها لها.

– الا تريد مالا؟

– لا.

– وراح ينقل نظراته بيننا.

– تعطيني القصيدة وأفعل بها ما أشاء.

– إني أقدم قصيدتي لها، بعد إذنك.

– وستوقع الأوراق.

– أوقِّع.

لم تنفرج أساريره، كأن شيئا ما يفوق إدراكه، فلا أحد يلعب لعبته، حتى منطق المال استُخدم ضده. فأخرج من جيب جلابيته ورقة جاهزة وفردها على الطاولة، خاطبتها، هي، قائلا:

– يجب أن توافقي أنتِ اولا.

– فلم تنبس بحرف واحد.

– سأتقاضى أتعاب القصائد التالية، أعدك بذلك، ولكن هذه القصيدة، اقبليها كما هي.

– فأحنت راسها قليلا.

جرت الأمور كما توقعت. خمسة أيام، قضيتها، يوما يوما، معها. كنت أقصد بيتها بعد انتهاء دوامي في المكتبة. وكنا نجري التمارين على الشرفة، في صالة الاستقبال، لا في مكان في الحقيقة، بل على مسرح وهمي. كان صبري النجريدي طبيب أسنان في طنطا، وهجر عيادته وجاء إلينا. كان رجلا قصير القامة، رقيق اليدين، ويُبدي دون حياء مقدار عشقه لها، وحركة أصابعه الرشيقة تملي لحنًا كأنه نسيج حريري يسعى إلى التجسد. كنت بالكاد أنظر إليه، فلا أرى سواها. لم تكن في ذلك رقة بل عنف.

كانت تردد حتى القرف، هاجسها اقتراب موعد الافتتاح. أما أنا من اعتاد العمل منفردا، فقد اختلستني المغامرة المشتركة، العنيدة التي تقودها هي.

كانت تقسو عليه بالكلام، وتوبخه، وكان يبتسم، فكلامها برد وسلام. لم تكن متطلبة حبا بذاتها بل استجابة لتلك القوة الطاغية التي تستبد بها، تبذل ما بوسعها لتكون كما تريد أن تكون، ولكنها لا ترتضي. كان الهدف الذي تسعى إليه مجردا، حدس كمال ممكن. وبهجتها حين تحقق ما أرادت، طربا ببيت، أو شبه طرب! تضحك جذلا، كمثل طفل يمازج بين الكبرياء والتواضع. وإذ ذاك تستعيد ما هي عليه، فلاّحة في الثانية والعشرين، وتتعرفنا مجددا وتظهر لنا متعتها العارمة، المقتضبة. فنستعيد ذواتنا الحقة، نحن أيضا، وقد شملتنا حالتها، سُعداء. غير أن الإله الذي تسعى في خدمته لا يمهلها إلا قليلا، وسُرعان ما تُعاودها أُخذة السحر فتغمض الأجفان ويستلم الجسد. وفي أواسط الليالي نعود إلى بيوتنا وبنا حميًا أن نعاود الكرّة.

– ما عدت تنظر إليَّ! أما زلت تحلم؟
– كانت تخاطبني، أنا، بمثل هذه اللهجة.
– إنه اليوم الأخير! واحتاج كل دقيقة منه. إن اغفلَتني عيناك لا أغنّي لأحد، لا أستطيع.

مسيرتنا تنتهي هنا، على مسرح "البوسفور". الصالة الفارغة شاخصة إلينا، والأمور كافة ملحاحة؟ هذا التفصيل أيضا، هذا المقطع الصعب، وهذا المقطع الآخر، تكرارا. كان صبري يدندن ويخلط بين نغمين، ويخونه صوته. ورأيتها حانقة، مشدودة الأعصاب كقوس، وتضحك عاليا وطويلا، تضع يدها على كتفه، تستند إليه، وتواصل ضحكها، لا يعود قادرا على الحراك وقد جُنَّ جنونه. تضحك ولا ترفع يدها عن كتفه وينحني جسمها الذي يستخفه الضحك نحوه، لصيقا به. كان ذلك فوق الطاقة والاحتمال. وعند مؤخر المسرح يجلس شيخا العائلة صامتين، صمت أبي الهول.

ثم حان الوقت. تلصّصنا من خلف الستارة الحمراء، فإذا صالة الحضور تكتظ بالحضور. والصمت يرين.

حُجِزَ لنا مقعدان، لي ولصبري في صف "السمِّيعة" الأوفياء، الذوّاقة. اعتمت الأنوار، فأحسست ثقل الصالة يرزح فوق ظهري. كان الشيخ أبو العلا جالسا بجانبي. برغم اعتلال صحته جاء، فشد على ساعدي:
– كيف الحال؟

فطمأنته. وفي الصف نفسه كانت سعدية تتمتم بالصلوات، ولمحت القصبجي، أحد أكبر عازفي القانون، ومحمد، صديقي، كان، هناك أيضا وبصحبته صحافي من مجلة "المسرح".

ظهرت على المسرح في غمرة التصفيق. وكان الزي البدوي الذي ترتديه صدمة لي، فقد اعتمرت كوفيتها مجددا، فأنا لم أرها في زي فتى منذ حفلتها في الأزبكية. همت بإنشاد (خايف يكون حبك لي ..) وكان ينبغي ألا ندعها نفعل، فهي لم تحفظ القصيدة إلا موجزا، وصوتها لم يبلغ أوجّه بعد. بدت مستغرقة في استجماع طاقتها، هي البدوي الصغير السباق قبل الانطلاقة، عيناها تعلقتا بي، أنا، أنا وحدي الجالس في الصف الأول، وصدح صوتها، المكتوم طويلا، على أعلى الوتائر كأنه سلك من الفولاذ. غنت البيتين الأولين دون أن تفارقني بنظراتها، ثم داورت وأنشدتهما مجددا بالنفس إياه. (خايف يكون حبك لي شفقة عليّ / وأنت اللي في الدنيا لي غالية عليّ / شفت بعينك / شفت بإيديك / بس قلبي قالّي /..) فقابلها جمهور الصالة على الفور بموجة من الهتاف والتصفيق. أغضت وأحنت رأسها قليلا فلمحت على شفتيها ابتسامة تحاول أن تخفيها. رفعت رأسها، وواصلت الغناء. كنت أعلم جيدا أنها تتبع سياق اللحن بدقة، في إبطاءاتها، وفي التغيرات في طبقاته الصوتية، وفي ترديده حتى الترخيمات الخفيفة لبعض الألفاظ، غير أن الغناء أصبح أكثر خفة، كأنه يصدر بطلاقة أكبر من إلهام ما، وتكتسي الكلمات شفافية لماحة. لقد استغرقت الوقت، وقت الغناء، ساعة تلو ساعة، واختلست منه

سره، تملّكته، وحولته إلى أنغام، إلى اهتزازات في الأوتار الصوتية. فلاحة صغيرة، لا أكثر لكنها أشبه بالوسيط الروحاني.

لم يبق سوى بيت واحد، وَهَنٌ ما تبدّي في ذروات النفس، فأدرك الحشد توا، لحظة الضعف وصفق لها طويلا. حاولت أن تبقى على الخانة نفسها، فيما الهتاف يتواصل. أحنت رأسها، وقد خل بها صباها، ساكنة تغمرها الحفاوة. وما إن انحسرت موجة التهليل حتى عاودت إنشاد الأبيات الثلاثة. غير أنها هذه المرة نوّعت في الأداء، وإذا بها تفوز، أو تكاد، فيسكرها الإحساس بأن فوزها صار في متناول يدها، وراحت تنوّع في أداء اللفظة الواحدة مرارا. أمسكتْ بي يد الشيخ أبو العلا مجددا. صار الصوت ينساب وفق نسق خفي، وينسج النغم دونما نسيج. وفي لحظة ما، كأنها فتحت بابا وغادرت منه فما عدت أسمع أثرا للحن صبري النجريدي. جاورته، ولكن مهلا، ها إنها تعود إليه من مسلك آخر، يُصاحبها الهتاف والتصفيق، فتستعيد القول بداية. تقيم حوارا مع الجمهور، تسلك نحوا، وتوغل فيه، إذ تلقي بوادر استحسان، ثم تجود به. تستجيب لها الصالة، فتستأنف اللعبة. تبدو من الثقة بالنفس ما يدفعها إلى أداء أكثر التنويعات جُرأة، وتأخذها النشوة إلى أبعد ما يذهب بها صوتها. فيهلل لها السامعون ويطيِّبون من هنا وهناك ثم يصمتون، وصمتهم يعبر عما يودون قوله، كأنه ذبذبة خفية تغذيها لتستعيد قوتها لتنتج، فيصدح صوتها مجددا مرارا وتكرارا.

لم تكن هي فقط من يرتجل، بل هي والجمهور مخلوق من راسين، لكنه واحد. كانت الدموع تملأ عينيّ الشيخ أبو العلا. فالطرب، ذلك التأثير

الفني والجسماني الجمْعي، لحظة الانصهار تلك، هي ما كان أستاذه عبده الحامولي يبحث عنه (ويجده) طيلة حياته. يا ليل!

لم تعد تلك الفتاة التي أعرفها. لقد استسلمت إلى حال النشوة التي فتنتني على الشرفة. كنت أراها. ويراها الشيخ أبو العلا وصبري ومحمد والجالسون في الصف الأمامي جميعا. وينتابني إحساس عنيف. بإمكانهم جميعا أن يُملوا أنظارهم من ارتعاش جسمها الذي يلتوّي ملتفا على حبل صوتها.

وكانت تجوُّد، ايضا وأيضا. كانت البقية الباقية من الجمهور ابعد بكثير، غير أنه يحدس بأنها تبذل له نفسها بالكلية، وكان الجمهور يستجيب بعفوية لا توصف. وددت لو أنهض من مكاني واقفز على المسرح لأسترها بغلالة تحجبها عن أنظار الرجال.

كان الشيخ إبراهيم، والدها، جالسا خلفها، ورأيت على محيّاه تعابير مماثلة للأحاسيس التي تُطبق على صدري، فما عدت أرى سواه. فاغر الفم، محتقن العينين، كأن نارا مستعرة في داخله، وإحساسا بالعار لا يوصف. وفي الوقت نفسه، يبدو مستأنسا، مأخوذا مستغرقا هو أيضا في لذة، في تأثر لا قعر له.

كنت أتأملها من فوق الرؤوس، فتبدو لي في حال انسجام لم أرها عليه من قبل. لم يكن من حولها سوى نساء، تتناقلها أذرعهن مداورة، فتشبّث بايديهن لكي تعود إلى الأرض. أكثرهن أناقة كانت نساء آل عبد الرزاق، الأم والبنات الثلاث، الأسرة التي تبنتها.

دخلت امرأة أخرى، ومعها رفقة. فأفسح الناس لها الطريق. تقدمت وطوَّقت النجمة الصغيرة بذراعيها وضمتها إلى صدرها فبدت الصغيرة محرجة، إذ لمحتُ شفتيها ترتجفان. كانت الزائرة ترتدي أزياء غريبة، وبدا لي وجهها أليفا بشعرها الرمادي المضموم إلى أعلى ونظرتها المشرقة اللامعة، فأعجبتني. كانت تلك "صفية زغلول"، زوجة رئيس مجلس الوزراء، رائد الاستقلال. لا أحد يدرك معنى الاستقلال بالنسبة لنا. كان هناك الإنجليز، وقبلهم الأتراك، وقبلهم المماليك، طيلة قرون من الزمن. وجاء سعد زغلول وانتصر على هذه اللعنة. زوجته تحتضن فلاحتي، فتعترف بصوتها، وتجعله موجودا. كأنها تجمع يدينا بميثاق مصر الجديدة وفنانيها، راح الحشد يصفق.

ذلك اليوم على الشرفة جمعتنا الحركة إياها. ولكي أداري تأثري حاولت أن أتشاغل بالنظر إلى الصفوف الأخيرة. وهناك لمحت خيال سعدية المستوعد، ملتصقا بالستائر، منسيا وقد انهمرت الدموع على وجهها شبه مغميٌّ عليها.

5

بدت لي المقالة التي نشرتها مجلة (المشرق) موجزة وواضحة التملُّق. إنها لا تنتمي إلى عالمهم ؟ وأصولها الفلاحية لا تماشي ذوقهم، بالإضافة إلى ميولهم التقليدية الواضحة، غير أنهم لم يتجرأوا حتى على الإفصاح

عن ذلك صراحة. والحال أن صورتها إلى جانب صفية زغلول تحتل نصف صفحة. وبذلك تكون الظروف السائدة آنذاك، إلى جانب موهبتها وربما أكثر من موهبتها، قد أفردت لها مكانة.

طبعت أولى اسطواناتها. وعلى غلافها صورتها في إطار صغير، صورة كئيبة ترتدي فيها الكوفية، كأنها اسطوانة أناشيد دينية. ولكن لحسن الحظ، كان هناك العنوان: (خايف يكون حبك لي ..) وتحت العنوان وضع اسمي واسم صبري بأحرف صغيرة. كنت سعيدا بالاسطوانة، وأقصد سعيدا بها كشيء نلمسه ونراه. أما سوى ذلك فلم يكن المسجل عليها سوى إعادة بائسة للحفل الذي أحيته. كل أدوار الارتجال والتنويعات والوقف، رُميت إلى سلة المهملات، أي كل ما جعل إنشادها ساحرا. ذلك أن قياس الاسطوانة ذات الـ 78 لا يتسع لكل تنويعات تخت الموسيقى العربية. وبرغم ذلك كانت تلك اسطوانتها الأولى، الاسطوانة التي جمعتني بها.

أصبحت من زوّارها الدائمين. فيوم الإثنين وهو يوم عطلة المكتبة الوطنية، أزورها نحو الساعة الحادية عشرة، ونبقى سويًا حتى المساء. لم نتفق مُسبقًا على ذلك. لكن الأمور جرت على هذا النحو من تلقائها. وذات يوم أحضرت معي ديوان ابن الرومي، وقرأت لها، جالسيْن على مرتبة الشرفة، بعضا من أبياته، بعضًا من كلماته ومعانيها المضمرة. فرأيت في عينيها التماعة الافتتان تلك، كأنها اكتشفت للتوّ قارة مجهولة. طلبت أن أقرأ لها قصيدة أخرى، على الفور بنهم لا يوصف. وأضحكني تطلُّبها الفظ، كأنها تود لو تستخرج من رأسي كل ما أعرفه، دفعة واحدة، وقلت لها إن بإمكاني أن أعرّفها بشعراء آخرين.

بدأت الأمور على هذا النحو. تربة عذراء. فكنت أحمل لها في حقيبتي كل شعر العالم، ابن الفارض، عمر بن أبي ربيعة، أبو العتاهية، حافظ إبراهيم، أحمد شوقي، راسين، شيلي، بايرون. وعمر الخيّام طبعا، فتنظر إليّ كأنني اهبها الجنة على الأرض، كأنني أفتح لها الباب المحرّم.

لم يفهم الشيخ إبراهيم رفضي أن أتقاضى منه قرشا واحدا. حاول و لم يفهم، فكفّ عن المحاولة. أغضى عن سري وغضضت عن سره. أما سعدية فواظبت على الجلوس على حصير المراقبة. وحين يكون عليها أن تعد الطعام كان أحد الشيخين يُلازم صالة الاستقبال. شيئا فشيئا اعتاد أهل البيت وجودي، واستأنف مضيفيّ حياتهم العادية، المتبطلة بالكلية، فيقضيانها في لعب الورق أو الداما. كانت الشرفة ملكا لنا، وبإمكاننا أن نحظى بخلوة فيما بيننا لساعات شرط أن تُترك الأبواب مشرّعة. بدوت منغمسا في هواجسي التي ليس من وجودها نفع أو ضرر. وكنت لا أبالي، بل لحسن طالعي، إذ أصبحوا لا يرونني.

كنا نتلو القصائد سويا ونحفظها غيبا من أسبوع لآخر، كلها قصائد عن الحب، وكان لنا أن نتبع الشعراء ما أبقينا بيننا سترا من الاحتشام. كانت تتوسل ابن الرومي، أجمل أدعية الحب هو دعاء الحب المستحيل، وكنت أجيب بلغة الخيام، لأن لغز الحب الحق يفسر بكلام على حدة.

قُرِع الباب، قامت سعدية لتفتح. قالت هامسة بكل التوجس الفلاحي الموروث حيال كل ما يمت، من قريب أو بعيد، إلى السلطة بصلة. هرع

الشيخ إبراهيم والشيخ خالد إلى الباب و لم تكن ملامحها لتنبئ بأفضل مما ارتسم على وجه سعدية. سلمهما المأمور الشاب الذي يرتدي زيًا نظاميًا رسالة. فمكثا جامدين بلا حراك. فتقدمت فتاتي البدوية ومهرت سجل التسليم بتوقيعها. كانت الرسالة مغلفة بغلاف يحمل ترويسة رئاسة المجلس، وفي داخله بطاقة دعوة. ذلك أن المتوقع قدومها إلى مأدبة عشاء في منزل سعد وصفية زغلول غدا.

- إن رفضت الدعوة سيغضبان، تمتم الوالد قائلا.
- أدركت ما الخطب على الفور. إنها تجهل آداب المائدة، ولا تُحسن التصرف بين الناس، ولا تجيد الكلام بين الناس، إنها لا تعرف شيئا. فما تخشاه هو أن تبدو في مظهر فلاحة غير متعلمة. قلت لها لا تخجلي، فالأمر لا يستحق ومن الطبيعي جدا أن يأكل الناس بأيديهم.

أجشهت باكية وهرعت إلى غرفتها. فالمدينة بالنسبة لها عبارة من غابة لا تفهم قواعدها. شعرتُ بالحيرة لا أدري ماذا أفعل. والتفتُّ إلى الشيخ إبراهيم.

- إنها مجرد قواعد حمقاء للسلوك. وأنا مستعد لألقنها إياها. اذهب واحضرها.

هكذا تم الاتفاق بين رجال. في المطبخ كانت هناك طاولة بالارتفاع المطلوب، فأحضرت كرسيا من ردهة الاستقبال. كان الشيخ إبراهيم قد عاد ممسكا بذراع ابنته، جلست إلى الطاولة أمام أوعية الطعام المرتبة حسب الأصول، طبق مسطح فوقه طبق عميق، وزق ماء وملح وبهار.

كانت سعدية ترمقني بنظراتها كأنني طبيب يهم بتعرية الفتاة الصغيرة التي ترعاها. وقفتُ خلفها، ومددت يدي، برفق من فوق كتفيها وأمسكت بيديها اللتين أمسكت بهما الشوكة والسكين. كان جسدها مستسلما بالكلية لما أفعله. ورحت أُعينها على قطع شريحة اللحم وأنا أكلمها بهدوء، ومسحت بإصبعي على ذقنها لكي أذكرها بأن تمضغ طعامها مُطبقة الفم، ثم استخدمت فوطتها ومسحت شفتيها بطرفها، ثم جعلتها تحتسي الحساء دون أن تُصدر صوتا. كانت تطاوعني في كل ما أفعل، ساكنة مطواعة، مُستعدة لأن تفعل أي شيء أما الأب والأخ فمكثا جامدين في جبّتيهما المتطاولتين لا يحركان ساكنا، يراقبان المشهد بعيون تقدح شررا. فقد اقتحمت، متطفلا، أولى دوائر الحياة الحميمة، دونما قصد، مبهورا، أفعل أمام أنظارهما كل ما يعتبر محرّما.

تابعنا التمارين على آداب المائدة كل يوم إثنين. وكان الأمر يُحرجها بعض الشيء، كأنه إعاقة، وكأنها تُعرّض أشياء الأسرة الحميمة لأنظار غريب. وفي المقابل انصرفت إلى حفظ الشعر بحماسة أكبر فأكبر، وحررت جسدها من قيوده كافة.

كنا نتصافح بالأيدي في بداية الزيارة وعند ختامها لا أكثر. وبدا أن العائلة قبلت بي تدريجيًا. وحده شقيقها الشيخ خالد كان يُبدي بعض الضيق. كان من جيلي، في الرابعة والعشرين من عمره، ويُطالعنا جميعا بوجهه العبوس المتبرّم لم نتبادل منذ لقائنا الأول أكثر من ثلاث عبارات.

في نهاية ساعات ما بعد الظهر، كان يعلو صوت المؤذن بالصلاة، فتغادر سعدية الصالة برفقة الشيخين. وكنا نتابع عملنا، كالعادة. لا نبدل

.ن سلوكنا شيئا باستثناء بعض الراحة التي تطرأ فجأة على حركاتنا ونبراتنا
وقربنا واحدنا من الآخر. كانت الشرفة بمثابة بلاد خيالية، لنا وحدنا، كل
:ي، فيها مُباح. أبيات الشعراء تعبر صراحة عن الملذات الجسدية، وكانت
مراها بصوت واضح وواثق. وفي عينيها التماعة البراءة شبه الكاملة،
وهذه "الشّبه" كانت تُميتني.

أسحب من حقيبتي القصائد التي أكون قد كتبتها لها خلال الأسبوع،
انظر دائما تلك اللحظة لكي أطلعها عليها. حتى ذلك الحين كنت لا أجرؤ
على إطلاعها إلا على الأبيات التي تحتوي بعض التلميحات الغامضة، غير
انها لم تكن ترغب في فهم أكثرها وضوحا.

أسندت ظهرها إلى التكايا، وقد أغضت نصف إغماضة، وانفرجت
شفتاها قليلا وبسطت راحتيها نحوي. كنت أبدأ بالقراءة دون أن أنظر
إليها. أتلو على مسمعها القصيدة التي نظمتها لها أثناء رحلتها إلى رأس
البر. "يا فايتني وأنا روحي فيك / ما تقوللّي كان إيه بكاك". وتلك التي
استلهمتها من عودتها "رق الحبيب وواعدني يوم" ثم الثالثة التي
استلهمتها من حفلة كازينو البوسفور "أخذت صوتك من روحي /
وحزن لحنك من نوحي".

عاد الشيخ خالد إلى الصالة، وكان ينبغي أن أتابع قراءتي دون أن
أخشى شيئا، لكني سكت، فبدا سكوتي المفاجئ جرما مشهودا. هرع إلى
الشرفة كالمجنون، ولم يجد ما يؤكد ظنه. لا يُعقل أن يكون مجرد إحساس
لديه مأخذ علينا. وهذا ما كان يُضاعف غيظه، لأنه كان واثقا كل الثقة

مما لا يستطيع قوله، لكنه مؤكد. يجب أن تخجل من نفسك، يجب أن تخجل من نفسك، راح يُردد هذه العبارة صارخا. كان الشحوب يشل فكيه، أما نحن فكنا جالسين على المرتبة سوية الأرض، ما يجعلنا تحت رحمة غضبه. حاولتْ أن تعترض. وحسبت لوهلة أنه سيضربها وهو قد يفعل أسوأ من ذلك.

– لا تحاولي أن تسخري مني وإلا قتلتك، وأنت تعرفين جيدا أنني قد أقتلك. لا تتظاهري بأن شيئا لم يحصل، وأنها شكوكي فقط! اخفضي أنظارك عني، لصالحك أن تخفضيها، ولا تحاولي أن تتلاعبي معي، هيا اذهبي فورا، إلى غرفتك!

أطاعت كلامه وذهبت، مكثت جالسا مذهولا. أوراقي مبعثرة على المرتبة، فرُحت أجمعها واضعها في حقيبتي، ثم نهضت لأغادر، وأنا اشعر بأن كل حركة مني اعتراف جديد بالذنب. كان الشيخ خالد قد تراجع قليلا حتى الباب، واتكأ إلى إطاره فيما يداه ترتعشان وتفتر شفتاه عن ابتسامة متوعدة. وما إن مررت من أمامه، خاطبني بهذه العبارات الملغَّزة:

– حوانيت المزينين تغلق أبوابها يوم الإثنين، يا سيدي الشاعر، ولن تجد هنا شعورا تقصّها.

6

أدركت جيدًا ما يقصده الشيخ خالد بعبارته تلك، الأمر الذي فاقم من حنقي عليه. لقد كشف السّتر وعُرّض للنور ما لا يمكن عيشه إلا في الظل. لقد فقدت فجأة علاقتي بالعينين المغمضتين، وأدركت كم كانت غالية بالنسبة لي، من دونها تصبح المسافة بين السرير والخزانة صحراء شاسعة وتُصبح حياتي هي الصحراء.

قُرع بابي. كانت سعيدة تقف في الفناء حاسرة الرأس. رفضت أن تدخل، فأمسكت بذراعها وأدخلتها.

- الصغيرة هي التي أرسلتني. جئت لأقول لك..

وزاغ بصرها بين الأثاث واللوحات والنجود.

- خالد يرى الشر حيث لا شر على الإطلاق، وحق الله أنت تعلم جيدا أن لا شيء من هذا القبيل، هو هكذا منذ صغرها، لا تأخذ خالد على محمل الجد، فقد غضب منه والده كثيرا وهدد بإرغامه على العودة إلى (طماي الزهايرة)، وتقول لك الصغيرة إنها تنتظرك يوم الإثنين كالعادة، وأنها تتكل عليك، فلا تغضب، هذا ظُلم والله، أنت أكثر من يحظى بمودتي من بين الآخرين.. وكذلك الأمر بالنسبة للصغيرة على ما أظن..

- من بين الآخرين..، أي آخرين؟
- ألا تعلم؟
- أي آخرين.

كنت أحسب أن مواعيدنا هي مواعيدها الوحيدة، لكنها كانت تلتقي آخرين، ولا بد أنهم هم أيضا، كانوا يحسبون أنها لا تلتقي سواهم. لم تأت على ذكر هذه اللقاءات ولو تلميحا، فقد استطاعت أن تحشد من حولها المدينة بأسرها. وليس ممن لا شأن لهم يُذكر، بل أمثال القصبجي والشيخ زكريا، أي أفضلهم، أفضل من طوعت أصابعه سحر الألحان، تلتقيهم خفيّة. ألم تبق لي شيئا؟ كم أرّقني هذا السؤال، ليلة تلو الأخرى. كنت لا أدرك تماما معنى الحيز الذي احتلته هذه الفتاة من حياتي، وهو الأمر الذي كان يُثير أعصابي، دون أن يبدل حالي من الأمر شيئا. وبصحبة الآخرين.. كم كانت تبدو فتية، فيستسلم جسمها على أهون ما يكون حتى دون أن تدرك ذلك. أتخيلها بصحبة الآخرين. طوال الليلة المنصرمة لم يغمض لي جفن حتى الفجر، فنهضت وأضأت الغرفة لأكتب ما يسقمني: "تراعي غيري وتبتسم".

عُدت رغما عني. وما كنت أتوقف أمام الباب حتى فُتح لي.

كان شعرها مُسبلا. خط أسود يُكحّل بريق عينيها، والأحمر يُخضبُ وجنتيها. لقد تبرجت فوددت أن أفرك عينيها وخديها حتى تنزف دما لأمسح كل هذا.

أمسكتْ بيدي وقادتني نحو الشرفة. دعتني للجلوس على المرتبة وجلست بجانبي دون أن تنبس بكلمة. كان الجميع قد غادروا البيت، حتى سعدية. كنا وحدنا في موقف فظيع. لا، لم يكن الموقف فظيعا وحسب، بل كان علينا أن نخترع مجددا لغة بيننا. أما هي فكان ملاذ

الصمت فُسحتها. تتنفس الهوينا، وتدع الوقت يمضي. كانت دعتها تثير في أحاسيس مضطربة. ثم حدَّثتني دون أن تنظر إليّ.

- إني أصغُر شقيقي بسنتين. ليلة مولدي صادقت ليلة القدر، الليلة التي أملى الملاك جبريل القرآن على الرسول. أمضى والدي تلك الليلة مستغرقا في صلاته في المسجد، ورأى في حلمه امرأة ترتدي حجابًا أبيض تمد يدها نحوه وفي كفها شيء. كان ذلك الشيء جوهرة خضراء، نورا مغلفا بنسيج. وما إن رفع عينيه لينظر إليها كانت توشك على الاختفاء، فناداها وسألها عن اسمها، فأجابت أنا ابنة الرسول، أم كلثوم.

كان والداي يفضّلان أن يرزقا صبيا، غير أني كنت هبة من السماء، وقد ربتني أمي على هذا الأساس. ولم يكن خالد ليعير الأمر بالا، فقد كنت شقيقته الصغيرة والسلام. كان يرعاني ويصطحبني للعب على طول الدرب الوحيد الذي يُحاذي رافد النيل. في ليالي شهر رمضان، كنا نجوب أزقة البلدة قارعين القُصع العتيقة بأعواد لإيقاظ الناس من أجل السحور. كنت أرتدي جلاَّبيّة حمراء مطرّزة بالذهب، وكنا دائما معا. تخوض أقدامنا العارية في تراب الأزقة وغبارها، وكان خالد يعاملني كأنني صبي.

ثم ما لبثوا أن ميّزوا بيننا، أراد أبي أن يلقنه الأناشيد الدينية، وأغاني الأفراح أيضا، لكي يرافقه في المناسبات، ويساعده. كل ليلة كانا يخلوان إلى الحجرة، ولشدة ضيقي من هذا الأمر أضع أذني على الباب وأصغي.

ربما بهذا السبب حفظت الموشحات والتواشيح والأدوار التي ينشدها خالد قبل أن يحفظها هو؛ شربة ماء. لم أكن لأتجرأ على إنشادها في حضور والدي، فأصعد إلى سطح منزلنا وأنشدها بأعلى صوتي. ذات مساء سمعتني والدتي. ولسوء طالعي أخبرت والدي بالأمر فضربني. فأنا فتاة، والفتاة لا يجوز أن تغني.

لم أعد قادرة على التخلي. أرسلوا خالدًا إلى الكتّاب. بكيت وامتنعت عن الطعام، لكن ما فعلته لم يجد نفعا. حفظت القرآن تلصصا وعنوة، وكنت أرغمه على ترداد كل ما يدرسه على مسمعي. كنت تعيسة ومتسلطة، فما استطاع أن يرفض لي طلبا.

غريب أمر أمي، فهي لا تجيد حتى كتابة أحرف اسمها، ومع ذلك أيقنت ما الأمر. لقد رأت أن تعاستي لن تزول بسهولة، فباعت إحدى حُلاها القليلة وأرسلتني إلى الكُتّاب، كانت صاحبة الفضل في ذلك. وعندما علم أبي بالأمر ذكرته بما رآه في حلمه. فقد وُلدتُ بعلامة، ومسّت يد القدر رأسي، لذا فإن العرف لا يمكن أن يطبَّق عليّ.

هكذا درجت على الذهاب برفقة أخي إلى الكتّاب كل يوم. كنت قد حفظت القرآن كله، تقريبا، فالكمال لله وحده، أما نحن فلا يسعنا إلا أن نصبو إليه.

الفتاة الأخرى الوحيدة التي كانت ترتاد الكتّاب عائشة، ابنة العمدة، فأصبحت صديقتي. وقد أنشدت للمرة الأولى في بيتها. كنت في السادسة. وقالت إني أملك صوتا جميلا، فأراد والدها أن يسمعني. كان والدي حاضرا في مجلس العمدة ولكن أسقِط في يده. وقفت على كنبة

، اخترت آية من القرآن. كان العمدة قد دعا أعيان البلدة، وبدا مسرورا، ولمكافاتي أرسل من يُحضر لي طبق مهلبية بالقشدة. وكان ذلك أول أجر احظى به من الغناء.

مع الوقت قبِل أبي بأن يصطحبني في مناسبات البلدة والجوار. كنا ،ذهب بصحبة خالد وينضم إلينا أحيانا أحد أبناء أعمامي، بحسب أهمية المناسبة. ثم بدا الناس يطلبون حضوري أنا. وكم كان خالد يجد نفسه مُرغما على أن يحملني فوق كتفيه لطول المسافات التي نقطعها سيرا على الأقدام. وفي الأثناء يرمقني بنظرات غريبة. طارت شهرتي في الجوار، ، اصبحنا مجبرين على اجتياز مسافات أطول فأطول. وبالمال الذي كسبناه استطاع أبي أن يقتني حمارا. كان يسير في مقدمة الركب فيما خالد وابن عمي يهرولان في المؤخرة، أما أنا فأنظر إليهم من أعلى، ممتطية ظهر الحمار.

كان أجري عن كل حفلة يتزايد في أنحاء الدلتا. أما شقيقي وابن عمي ووالدي، فقد توقفوا عن الغناء تقريبا، وأصبحوا يكتفون بمصاحبة غنائي. ثم أصبحنا نستقل القطار، ولجهلي، لطالما حسبت أن المقطورة تبقى ثابتة في موضعها فيما الجوار هو الذي يتحرك من حولها. ويحصل أحيانا أن نستمر رحلتنا في القطار طيلة النهار ريثما ننتقل إلى قطار آخر، ونصرف الساعات في انتظار عربة الكارو التي ينبغي أن تقلّنا إلى مكان العرس الذي يكون قد أُلغي في الأثناء. وحين يتأخر قطار عن موعده، كان أبي يطلب أن يُسمح لنا بالاستراحة في الصالة المخصصة للشخصيات، وأغني لناظر المحطة، فيشرِّع صوتي الأبواب أمامنا على مصراعيها.

عندما بلغت العاشرة، قرّر أبي أنه ما عاد ينبغي أن أظهر أمام الناس بثياب ملونة. وألزمني بارتداء الجلابية الرمادية التي ترتديها أمي، وأن أرتدي ملاية. أما خالد فقد بدا أكثر تشددا، فلا يرى أن أكثر الثياب حشمة كافية لستري عن العيون. لذا اقترح أن أتنكر في زي بدوي صغير. وصار مظهري شغله الشاغل. وكلما وصلنا إلى حفل زفاف أو تدشين أو طهور، يتفحصني بدقة، وبحركة عصبية يستر كل خصلة شعر بادية من رأسي.

عندما جئنا إلى القاهرة أصبح خالد لا يُطاق، تُثار أعصابه لأتفه سبب ويُعنّفني وينتقد أسلوبي في مخاطبة الناس أو حتى في النظر إليهم. فحِرت في أمري معه. تقول سعدية إنه ينبغي أن نفهم سلوكه هذا فهو شقيقي، وقد أفقدته الحق في أن يكون البكر، لا بل انتزعت منه الحق في أن يكون الصبي.

حتى إنه لا يسعه الاعتراض لأن السماء هي المسئولة وليس أنا. لقد أعطيت هبة من الله. وكم تكون الهبة ظالمة أحيانا.. أحاول أن أحترم خالدًا، أن أتفهمه، ليس بيدي حيلة. ولن أنسى أنه شقيقي.

لم أكن أريد سوى شيء واحد، وهو ما تريده هي، أن نستعيد علاقتنا الصامتة.

– عدني.

فقطعتُ لها عهدا. وما إن تلفظت بالعبارة حتى اكفهر وجهها. حدس خاطئ خشية أن تفقدني حكت لي حكاية، لا شيء يربط فيما بيننا والكذبة أصبحت حقيقة. لم أعد خطرا عليها، فما عادت في حاجة لإغوائي. دسست يدي في جيب سترتي وسحبت منه قصيدتي الأخيرة،

"تراعي غيري وتبتسم". وعندها، إذ لم أكمل الحركة التي باشرتها بعد، انفطر قلبي. ربما كان يكفي أن أمد يدي. كانت الخيبة ما زالت كابية في عينيها. وبلمح البصر أدركت أن تبديل الموقف كان في متناولي، موقنًا أني ضيّعت الفرصة، وواثقا، برعب، أن الفرصة لن تسنح ثانية في وقت قريب.

7

نجحت في إقناع القصبجي بأن يلحّن لها. و لم يتم لها ذلك إلا بعد أخْذ ورد، لأنها ترفض آلة العود، بل ترفض أية آلة أخرى، فهي تريد الموسيقى فقط. والحال أن القصبجي يرى أن آلة العود هي حياته. كان في الخامسة من عمره عندما أهديت له هذه الآلة للمرة الأولى، وكانت ذراعاه أقصر من أن تمكّناه من العزف عليها. أمضى عمرا يداعب أوتارها حتى تمثّلها جسمه، وصار أحدب الظهر. ولكن يكفي أن يجلس ويحتضن الآلة حتى تزول الحدبة ويستعيد استقامته.

"تراعي غيري" غنت في حضوره بصوتها دون موسيقى. وعندما انهت غناءها تقف أوتاره وأستغرق في متالية من التنويعات على اللحن ذاته، بدا الأمر يسيرا فهو يمتلك مقدارا من الحدس والموسيقى يُتيح له أن ينتقل بين الوتائر دون أن يلحظ السامع أين الوصل بينها. إنها بالنسبة له، لعبة أطفال، أو بالأحرى هو نفسه طفل مستغرق في لعبته، رصينا

ومستخفا في آن، منكبا وساهيا، ساهيا مبتسما، فاقدًا الإحساس فجأة بأن ثمة من يسمع.

توقف عن العزف، باهرا. قال إن العود هو صدى صوتك، فصوتك يحاوره وهو يحاور صوتك، ليس لي أي مأخذ على جوقة عائلتك، حفظها الله، ولكن يلزمك جوقة موسيقية، أبعدي عائلتك، واسمعي، فما عدتِ في حاجة إليها.

هزت رأسها لا يسعها أن تفعل ذلك، فهي بذلك تخون عائلتها، والدها يؤمن أن صوت الإنسان هو الآلة الوحيدة التي خلقها الله.

– فلاحة، بنت كلب.

من القصبجي تتقبل كل شيء. كان يُضحكها ولا يستطيع أن يرفض لها طلبا، الواضح أنه معجب بها، ومع ذلك لم أكن أشعر بالغيرة منه، لا ليس منه. كانت له ملكة الوصل بين الناس، أهداني صداقته والوهم بأن نكون ثلاثة، وأن نكون ثلاثة، أمر يتيح لي أن احفظ علاقتي بها، ولكن حين يغادر أفقد كل الوسائل للحفاظ على هذه العلاقة. فلا أعود واثقا مما إذا كانت تريدني أو لا تريدني، فأكره نفسي. أراه مبطئًا للغاية، وأراه عجولا للغاية، وأراه محايدا، فأحار في أمري، ولا يعود قادرا على امتلاك أمره. تنشد القصائد وتستدرك أنفاسها كالغريقة، وترتعش على وتائر البلد المتخيّل الذي ما عدت فيه. أصغي إلي صوتها بوله، غير أني أمكث في الخارج. أراقب حركة يديها، وضع جسمها، أيلتفتُ إليّ أم لا، في كل إيماءة منها أرى علامة. وما إن تنتهي من الغناء، ثملة من نشوتها

الخاصة، يقع نظرها عليّ وينطفئ. ولا يبقى لي سوى ذكرى انخطافها، وقربها الذي لا يُمس.

عندئذ وبغضب عارم أنتزع من روحي ما أعرفه وأسفحه أمامها، رغبة في اجتياز الكل في وقت معا.

كانت تلحظ عنفي، فأنا واثق من ذلك، لكنها لا تجيب، ولا تسألني شيئا. ويُصبح التحرُّق الذي يغلبني موضوع قصائدي. "قلبك غدر بي"، "سكبت والدمع أتكلم"، "البعد طال"، و"أخذت صوتك من روحي"، لم اكتب يوما كما كتبت. وكانت تتقبل أبياتي دون تعليق كأنها لا تريد أن ترى. تريد مزيدا من القصائد، والمزيد والمزيد، لا أكثر. وكانت تحيي حفلة كل يوم خميس من بداية كل شهر.

كان الأمل في عنيدا، يتلقى الخيبات لكنه لا يقدر على السلوان. في المكتبة، في البيت، في كل مكان، أصرف وقتي متفكرا. استحوذ الأمر على تفكيري؟ أسيان من حب لم يبدأ بالفعل. ومع ذلك له قوة الحياة.

فتحت عيني، وأحسست بصفاء السريرة ودِعة الأفكار الواضحة. غلس على أهبة أن يُصبح نهارا. أدركت الحل الذي كان بديهيا لا مشقة في العثور عليه. سأكتب لها قصيدة، حاسمة، تشرح لها كل شيء، هي رسالة حب واضحة. وستفهم، أو لن تفهم، لكنها ستكون مجبرة على إظهار رد فعل، أي رد فعل، وسأعرف بدوري، جلست إلى مكتبي، وجاءت العبارات من تلقائها.

في مضي ثلاث ساعات كنت أقرع بابها، استقبلتني كما تفعل دائما. لم أنبس بكلمة، فأحسّت بلهفتي جلست. وقرأت لها القصيدة دون توقف. "إن كنت أسامح وانسى الأسيَّة / ما خلصش عمري من لوم عيني / دبِّل جفونها / كُتر النواح / فاضت شئونها / ونومها راح / تقول لي انسي واشفق عليَّ / وآجي انسى يصعب عليَّ". رفعت ناظريَّ، كانت ترمقني بالنظرات التي اعتدت أن ترمقني بها من قبل. تعترف نظراتها بالصحراء التي احتلَّتها، مقفرة، في روحي، ما عادت تذكر ذلك، وأحسست أن صلتي بها قد استعيدت. كانت نظرة خاطفة، غير أني لمحتها. و لم تلبث أن غامت.

هذه الأبيات بالذات لحنها القصبجي، كما لم يُلحن من قبل. وكان ذلك منعطفا حقا. وغنت "إن كنت أسامح" بانسجام كاد يُثير فتنة. فأنا لم أسمع من قبل تهليلا من قبل جمهور على هذا القدر من التلقائية. فقد أصاب نقطة تدفق الألم. وكان الأمر فظيعا لأن هذا الألم كان المي أنا، وقد فهمتْه بلمح البصر أو استعادته، حزني أنا، في مكان عام، ليلاقي مثل هذا الصدى الهائل. كل رجل في الصالة أصبح أنا، كل واحد منهم نهل من النبع وتلوّى من حرقة الحب لا يُمكن سلوانه. بدا الأمر أكبر مني. فاستجابة الجمهور بلغت أقصى ما قد تبلغه أية استجابة، وأدركت أن الأمر يتخطى حلقة الغرام.. أو أن كل ما حولنا هو حلقة غرام، وضعنا، عصرنا، ومصر بأسرها. فنحن نريد أن نكون أبناء عصرنا، مستقلين، حديثين، ونلهث وراء التقدم، ثم نتنكر له، ثم نلهث وراءه. ربما كانت "إن كنت أسامح"

نعبر، دونما قصد، عن حالتنا العامة، وربما كانت فلاحتي الصغيرة كاهنة هذا الشعور دون أن ندري، كم هي مخيفة هذه الفكرة.

أجمعت الصحافة على تناول هذه الحفلة، فالنجاح كان باهرا. واقترح منصور عوض، صاحب شركة (غراموفون) طبع "إن كنت أسامح" في أقرب وقت، وعرض أن تُدفع حقوق مقدارها خمسة قروش على مبيع كل اسطوانة أو مبلغ مقطوع مقداره 25 جنيها. واختار الشيخ إبراهيم دون تردد العرض الثاني، فقد بدا له مبلغا لا يُستهان به. فما كان ليخطر باله أن هذه الاسطوانة ستكون النجاح الساحق الأول لابنته. والحال ان اسطوانة (إن كنت أسامح) قد وُزِّع منها أكثر من ربع مليون نسخة بيعت جميعها، وفي كل حفلة أقيمت بعدها كان الجمهور يرفض أن يغادر الصالة قبل أن يسمعها.

لم يأتني الجواب على الفور، وعندما جاءت تساءلت: إذا كانت هي نفسها الفتاة التي أعرفها. فقد أثار النجاح في روعها نشوة ما أعجز عن وصفها. وللمرة الأولى يُلاقي ما تحس به صدى بمثل هذا الإلحاح. لم تكن مذهولة، فما حدث هو تحقق النبوءة. غير أني ناظم القصيدة. ولم تكن ثمرة براعتي أو نتاج إلهامي، بل كتبتها بدمي. وعذابي الحق الذي أنشدته مسببته وضع العجلة على الطريق. فإذا بها تقترب مني، كأن القدر هو الذي أراد. وصار الرابط بيننا نهائيا. عاود التألق الدافئ لمعانه في عينيها، والامتنان أيضا. إنها تتقبلني من جديد، وتصحبني في مسارها، وقد تكون البداية من جديد، ربما.

8

فجأة وضعها أحدهم في المرتبة الأولى. لقد كتب عنها في مجلة (L'illustration) الفرنسية بوصفها أكبر مطربة عربية في هذا القرن، وإنها من المكانة بحيث تبدو فنانات مصر الأخريات وكأنهن مُطربات ملاهٍ. فقد استطاعت أن تمزج الغناء التقليدي بأنغام مذهلة بحداثتها. وهذا ما رآه فيها، من قبل الشيخ أبو العلا، ذلك التمازج بين التقليدي والمجدد. على الأقل، هناك من أدرك ذلك.

كنت في الترامواي قاصدا بيت محمد، التزاما بموعدنا كل يوم ثلاثاء على جاري العادة. نظر الكومسرجي إلى صحيفتي وتعرَّف على الصورة. أليست هي؟ بلى إنها هي، أشار بإصبعه إلى النص الفرنسي الذي لا يفقه منه كلمة، مذهولا لرؤيتها، هي محاطة بكل هذه اللغة الأجنبية.

لقيت محمدًا شاردا مستعجلا، أعطيته القصائد التي نظمتها له. لقد حقق نجاحا يضاهي النجاح الذي حققته هي، لا بل هي أكثر. ويلح عليّ بالمزيد من القصائد التي بتُّ عاجزا عن تأليفها، فيلجأ إلى شراء آخرين ويعمد إلى تلحينها ويصاحب نفسه على العود.

كان العمل معه مختلفا. يضع العود على ركبتيه ويقرأ القصيدة بيتا بيتا ويبتكر مطالع أنغام، متنبها إلى سلسلة الأبيات لا إلى معناها. في ذلك اليوم بدت أصابعه رشيقة متعجلة، تصل النغم المرتجل بالنغم المرتجل، وصوته يراوح بين الابتعاد عن النص ثم العودة إليه ثم الصمت، ثم الإعادة بنبرة أعلى. مكثت هناك مغتبطا، أما هو فكان يتابع عزفه بانكباب عنيد دون

،وقف، بتنويعات جديدة وتقاسيم، يستعيد القصيدة من بدايتها وينشدها دفعة واحدة. وعندما فرغ منها بدا لاهثًا وقد غطى جبينه العرق.

- هل استحسنت ما سمعت؟ ليست من نوع طقاطيق المقاهي؟
- ...
- من هو ذلك الصحافي، أهو أحد، أصدقائك؟
- ...
- أراك كالأعمى. إنك لا ترى سواها.
- وأنت ماذا ترى؟
- أناسا، فتيات العالم كما هو.. هل تعرفت إلى فتاة أخرى منذ عودتك من باريس؟
- ...
- هيا أجبني!
- وما علاقة هذا بذاك؟
- لقد صنعتها، وما عادت في حاجة إليك. بإمكانك الآن أن تعود إلى صحبتي، نرتاد المقاهي، تتعرف إلى نساء.
- نهض ودخل إلى الحمام، سمعته يفتح صنبور الماء ويغسل وجهه.
- هل قرأت صحف هذا الصباح؟
- لم يتسع وقتي لذلك.
- إنها على الطاولة أمامك.

كانت مجلة المسرح قد نشرت رسما كاريكاتوريا يصورها ممتطية ظهر حمار، يتبعها شيخا عائلتها شاهرين القرآن بيد، وأوراق البنكنوت باليد

الأخرى. وعنونت المجلة صفحتها بما يلي: "القصة الحقيقية لنجمة طماي الزهايرة". كنت أجهل أن الآنسة التي أبرزتها مجلة (L'illustration) قادرة على التمييز بين الدو والمي. فما هذا الجديد الذي أتت به؟ كيف يجرؤ أحد على القول إن الشعراء يتهافتون لأجلها، وأن المسارح الأخرى تخلو مقاعدها من الرواد حين تقيم، هي حفلة غناء؟ إن سر نجاحها لا يكمن في جمال صوتها، بل في أحابيل عشاقها الكثُر. إنها تحاول أن تخلف السلطانة، منيرة المهدية، التي كانت أول مصرية تقف على المسرح حيث كنا لا نرى سوى مغنيات سوريات أو لبنانيات، وكانت أول من رفض خزعبلات عصر مضى. إن الوافدة الجديدة تختبئ خلف مظهر الطهارة، لكنها لم تغادر قريتها إلا هربا من العار. فقبيل رحيلها من هناك، قصدت مركز الشرطة المحلي لتقديم بلاغ حول تعرضها لاغتصاب. ويعد الجرنال قرّاءه بنشر المزيد من التفاصيل حول هذه القضية في عدده المقبل.

عاد محمد إلى الحجرة. فنظرت إليه.

– يجب أن لا يقرأ والدها هذا الهراء.

– لقد أصبحت مضجرا بالفعل. من يُبالي بأمر والدها. ثم ما الذي كان في حسبانك أن يقف المتضررون من نجاحها مكتوفي الأيدي؟

– ولكن ليس بمثل هذه الوسائل الدنيئة.

– مسكينة هذه الفتاة. ولكن لا تقلق بشأنها، فهي ستتفتح في مثل هذا النجاح، وسوف ترى أنها ستفعل إنها قاتلة.

– لم أعد أفهمك، ولدي انطباع بأنني ما عدت أعرفك.

– ...

- هيا بنا، سنذهب إليها.
- إني ذاهب إلى منيرة المهدية، فهي تريد أن أنهي موسيقى "كليوباترا" لقد اشترت مسرحا، "البرنتانيا". وسألعب إلى جانبها دور "مارك أنطونيو"، وهي ستلعب دور "كليوباترا". من المستحسن أن تذهب أنت إلى نجمتك لكي تواسيها بمفردك.

لم يسبق أن جئت إليها دون دعوة مسبقة. كان الباب مفتوحا فدفعته بيدي. الشقة خالية ومرتبة. ناديت، لم يجب أحد. اجتزت الصالة. على الشرفة أيضا لا أحد، الأشياء المهملة، الحر، والحارة. سمعت بكاء مُرًّا، تناهى إليّ من إحدى الغرف.

أعاقتني ستائر التول قليلا قبل أن أجد نفسي في الداخل. في الضوء الظليل الذي يكاد لا ينير الغرفة تراءت لي أخيلة عدة. في فستان نوم مكشوف الظهر، ممتد على السرير. عرفتها من صوتها إنها هي. لم تكن مجهشة في البكاء، بل كنت تضحك. وسعدية الجالسة عند ردفيها منهمكة في تدليك كتفيها. ومن جهتي السرير، تقف اثنتان من بنات عبد الرزاق، حافيتي القدمين، وعزيزة الصديقة الإسكندرانية، مستلقية بجانب السرير، تمسّد ربلة ساق فلاحتي بأصابعها الرقيقة، وقد طوّق خلخال رفيع ربلة ساقها. كان الخلخال لامعا على الجلد المندّى، ببريق يفضح لعبة الظلال، الجلد على الجلد، استسلام، منظر اختلاط هذه السيقان، هذه الأوراك. شيء ما كان يسود مناخ الغرفة، عضوي، أنثوي، مُعرّى، وإنساني مفرط في إنسانيته. كانت الأنفاس تمازج الأنفاس، والهواء الرطب المضمّخ بالحنة

والعرق يتلبد في رأسي. لم تبادر أي منهن إلى ستر جسمها، لم يخطر ببالهن مثل رد الفعل هذا، فالافتتان كان أقوى منهن. لقد خرقت كل الأعراف، ووجدتني وسطهن، خمس نساء ذاهلات. مثل هذا الموقف ليكون معيبا، لكنه لم يعد كذلك الآن. أراني في عيونهن عاجزا عن الإغضاء بدوري.

انفرجت شفاههن واسترسلن في ضحك مدوٍ. على الحصير قربهن توزعت أوراق اللعب راسم مسار الحركات التي رُمتها. تخيلت تلك الحركة ساعات بعد الظهر، والشيخان غائبان، والحر شديد، فإذا بهن يرمين ورق اللعب، ولا يُبرن الغرفة، ويستلقين على السرير. ليست الأجساد المستلقية هي التي تفضح حميمية علاقتهن، بل تلك الأوراق المكشوفة الموزعة على الحصير.

واصلن ضحكهن. إذ يتبادلن عدوى القهقهات واحدة تلو الأخرى. بشراتهن تتلامس، وأنفاسهن متلاحقة. وفي عمق العيون التي رمقتني لمحت طيف الرغبة. ليس في عيونهن هن أو بالأحرى بلى، غير أن رغبتها هي كانت تصدر عن رغباتهن. كان انفعال النساء يستبد بها ويتصاعد، أحس بذلك جيدا، عاجزة عن الخروج من الملغمة، أسيرتها. رأيت هوَيانها والقعر الذي يشير إليه. حاولتُ أن تتمالك نفسها، لكن الضحك يغلبها. من دموعها من الغمّازتين في خديها، من صدى ضحكاتها أدركت بلمح خاطف أنها امرأة أخرى. والفتاة التي اعتدت أن أراها منذ نحو ثلاث سنوات لم تكن سوى أحد وجوهها. لقد أمضت وقتا طويلا في زمّ نفسها لكي تتمالك، وقد هدرتْ في ذلك طاقة لا يُستهان مقدارها. أما الآن،

فقد بدأت الواجهة بالانهيار، واكتشفت خلف الواجهة شيئًا ما منعتقًا، فاجرًا، وسوقيًا بعض الشيء في آخر الأمر، لكنه مغو مثل خطيئة.

لا أدري، ربما كان عليّ أن أفعل شيئا ما. في تلك اللحظة بالذات أن احطم إسار السحر الذي يطوّقني، وأحول دون أن يُحكم طوْقه على. او أن أقبله وأستغرق فيه، شيء ما، مكثت أسير أجسادهن المتمازجة في نرف الملايات الساحرة.

لم تمض ساعة واحدة حتى غصت الشقة بالناس. كانت سعدية تقدم للجميع قهوة سوداء مُرة. الصغيرة في الغرفة وقد اختلى بها والدها وصفية زغلول والشيخ أبو العلا، وخصوصا عبد الرزاق بك؛ الرجل الذي كفلها. كان صراخ الوالد مسموعا. وتتردد كلمات كالعار وطماي الزهايرة، والشرف المطعون. أما الأصوات الأخرى فكانت صارمة خافتة النبرة، وكأنها أصوات ترد عنها التهمة وتقاوم، لكن الأب لا يريد أن يسمع. يجب أن يقتل هذا الصحافي وأن يعود إلى البلدة، هذا كل ما يريد أن يفعله.

لقد رأيت ووطأة ما احسست به جعلني لا أحرك ساكنا، على جاري عادتي. ولو أُطلقت كلاب شرسة علي لما وجدتُ فيَّ لحما تعضه، مجرد كلمات. فراغ للاجترار وقرف. بعض الحواس شديدة التنبُّه، أما أنا، فكياني بأسره على هذه الحال. الأشياء كلها تعتدي عليّ، الأشياء كلها تفيض على طاقتي واحتمالي.

سمعت صوتها الذى طغى عليه صراخ والدها.

– اخرسي، جازاني الله على ضعفي، لقد أصغيت إليك فضللت الصراط المستقيم! إن مكثنا هنا فلن تتوانى عن الغناء مصحوبة بآلات موسيقية، وستغنين بجسدك وتظهرين للناس حاسرة عن شعرك وساعديك، أنت سليلة الإمام حسن التي تشربت روحها تعاليم الدين!

– رفع عبد الرزاق بك صوته، صارخا وواثقا للمرة الأولى:

– اسمعني في آخر الأمر ودع الله جانبا. إن عدت بابنتك إلى القرية فسيظن الناس أن ما ورد في الجرنال صحيح. إن فعلت ذلك فسيتبعك العار بقية حياتك. أهذا ما تريده؟

سكت الأب.

– أنت تعرفني جيدا، وسوف تحظى بتحصيل شرف.

لزم الشيخ إبراهيم صمته. غير أن غضبه لم يسكن، وفاض به من جديد. طماي، شرف، عار. فكرتُ في هذه الكلمات: عار، شرف لم تعن لي شيئا. لم يتوقف الصراخ. وتكرر المشهد على التوالي لساعات طوال.

قبيل منتصف الليل، جاءت إلى الصالة، وحدها شاحبة الوجه لا أثر للدموع في عينيها. لقد رأيتني كما أنا، كأنها تقول، ولم تكد عيناها تلمحاني حتى أغضتنا.

– أردت أن أشكركم، قالت، كان الظرف قاسيا لكنه انتهى الآن! لقد تأخر الوقت. فاعذروني ستكونون دائما على الرحب والسعة.

أعلم انكم تقفون إلى جانبي. أردت أن أقول لكم، لقد قررت أن أمكث في القاهرة مهما حصل.

9

بقيت في القاهرة، وكانت الحرب، ومحت الحرب كل شيء. وإزاء القسوة الفظيعة التي كان عليها أن تتصدى لها، أصبح كل شيء تافها، حتى اهتمامي بعذاباتي الخاصة. نشرت "المسرح" أخبارا مختلفة عنها، ابرزت من جديد قصة الاغتصاب غافلة عن وعدها للقراء بأن تنشر تفاصيل جديدة وبراهين، بل أصبحت تتحدث عن هذا الأمر وكأنه حقيقة مثبتة فتضرب حيث تصيب.

وفي عدد الأسبوع الذي تلاه عادت إلى الاستفاضة في ذكر الموضوع إياه، كانت حملة بكل ما للكلمة من معنى، والهدف منها إرغامها على مغادرة القاهرة. وحدها "منيرة المهدية" قد تقود مثل هذه الحملة، فلا أحد آخر سواها له المصلحة المباشرة أو النفوذ. وحدها السلطانة تستطيع، لقد بدأت حياتها الفنية مغنية طقاطيق بين طاولات الزبائن تتظاهر، بعد الفوات، بالتملّص من تحرُّشاتهم، وهي تريد اليوم أن تكون مطربة الأزمنة الحديثة، قاطعة الطريق أمام تلك الفلاحة الصغيرة التي تُخفي جنسها تحت زيها البدوي.

وفَى عبد الرزاق بك بوعده. فكلف محاميه أن يرفع دعوى واتخذ، موقفا في مقالة بعنوان: "حداثة حقة وحداثة زائفة". والتي ضمَّنها، هو الشخصية المرموقة المعروفة بآرائها العلمانية، دعما واضحا، ما أسدى لبدويتي خدمة ومصداقية لا توصفان. لقد أحالت المقالة الصراع إلى صراع بين مدارس حول هذه المسألة الجوهرية: ما هو الحديث وما هو غير الحديث؟ واستجابت مجلة "روزاليوسف" للتحدي.

إن فضل منيرة المهدية يعود إلى أنها أدخلت الخفة إلى مصر المنغمسة في ماضيها المفرط في مأسويته والتأملي، والمفرط في تعصبه ضد المرأة، وفتحت المجلة صفحاتها لرب أسرة أخرى من أعيان القاهرة، وهو الآخر أحد رواد الاستقلال، الذي رد على عبد الرزاق بك في أصل المشكلة. ثم طاول السجال الصحف الأخرى كافة، وأصبحت المشكلة المطروحة موضوعا يتابع كل قارئ مستجَداته في صحيفته المفضلة. وراحت مقاهي الفنانين والمثقفين تخوض النقاشات حول الأمر، وانتهز الملحنون والموسيقيون المناسبة لخوض نقاشاتهم الخاصة. كثير من الحروب تخللت هذه الحرب. ولم تكن السياسة غائبة عنها، فغداة الاستقلال قام الملك "فؤاد"، تحت ضغط الشارع باستدعاء "سعد زغلول" لتعيينه رئيسا للوزراء. ولم يلبث أن تخلص منه عند أول سانحة وعين "رشدي" في مكانه. وهكذا وقف مناصرو "سعد زغلول" في صفنا، في حين وقف مناصرو رئيس الحكومة الجديد وهو كافل "منيرة" في صف الخصوم. ووجدت البلاد نفسها مرغمة على الاختيار بين السلطانة والفلاحة، وكأنها أمام صورتين لما يمكن أن تكون عليه هي نفسها. لقد اتخذ الجمهور موقفا

بالطبع وأصبحت حفلات بداية الشهر "يوم الإثنين لإحداهما، والخميس للأخرى" أشبه بمهرجانات تأييد.

كيف كان لي أن أبتعد عنها والمعركة غير متكافئة. فمنيرة تسيطر على الساحة منذ عشرين عاما، وحظيت على التوالي بحماية المتنفذين الأتراك والإنجليز، والمصريين، وأحيانا حظيت بحماية الثلاثة في وقت واحد بحسب الظروف. لقد أقامت عددا لا يحصى من الصلات، وورّطت عددا لا يُحصى من الناس، والسلطة في صفها. اختارت فلاحتي الصمت، وامتنعت عن تكذيب الشائعات، وارتأت أن غناءها هو الناطق بلسانها. وظنت أن اختيارها سيشعرها بالطمأنينة. غير أن السجال حول الحادثة لم يُثِر أي شكل من أشكال الاهتمام في وسطها العائلي. لم تر العائلة إلا الشرف الملطخ في مثل هذا السجال وهي السبب، ولا شيء قد يُزيل العار الذي لحق بها. كانت المدينة بأسرها تلهج بسيرة منيرة، لكن اسمها مُحرّم هنا. والحال.. أن الكلمات التي تُكتم تخيّم على الجو السائد، وتستقوي وتتكثف وتصبح ذات وطأة كجسم ميت. رأيتها تتلقى الضربات مُجالدة تحت أنظار والدها.

لحسن الحظ أن سعدية كانت حاضرة دائما، سعدية المرحة البهلوان، التي تلعن وتُضحك الجميع برغم كل شيء، فجسد المرضعة الذي وهبته ينتفخ حيال الخصومة ويتلقى كل ألم ويتمثله. وكان هناك أيضا الأختان عبد الرزاق وعزيزة. فقد أثارت تلك الأمسية في غرفة النوم نوعا من

التواطؤ والحميمية بيننا. كُنَ يُغضين حين يرينني، وتمسّني مرافقهن إذا مررن بي.

أنا أيضا طاولتني الحرب. لقد فقدت فيها أعز أصدقائي محمد، فعند ذلك اليوم الذي رفض فيه أن يرافقني، لم يزرني ولم أزره. كان منهمكا في الإعداد لأوبرا "كليوباترا" وهذا سبب لا يُناقش، فسُمعته الموسيقية توفر لها الغطاء اللازم وتدحض، سلفا أي نقد فني، وتجعلها فوق الشبهة. وأوبرا "كليوباترا" ليست أوبرا عادية. لقد تركها سيد درويش غير منجزة عندما قتلته جرعة زائدة من الكوكايين. وحظيت منيرة بحقوقها رغبة منها في إحياء هذا العمل الأسطوري. فمثل هذا العمل من شأنه أن يمحو ماضيها، ويتوّج مهنتها ويُرغم الآخرين على الاعتراف بها كفنانة. وراح الجمهور ينتظر السلطانة العارية الذراعين، وهي تغني إلى جانب محمد عبد الوهاب في الديكور الباذخ لمصر الفرعونية.

خيال هذا الحلم لا شأن يذكر لتلك الفتاة المتشحة بالسواد، والتي تغني دون مصاحبة موسيقية على مسرح عار.

كان القصبجي يمرّنها على الغناء، ويدع لعوده أن يبوح لها. كانت تغني ولكن فراغا في صوتها لا يحول، وعيناها ساهمتان تحدقان في شيء آخر. لقد تمكن منها النقد وأنهكها. أليست بالفعل مفرطة في فلاحيتها، مفرطة في رضوخها للعائلة، ومفرطة في اتباع التقاليد؟ كل هذه الأسئلة، على ما فطنت، تجرح كبرياءها إلى أبعد حد، لكنها ما كانت لتبوح بشيء.

استدرجتني لاصطحابها إلى الشرفة، وحلّفتني أن أحفظ السر. فرغبة منها في إدخال بعض التغيير على أغانيها، أرادت أن أنظم لها قصيدة خفيفة.

– خفيفة؟ كيف؟

– خفيفة! خفيفة! كما تكون الخفّة!

– أغنية ساذجة يسهل حفظها أو أغنية يكون نصها.. خفيفا بعض الشيء؟

– لقد أدركت جيدا ما أقول. اكتفيت من الحسرات والآهات. لقد جعلت مني ندّابة محترفة. والآن، أريد شيئا من البهجة، أن يتبدل شيء ما، هذا ما أريد، اكتب لي أغنية، اغنية خفيفة وحتى.. (فاحمر وجهها وهي تقول) بلى، حتى لو كان فيها من الدلع. هل فهمتني الآن؟

– لا رغبة عندي في كتابة هذا النوع من الأغاني لك أنت.

– أنت لست سوى جاحد عاجز عن اللحاق بعصرك، عاجز عن فهمي، ومثل هذا الأمر لا يُدهشني. أطلب منك، للمرة الأولى، أن تفعل لي شيئا في الوقت الذي أتعرض فيه لمؤامرة.

أمضيت الليلة منكبا على كتابة القصيدة أنتزع أبياتها بيتا فبيتا. عاودني مشهد التدليك كأنه مائل أمام ناظريّ، نساء مع نساء، وورق لعب. كانت كذلك. ارتضيت بإحساس التدنيس وأجبرت يدي. وكتبت وكتبت. عند الصباح كانت القصيدة قد أنجزت: "الخلاعة والدلاعة

مذهبي/ من زمان أهوى صفاها والنبي". لم تجرؤ على الطلب من القصبجي أن يلحنها فلجأت إلى صبري واستقدمته من طنطا.

اجتمعنا نحن الثلاثة مجددا، غير أن السر الذي جمع بيننا لم يقرب واحدنا من الآخر. لم نكن نحس بالفخر. أرادت أن تحاول أن تكون واثقة. وذات مساء كان الأب والشقيق غائبين، وصممت على أداء الأغنية في ختام حفلتها، بمثابة اختبار، كنت جالسا بجانب صبري في الصف الأول، و لم تخبرنا بالأمر من قبل.

شرعت في الغناء، وما لبث الصمت المُرِيب أن خيّم على الصالة. صمت احتجاج. والحال.. أن الجمهور الحاضر من بين الأشد حماسة لغنائها، فقد كانت سهرة خاصة. واستقبلت قصيدتي كما تستحق. "الخلاعة والدلاعة" يا لها من فكرة لكنها واصلت الغناء بجرأة، المقطع تلو المقطع، حتى المقطع الأخير: "غاب وجاني وشفت نوره وبهجته / والفؤاد نعنش وزادت فرحته / والزمان وافى ما دامت رجفته / يفرح القلب يا ناس كده والنبي". أعقب الختام هنيهة تردد، كمثل دوار، بضع تصديات متفرقة خجول.

بدت لي الصالة مشفقة لحالها لا غاضبة منها. كيف استطعت أن أكتب لها هذه الكلمات؟ أما هي، فقد عاندت حتى النهاية. ودون أن تبدي أي بادرة اضطراب أو انفعال، تابعت الغناء مختتمة الحفلة بأغنية "إن كنت أسامح" التي استقبلت على الفور بالتهليل والتصفيق.

خلف الكواليس نحَت باللوم علينا، أنا وصبري، لأنها غلطتنا ولأننا دعناها.. فلم أصدق ما بدر منها من سوء ظن. لم يُعنيِّ قلبي على الإجابة، فقد شعرت بذنب لا يوصف. و لم تعد مرة ثانية إلى أداء هذه الأغنية، فقد اختفت من مرة واحدة، وقبل أن يطلع الصباح كانت "روزاليوسف" تتندر بمحاولتها المضحكة لمنافسة منيرة في مجالها الخاص. وكتبت "المسرح" أنها كانت موضع سخرية الجميع.

كانت تلك الفترة هي التي اختارها صبري لارتكاب حماقة عمره: لقد تقدَّم لخطبتها. لابد أنه رأى أنها بلغت السادسة والعشرين، وسرت أقاويل حول عزوبيته، فظن أنَّه بذلك يُحسن الفعل وإلا لما تجرَّأ. وكان أن استقل القطار في رحلة أخيرة إلى عيادته في طنطا. ومنذ ذلك الحين لم نر وجهه مجددا. شعرت أني قرينه. فقد أشار عليَّ بفعلته، ما لا ينبغي أن أفعله.

توقفت حملة التشهير. وأسفرت عن انتصارهم وعن خسارتنا نحن، فقد أنهى النقاد حملتهم لدوافع إنسانية، لأن النجمة الصغيرة أصبحت سوية التراب. وهذا ما أثار حنقها أكثر من أي شيء آخر. وظنت أن قصيدتي الخفيفة قد جلبت لها العار، وأن الأمر هذه المرة حقيقة لا افتراء. وظنها لم يكن صحيحا، فالحال أن أحدا لم يسمع الأغنية وأصبحت الأغنية من تلك الأمور النادرة التي تكاد تكون خرافية، بحيث لا أحد يدري إذا وُجدت بالفعل. لا بل قد تكون حققت أمرا ما من ذلك "الدلع" الذي أرادته شيئا كتلك الهالة العائمة، لكنها لم تنتبه لذلك في الأصل. الحاصل، أن المدينة المعادية قد غلبتها، أو في الأقل، استطاعت أن تجعلها

مضطربة. وأصبحتْ أشد انعزالا مما كانت عليه مَن قبل. وما عادت تعرف من هم أصدقاؤها.

وعاود العالم دورته من دونها. وما عادت العيون تستحسن إلا "كليوباترا" وديكورها وأزياءها وحلمها .. حتى إن رئيس الحكومة صرّح بأنه سيرعى ليلة الافتتاح. أما هي فلم يعد لها وجود.

فور وصولي أدركت أني جئت في وقت غير مناسب، بادرت إلى التعريف بالحاضرين. كان "علي البارودي" مسئولا عن الجمعية المصرية للمسرح، ومهمته دعم الفنانين. صافحني بحرارة، وحدثني عن شعري، وكانت لهجته بمثل أناقته، تلقائية شبه أرستقراطية. كان رجلا على قدر من الأهمية ويبدو ذلك واضحا من إصراره على عدم إظهاره، ومن ثقته بنفسه وتواضعه دون تكلف. أحضر لي كرسيا ودعاني إلى الشرفة كأنه في بيته.

– إننا نتداول بشأن حفلة في بغداد، في قصر الأمير عبد الله.

– ورمقها لبعض الوقت.

– إذا كنت لا تقوين على ذلك، فما عليك إلا أن تنسي الأمر، وتعودي إلى القرية. أو تابعي الغناء متنكرة في زي بدوي بصحبة والدك، فقد يستمر مثل هذا الوضع عامين أو ثلاثة على الأكثر.

– نظرت إليّ شزرًا، وأصابعها تداعب الزر الأول من ياقة قميصها. لم تكن قادرة على الإجابة. احسست بأن وجودي يُربكها،

ولو غادرت على الفور لازداد ارتباكها. وبأية حال لم أكن أرغب في المغادرة.

- أنت لا تعرف والدي.. قالت بمشقة.
- أنت راشدة.
- ولكنك لا تدرين من أين أتيت.
- كلنا أتينا من هناك.
- بدت كالمصاب بالشلل، يجهد في إحياء أوصاله، ورأيت أصابعها المُرتعشة. لم يكن "علي البارودي" يكلمها كموفد من قبل السلطة، بل كأنه السلطة بالذات، تلك الفئة من السلطة التي لم تكن راضية عن نتيجة المعركة مع منيرة، فقررت أن تعيدها إلى الأضواء. تمالكت نفسها وفي عينيها.. في عمق عينيها، رأيت أنها تحسب فُرصها بتؤدة.
- أشكرك لما تبذله من أجلي.
- إني لا أبذل أي جهد من هذا القبيل. أتسخرين مني؟ بإمكانك أنت أن تُبعدي والدك ومعه نصف البشرية إلى حيث شئت، ودون عناء.
- سامحك الله على قولك هذا.

فضحك وأمسك بكتفيها.

- منيرة ليست شيئا يُذكر. اجعلي أنها لم تكن. لست مجبرة على التخلع في مشيتك. وما لديك ليس ملكا لك. إنه فيك، ولكنه ليس ملكا لك. وعليك أن تهبيه للبلاد.

وجهه يكاد يلامس وجهها. وأعرف جيدا مقدار ضعفها. كأنها تقف عاجزة أمامه. استدار وأمسك بعصاه وقبعته.

– حفل زواج الأمير عبد الله سيتم بعد شهرين. وعليك أن تقرري غير أني لن أصحبك لتغني في بلاط بغداد متنكرة في زي صبي. لقد جاوزت أن تكوني صبيا صغيرا.

10

أقعدتها الحيرة عن الحراك. و لم أستطع شيئا إلا أن أحادثها بتلك اللغة التي صارت بيننا فقط، على الشرفة، عيناها ساهمتان، ولا تكف، تلقاء، عن عضعضة شفتيها. وحين تصحو من سهْوِها وتتلاقى نظراتنا، تدرك أنني أعرف فترات الصمت تلك أوجَدت بيننا، مجددا، نوعا آخر من الصلة الحميمة. فقد كنت أنا لم ايضا لألمها.

اكتسبت أبياتي معنى؛ ما عنيته إطلاقا. "عطف على قلبي/قطفت الورد من خده/شربت الحلو من شهده". هذه القصيدة أنشدتْها بانخطاف أمامي، حتى بدا أنها تنشد كل بيت منها لشخص ما. كان يكفي أن نُصغي، فتتألق. انسجام لا يمكنها أن تفسره هي لنفسها، انسجام أشبه بذلك الانسجام الذي أسكرها، في اليوم الأول. ما زالت إلى اليوم تدرك أنها تستطيع أن تُشركني في لعبتها، لكنها لعبة جديدة. ذلك أن انفصامًا مقلقلا ألمّ بي وجعل إلهامي لا يُعبر عن أحاسيسي أنا، بل عن أحاسيسها،

.لك التي لا تعترف بها لنفسها بعد. كان الانخطاف بيننا على قدر من
القوة، فقد غزوتها واستسلمت لغزوها. وعيناها الآن تقيسان المدى
الممنوح بيننا. انقبض قلبي الذي اختار نيابة عني. لن أحبها في هذا العالم
.ل في ذاك، الآخر، حيث العلاقة من القوة بحيث لا توجد الأجساد. لقد
ادركت هذا الانزلاق من بسمتها. وقعت في شرَك فعلتي. وما عاد بإمكاني
ان انتكر لما أسرّ به صوتي لها. سوف ترحل مع "علي البارودي".

كان عنوان قصيدتي: "شرِّف حبيب القلب"، لم تنشدها، واحتفظت
.بها كتذكار لأيام ستأتي. طلبت مني قصائد أخرى من النوع نفسه، وبدا
أنها واثقة من أنني سألبي طلبها. فما كانت تريده لحفلتها المقبلة هو:
المعجزة.

انكببت على كتابة القصائد، مثابرا كل ليلة وبحماسة لا تنبع مني.
انفرد في غرفتي وأتوقف عن التفكير، وأصد عني مشاعري. فيأتيني
الكلام كأنه حليب يفيض عن وعائه، فأفيض وأستسلم للسر كما تستسلم
هي لغنائها. "الشك يُحيي الغرام"، و"البُعد طال". قرأت القصائد
وضحكت. لم ينطل عليها الأمر فقد شاركت في اللعبة الجديدة برشاقة
واغتباط. ولكن اللعبة لم تكن بالنسبة لي لعبة حقا. وبعد التفكير أظن
أنها لم تكن كذلك بالنسبة لها.

حان موعد الحفلة في كازينو "البوسفور". لم يسبق أن رأيتها من قبل
بمثل هذا التوتر العصبي خلف ستار مُسدل. كانت راضية عن القصائد،
ولكنها مُرغمة على ارتداء البالطو والكوفية. أحدهم أحضر الثياب إلى
المسرح وراحت تدور حولها حائرة. آخر الأمر ارتدتها، في اللحظة

الأخيرة يأسا وجاء شقيقها للتثبت من أن القماش يستر كل شيء. من رأسها إلى ما تحت الذقن، وكانت حركات يده، وهو يمسك بالقماش ويشده، جافة وقاسية، كأنه يعرف، وما عاد يُرى منه إلا استدارة الوجه.

"قطفت الورد من خده/ شربت الحلو من شهده/ شرّف حبيب القلب".

ارتفعت أصوات الحضور بالتهليل والأيدي بالتصفيق، منذ العبارة الأولى كأنها الأذرع المبسوطة لكي تلاقي وترحب. تلقت الصدمة مدهوشة ذاهلة كأنها المرة الأولى التي تقف فيها على المسرح. وراح التصفيق يعلو متواصلا كعاصفة لا تهدأ. حدّقتْ في عيني، أنا الجالس في الصف الأول، كأنها تُشهدني على ما يحصل وتطلب العون. ورأيت عينيها المغرورقتين تلمعان في الإضاءة الباهرة. تمالكتْ نفسها. "قطفت الورد من خده".. رددت الشطر الأول ورمته إلى الأيدي الممدوة. بدا الجمهور مُدركا لما يحدث. لقد حصل شيء ما، فنجمته التي يصفق لها لم تعد كما كانت. مزاجها المرح، الذي يشبه مزاجه، أصبحت منه وله فتقبّلها. استعادت أنفاسها وهي تنحني بالتصفيق والتهليل، رأيتها تمرر أصابعها تحت عقدة كوفيتها وتحلّها. لثوان هدأت الصالة تحت وطأة المفاجأة ثم سرعان ما عاود التصفيق إيقاعه الهادر.

رفعت رأسها، وقد انحسرت أطراف كوفيتها عن شعر أسود كثيف. عاودت الغناء. وها هي تنشد القصيدة التي ألهمتني نظمها قوة غامضة، تنشدها كلمة كلمة، وكأن انطلاقة جديدة قد حرَّرت إلهامها، ولمحت على وجهها ذلك السحر الذي تملّكني هناك، في بيتي، كل مساء. السحر

نفسه. وكتصدية لإحساسنا الخاص، تهليل هذا الحشد، في تلك الليلة، وضع جمهور القاهرة لمساته الأخيرة على الأغنية، واحتضنها وأطلقها إلى الوجود. فبالنسبة له أيضا، كان الأمر بمثابة انصهار، أو بالأحرى بالنسبة لها هي، التي اكتسب صوتها أغنية جديدة، لا بل أكثر من مجرد أغنية، أنا هي الجمهور، ثلاثي مركب من كيمياء عجيبة، لم أفعل سوى أني جعلت جسمي وسيطا، وولدت هذه القصيدة، وها هي الآن تواصل حوالها داخل الحلقة، حلقة السواد الذي يكتنف الصالة، واندمجت في حالة الجميع. كانت تضحك خلسة تحت غطاء التصفيق الحار.

لقيت "شرِّف حبيب القلب" استقبالا قد يُفسَّر على أنه صدى جوابها، والقصيدتان الأخريان أيضا. لقد أعادتها هذه الأغنيات الثلاث إلى قلب المعترك. وبرغم الضجيج الذي رافق الإعداد لأوبرا "كليوباترا" كُرمى له هو، ربما كانت تلك عودة حنان إلى الغناء البسيط، إلى هذا الصوت. كانت الرعشة التي تهدهده واعدة، بحيث إن الناس استسلموا لبارقة أمل، لخفة بداية، لرغبة في أن يصدقوا بأن الفصول تتعاقب، وأن الحب ما زال قادرا أن يكون.

من موقف الترامواي الذي يُقلّني إلى دارها، أرى الشوارع تترى، وكذلك الملصقات الحمراء التي يتكرر مشهدها على مسافات محسوبة. منذ بعض الوقت لم أرَ محمد لكنه يرمي عليَّ فجأة بآلاف النسخ. هو

وهي. نكاد لا نرى سواهما. يزينان جدران المدينة، يلوّنان الجو. لصيقة زرقاء أضيفت على كل ملصق تعلن أن الافتتاح هذا المساء، والواضح من الرطوبة البادية عليها، أنها ألصقت حديثا.

كانت نجمتي قد حذرتني، أنها ربما بدت اليوم عصبية المزاج، فهو يوم "كليوباترا" يوم المرأة التي مرَّغت سمعتها في الوحل. لكنها بدت في مزاج رائق، لا، بل ومفرط في صفائه. أخرجتُ من حقيبتي دواوين الشعر. فقد كنت أود أن أقرأ عليها قصائد المعرّي.

فجأة علا صخب في الشارع، صراخ، وأناس يتراكضون، كأنها ريح مفاجئة. رحت أقرأ بصوت مرتفع، فازداد صخب الشارع، والحارة بأسرها. سمعنا سيارات تنطلق مسرعة، وأبواب المخازن تُغلق، وخبب جياد وصيحات بعيدة، نهضنا لنتبين حقيقة الأمر، فإذا بالمارة وكأنهم استثيروا فجأة يجتمعون ثم يفترقون. إلى أن خرجت سعدية إلى الشرفة.

– الله أكبر .. لقد توفي "سعد زغلول".

راحتا تلطمان وتولولان. أرادت أن تهرع على الفور إلى صديقتها "صفية"، زوجة الفقيد في الشارع، يقف الناس مكتوفين، مذهولين. أبو الاستقلال يموت دون سابق إنذار؟ وكانوا يحسبونه خالدا لا يموت. لا شيء كان يُنبئ بأنه موشك على الموت، لا المرض ولا أي شيء آخر راحت تفرك يديها. وهي تذرُع أرجاء الشرفة بخطوات متسارعة. ومع ذلك وقبل أن تغادر، استدارت نحوي وقالت بصوت خفيض:

– هكذا يكون بمشيئة الله .. ستضطر منيرة إلى إلغاء حفل الافتتاح.

وألغت الحفل إلى ما بعد الدفن. لكن من يبالِ؟ كنا نحيا زمنًا آخر، ", من الذي يُصنع فيه التاريخ. ويقلب الأشياء رأسا على عقب، وكذلك الأفكار. وفي آخر الأمر دُفن الرجل الذي حررنا. برغم كل شيء أريد المراسم الوطنية أن تكون بمهابة الرجل، لكن كل ما بُذل كان عبثًا. ماءت جنازته بسيطة شبيهة بأحاسيس عامة الناس.

كانت صديقة أرملة الراحل، فمشت في الموكب وراء النعش، لم ، حلف فنان أو مثقف عن أداء هذا الواجب. وكان على رأس المراسم الملك "فؤاد"، يرافقه ولي العهد "فاروق" وكل ملوك وأمراء ورؤساء ،كومات العالم العربي، وإلى جانبهم وقف المفوض السامي الإنجليزي "هو أيضا" الذي بذل ما بوسعه لتحطيم "سعد زغلول". وبعد هؤلاء يأتي الدبلوماسيون الأوروبيون الذين أحكموا الحصار عليه اقتصاديا، وكبار الملاك الذين تكتلوا ضده عندما حاول تعديل قوانين الملكية، وكبار الصناعيين الذين ثاروا ضد إصلاحاته الاجتماعية الخجول، وأصحاب المصارف الذين فضّل معظمهم الانحياز إلى صف الإنجليز، والملك، والنظام المالي الدولي. في موته وافاه السَّعْدُ، إذ لم يعد لديه أعداء.

فجأة تدفقت الحشود في الطريق الذي سلكه الموكب الجنائزي، القاهرة وضواحيها القريبة والبعيدة، كأنه فيضان بشر متباطئ وسلمي. اختلطت الصفوف. نسيَ العمال أن "سعد زغلول"، وبرغم وعوده، قد قمع الإضرابات، وحل الاتحاد النقابي الوطني، وهو أول إطار نقابي يحظون به على الإطلاق. كما نسيَ الفلاحون مآخذهم عليه لأنه لم يبدِّل

شيئا من أوضاعهم. كنا جميعا واثقين من شعور واحد مشترك فيما بيننا، وهو أننا لولا وجود هذا الرجل لم تَنَلْ استقلالنا. طبعا كما سنستقل قبل ذلك أو بعد ذلك، غير أن التاريخ أراد أن يكون هو، وكنا مصرّين على التعبير عن امتناننا.

11

أعلنت فترة الحداد لأربعين يوما. بقيت الأعلام منكّسة، و لم تعمل الإدارات الرسمية والمدارس إلا بوتائر متقطعة، أما الكباريهات وصالات العرض، فأبقت أبوابها مغلقة طوال هذه الفترة. لذا تأخرت انطلاقة "كليوباترا".

رأيت اليقين في عينيها. الله في جانبها، ولطالما كان، فثمة مشيئة سامية تتدخل دائما لصالحها هي؛ سليلة الإمام حسن حاملة الهبة. و لم تكف يوما عن إيمانها بذلك. فالحرب لا تُخاض فقط على الأرض، بل وفي السماء أيضا، وفي السماء لها هي، حظوة خاصة. (المختارة)، كانت هي والعالم حولها سحري، فتشق طريقها في معارجه مغمضة العينين.

غابت عن الأنظار. كانت "صفية زغلول" قد استدعتها فوضبت حقائبها وذهبت للإقامة في دار صديقتها. لم نلتق طوال فترة الحداد. المهنة بأسرها كافة عاطلة عن العمل لأسباب قاهرة. فالمغنون والممثلون والموسيقيون يمضون أوقاتهم من مقهى إلى آخر. يتناقشون في السياسة

دوئما حماسة، ويتبادلون أخبارا غير مؤكدة عن أعمال صغيرة تعينهم على العيش. كانت الأيام تمضي متباطئة، وكان غيابها يجعلني منفيًا عن اي شيء.

في مثل تلك الحال، حاولت أن أستغل وقتي لتصحيح نسخ التجارب المطبعية الأخيرة لترجمة رباعيات الخيّام. سنوات طويلة أثمرت مئتي صفحة مطبوعة، أصبحت جزءا من الماضي. لو أنها وافقت على إنشادها بصوتها لاستعيدت إلى الحاضر، لأحيتْها بنفسها. لطالما اعتبر عقلاء المفكرين الخيّام زنديقا، حتى في زمانه، غير أن هذا ليس سبب رفضها، أو في الأقل لا اعتقد أنها رفضت لهذا السبب. كنا قد أُخذنا بأجواء الرباعيات كغيرها من القصائد الأخرى، غير أن أُخذتي بها كانت أشبه بانعتاق. مستويات النص كافة، التطلب المطلق، واللذة كافتتان، كلها كانت نوعا من الزهد التي تملكت جسدي بوافر الحيوية لكي يعبر عن ذاته أمامها. ولقد مستها الشمالة كما السر، فأثارا في داخلها خشية. أو بالأحرى أنهما أيقظا في داخلها خشية. أو الأحرى أنهما أيقظا في داخلها شيئا ما أخافها، أيقظا غواية ما أخافتها، فصدتها. أعدت النسخ الطباعية إلى الناشر؛ ويمكنني القول: إن العمل قد أُنجز أخيرا.

كانت حال المدينة أشبه ما تكون بحالي، حياة موقوفة. فاعتدت أن يصطحبني القصبجي إلى المقاهي التي يرتادها. وهناك لا أشعر برغبة في الاشتراك بالنقاشات الدائرة، كان الأمور سراب يتلاشى من بين أصابعي. كأنها شمس كئيب تريُث فوق نهاراتي.

قبل نهاية الأربعين بقليل، سرت في الأجواء رعشة حياة. وعادت الإعلانات والملصقات عن افتتاح "كليوباترا" لاحتلال جدران المدينة معلنة عن ليلة الافتتاح يوم الأربعاء المقبل، أي ليلة اليوم الأول من رفع الحداد. فالمؤكد أن منيرة لا تسكت على ضيم، فأعطت الإشارة الأولى لعودة الحياة. عاد الشعراء إلى أعمالهم، ونفض الموسيقيون الغبار الذي تراكم على آلاتهم. وبعد مرور أربعة أسابيع من صمت الموسيقى، استعادت القاهرة حياتها بين ليلة وضحاها. واستؤنفت التمارين، واستؤنف الإعداد لحفلات الأفراح، وعاودت النوافذ بث ألحانها، وعادت الصفوف الطويلة من المهتمين إلى أبواب المسارح.

قُرِع بابي. لم أتعرف إلى المرأة الشابة التي كانت هناك. لم أتعرّفها على الفور. كان ثوبها الأسود أنيقا فتحسبه ثوب سهرة وليس ثوب حداد. وكانت تضع على رأسها شالًا يُغطي كتفيها ويحجب فمها. مضت خمسة أسابيع لم أرها خلالها مرة واحدة.

سَرَّها أن يفاجئني حضورها، كأنها استعادت حس التواطؤ الساخر بيننا، غير أني رأيت جيدًا: كان انفعالها بمقدار انفعالي. ثم دخلت متباطئة، أتحيا هنا، كانت تخاطبني بصوت خفيض وتوزع أنظارها على الأرجاء، صورة أبي في إطار الخشب، المشجب الأعرج، وردهة الاستقبال الغارقة في العتمة. بذلتُ جهدا لكي تكسر بلادة اللقاء، فدنوت منها

ـا ت لها: يجب أن أكلمك. خرجت أمي من المطبخ وخلعت مئزرها ـ عة وارتباك وصافحتها. هنا كانت أمي امرأة من عامة الشعب، ـلاحتي هي الأميرة.

أدخلتها إلى غرفتي وأبقت الباب مفتوحا. رأتْ الغبار يكسو كل ـي،، والأوراق. حاولتُ أن أنقل أكداس الكتب من مكانها، فامسكتْ ـاعدي، وجلست على السرير الضيق. جلست واسندت ظهري إلى الحائط.

- مضى وقت.. قالت.
- أجل.
- هل كتبت قصيدة عن "سعد زغلول"؟
- بل عدة قصائد.
- الحمد لله.
- أخبريني لماذا؟
- أرني القصائد؟
- فتشت بين الأوراق على الطاولة، وعثرت على واحدة منها: "أن يغيب عن مصر سعد". وقرأتها لها.
- ألديك نسخة أخرى منها؟ أأستطيع أن أحتفظ بها؟
- أجل.
- أعطها للقصبجي وليلحنها، قل له إنها لي. ومُرَّا بي غدا في البيت عند الثالثة.

– ما الأمر؟
– لا يسعني أن أقول، ولكن .. بلى. ولكن يجب أن تحفظ السر. عدني.
– ...
– "صفية زغلول" سترفع الحداد في دارها، يوم الأربعاء. وطلبت مني ان اغني ..

كانت غلالات سوداء طويلة قد أُسدلت على واجهة دار آل زغلول، قرب الحدائق الملكية. واجتمع حشد صامت منذ الصباح الباكر أمام السور المُشبَّك لكي يشهد مراسيم رفع الحداد، وتوافد الشخصيات. عندما قرعت الباب، كان الليل قد حل منذ بعض الوقت. استقبلني خدم بسترات بيضاء، مرهقون. خُيِّل إليَّ أنني وصلت متأخرا. كان السجاد الذي يكسو أرضية الأروقة يكتم وقع خطواتي. اصطحبني عجوز بين الممرات المقفرة إلى بوابة ذات درفتين.

تسللت من بين الدرفتين، وفي الصالة المضيئة طالعتني صفوف من الكراسي وقد أولتني ظهورها. كانتِ تقف وسط المسرح المرتجل في الصالة، حاسرة الرأس، مصففة الشعر إلى أعلى، وقد ارتدت ثوبا طويلا أخضر مزركشًا بسعفات مذهبة. لقد جاوزت العقدة. ستغني في العلن، ويرى الناس أنها امرأة، مرفوعة الرأس. تأثرت لأنني أرى ما كنت أنتظر

ان أراه منذ وقت طويل. حتى إنها دفعت التحدي إلى حد لم أعهده
،ها من قبل، فقد تزينت بأساور وحلّي وأقراط صغيرة، لكن مرصعة
باحجار كريمة. كانت "صفية زغلول" قد أعارتها الحلي للمناسبة. وفي
يا،يها الممدودتين إلى الجمهور أمسكت بمنديل حرير أخضر ستجعله، من
الانفعال والوجد، مِزَقا. لكن صوتها لم يكن مرتعشا. "إن يغب عن مصر
-عد/ فهو بالذكرى مقيم/ مجدوه في الأغاني".

خلفها كان القصبجي يحتضن عوده، وسامي الشوّا والحلبي البارع،
يعالج كُمانه، ومحمد العقاد يداعب قانونه، القصبجي والشوا والعقاد:
الثلاثي الذي لا تحلم مطربة آنذاك أن يجتمع لديها في حفلة واحدة
لصاحبتها. ومع ذلك كان هؤلاء، وهم أبرز موسيقيي ذلك الوقت،
يحتجبون لإفراد المساحة لها، يتبعونها شطرا تلو شطر، ويُصاحبون
صوتها المُسلطَن، يتبعون كل ارتجال موارب، يتخفّون كأصدقاء،
يُصاحبون كالصدى. كانوا يُفردون لها، المكانة الأولى لها هي الفلاحة
التي جاءت منذ خمس سنوات، من بلدتها التي لم يسمع عنها أحد من
قبل: طماي الزهايرة.

من فوق الرؤوس المتطاولة، اهتدت إليَّ عيناها و لم تفارقاني. عندئذ
لم تعد الصالة المكتظة فاصلا بيننا. ورحت أتلفَّظ بكل مقطع من مقاطع
أبياتي بصمت، كما كنا نفعل خلال التمارين، لكي تقرأ شفتي. ربما
اختلف ثوبها، وربما اختلف ألق حضورها، غير أن غناءها، ما زال كما
كان. تستبطن كل كلمة ولا تؤديها إلا إذا استعادت كل المعنى الذي

فيها. والمناسبة.. هي ذكرى وفاة رجل ليس كالرجال، ولحظة وداعه في لحظة ما، قبيل ختام القصيدة، وإذ صدح صوتها منشدا "إن يغب عن مصر.." لم تستطع أن تكتم غُصّة فبكت، فإذا بالموسيقيين الثلاثة يُبادرون، بارتجال غير محسوب، إلى العزف بتنويعات وتقاسيم مذهلة، كيما تستعيد صوتها المُسلطن. وفي الأثناء تلتمع إضاءة صورة. كانت الإضاءة بمثابة إشارة. فأجشهت سعدية في البكاء، وتبعها في ذلك قسم من الحاضرين. أما في الصف الأول، فقد مكثت "صفية زغلول" كاتمة شعورها، رصينة كإمبراطورة. لم يكن في مستطاعها أن تلين في حضور أعدائها الخُلَّص، كموفد البلاط الجالس إلى يمينها، وممثل الحكومة الجالس إلى يسارها.

حاولت، بعينيّ، أن أعثر على الشيخ إبراهيم والشيخ خالد، ولم أوفّق.

اجمعت الصحف في اليوم التالي على تصدير صفحاتها الأولى بصورتها مترنّحة في ثوب السهرة، وقد ألقت برأسها إلى الخلف، والمنديل بين يديها كقربان، وحولها الموسيقيون الثلاثة الكبار. لم تأت العناوين الرئيسية على ذكرها، لكنها أشارت إلى رفع الحداد الوطني. "وداعا يا سعدا!" قالت عناوين بعضها، وهذا بالضبط ما قالته الصورة. صورة تلك المرأة. صورة مصر.

أما أنا، فكنت أرى في الصورة شيئا آخر. كنت أرى صورة فتاة أعرفها وقد نزعت عنها ثياب البدوي كأنها تخلع ثياب الحداد.

في اللحظة التي تصدرت فيها صورتها صفحات الصحف الأولى،
ا(را عند الصباح، كانت في المطار على وشك ركوب الطائرة إلى بغداد
ر فقة "علي البارودي". وعلمت.. فيما بعد أنه اصطحبها، قبل ذلك،
ال أحد المصارف وفتح لها حسابا باسمها. وهناك حظيت بأول
(دفتر شيكات). وبذلك انتزعت من الشيخ إبراهيم كل سلطة عليها،
وهي في السابعة والعشرين. فالمرأة التي أحببت، هزت السلطة الأبوية
لحي ترتقي إلى مكانتها في الصف الأول.

كدت أنسى، ولكن ينبغي القول: إن افتتاح أوبرا "كليوباترا" جرى
في الليلة ذاتها وفي الساعة نفسها على مسرح "برنتانيا" الجديد. وقد
تابع القرّاء المعنيون خبر هذا الافتتاح في الصفحات الداخلية في باب
"العُرُوض".

الجزء الثاني

(1938-1932)

1

طلبت مني أن أرافقها إلى المقبرة. تركتها أمام الضريح وابتعدتُ قليلا. كان الشيخ أبو العلا قد مات من دون ريب في نظرها منذ وقت طويل. ورأيتها بين الشواهد مترنّحة، صلاتها أشبه بالرقص. شيء ما كان يكتمل وينجز، وربما كان ذلك الانخطاف الغريب طريقتها الخاصة بها لإحياء ذكراه، بعد الفوات.

لم تستطع أن تشارك في مراسم الدفن، وكنا جميعا متلاصقين في حشد واحد، يُذهلنا عددنا الكبير. الشيخ أبو العلا. كل واحد منا استعاد ما مضي من عمره، والمكانة التي احتلها الشيخ فيها، فلم يستطع أيٌّ منا أن يتخلّف عن الحضور. إنه أستاذنا في الموسيقى، إنسان رقيق، قوي برقته، مخضرم. رافقناه خطوة خطوة، بحنان أكبر من ذلك الحنان الذي أحيط به في أواخر حياته. فلينم قرير العين. فالميراث الذي ورثه قد أورثه بدوره. ولكن وراء نعشه، كانت هناك فسحة خالية، حيث كان ينبغي أن تكون هي.

وها هي الآن تتكئ على ذراعي، كأنها في سُبات عميق، تتزاحم الأفكار في رأسها. عدت بها أدراجنا وهي مستسلمة لهدي ذراعي. واقتربنا من سياج المقبرة دون أن تُفلتها لحظة واحدة. كانت ذراعها توكل إليّ بثقل جسمها المثير دون حساب. انتشر السم في كياني، أحاول الابتعاد عنها لأنها تربكني. كنت عاجزا عن تصديق ألمها، فلا بد أن ذلك لا يعدو كونه

إحساسا بالندم، انفعال لحظة، وسرعان ما يتبدد. أرادت أن تستدرجني إلى ما تتظاهر به، فوددت لو أدفعها بعيدا عني. غير أن الأمل المستحيل كان يتعاظم في داخلي مثل رغبة في التقيؤ من أعمق الأعماق، من الأشد سوءا، ذلك الأمل الذي لا أصدق أنه ما زال حيا. رغبة ملحاحة، مثيرة للغثيان. حتى إني ما عدت أتعرف إلى نفسي في سيري بجانبها، جسدي بات منفصلا عني. فتوقفتُ ونظرتْ إليّ.

كانت ألوان الحداد تضاعف شحوب بشرتها وسواد عينيها. أما منديلها الدانتيلا، فيكسبها مظهرا قاتلا. متجددة تحت الشمس، متأنقة. وتَنمّ قسماتها المستديرة الهانئة عن أنها اتخذت قرارها. أن تكون امرأة مستقلة ووحيدة. كانت بلغت الثلاثين من عمرها.

– لقد دعتني "منيرة المهدية" إلى حفل عيد ميلادها، وقررت أن أقبل الدعوة.

– رمقتها بنظرات ساهية.

– ماذا دهاك؟

– ليس .. لماذا ؟

وراحت ترمقني بنظرات استفهام. تكاد لا تحيا إلا بهذا الهاجس، منيرة، وهذا الصراع الذي يدوم منذ خمس سنوات وقد أتعب الناس جميعا. لا حساب سوى لفنها، وفنها وحده. كانت قد عادت حديثا من جولة قامت بها لبنان وسوريا وفلسطين، بلاد الشام، ذلك المهد الآخر للموسيقى العربية. عند شاطئ بيروت استقبلتها مئات من المراكب المزينة

بالأعلام المصرية واللبنانية. وفي حيفا، تبرعت بعائد إحدى حفلاتها لصندوق مناهضة الاحتلال الإنجليزي والهجرة اليهودية. وكان نجاحها ساحقا، حتى إنها لقبت بلقب آخر: كوكب الشرق. فما من شيء إذن يحول دون التصالح مع منافستها، بل على العكس. فمثل هذه المصالحة سترفعها إلى القمة.

– بماذا تفكر؟ سألت.

– بمنيرة.

– أريد أن ترافقني إلى حفلتها غدًا مساء.

– لن أذهب.

– لماذا؟

– ...

– كانت الخصومة بيني، أنا، وبينها، وها أنا أبددها.

– لا رغبة لي في الذهاب.

– حقدك يدوم.

هي من يقول هذا لي أنا. أنا الذي شاطرتها حقدها حتى القطيعة مع أعز أصدقائي.

قُرع بابي، كنت بمفردي في المنزل، ولم أشعل حتى الضوء. ذهبت لأفتح الباب. طالعني محمد في بدلته السموكنج. وبيده عصا مبتسما كأنه غادرني عشية أمس. أحسست بخجل لا يوصف. دخل،

ورفعًا لأي عتاب، صافحني. تبادلنا نظرات مطوّلة وثابتة، ثم تعانقنا، وضحكنا مطولا، في حين أننا كنا نرغب في البكاء.

– أنت لست سوى نذل.

وأنا.. بم عساني أنعته. كان سروري به يفوق الوصف. أشعلتُ كل الأضواء، مكث واقفا في وسط الصالة، كأنه ليس حقيقة. فكل ما حملته سيماء وجهه من وعود قد تحقق. وكتب له النجاح. حتى بريق عينيه الزاخرتين بطلب الملذات، بدا لي أكثر نُضجا. أما السنوات فكانت هيّنة الوطأة عليه، لم تترك على جبينه ولو تجعيدة واحدة.. إنه محمد.

– جئت لأصطحبك.

– تعود بعد غياب طويل و ..

– أنا تغيّبت!؟

فلزمت الصمت. في نظراتنا تسارعت كل أحداث القصة التي دامت خمس سنوات، مضت وانحلّت، و لم يبق أثر لضغينة.

– إلى أين تود اصطحابي.

– إلى حفلة منيرة.

– لا أستطيع الذهاب.

– أبسببها هي؟

– ... أتريد أن تشرب شيئا؟

– سنشرب هناك.

وانتظر بصبر. جسمه وجسمي متقابلان، السن نفسها، اثنان وثلاثون عاما تقريبا، غير أن جسمه أكثر أناقة. وددت لو أمسّه، وأوقعه

أرضًا لكي يكفّ عن التحديق بي على هذا النحو. مكثت بلا حراك. وفي آخر الأمر ابتسم.

- لقد سمحت لها بأن تفرّق بيننا .. نحن صديقان.
- إني مسرور جدا لمجيئك.
- أحسست فجأة برغبة في اصطحابه. ودون تفكير طويل، وافقت.

2

عاودني الشعور بخفة لم أعهدها فيّ من قبل. أقلّنا التاكسي إلى الزمالك، حيث الأحياء الجميلة.

لم يكن هناك ما يميز الدار الصامتة عن جاراتها، لولا بعض الرجال الواقفين عند المدخل. اجتزنا متاهة من الحجرات المعتمة. كانت الحديقة خلف الدار، على مساحة وطيئة، فسيحة الأرجاء، خفية، تضج بالضحك. لطالما سمعت مَن يسرد أخبار تلك الحفلات الحميمة، تحت الأضواء الكابية، ويسمونها حفلات منيرة. من أعلى السُلّم رأيت البِرّكة التي تتوسط الحديقة ونافورتها، والممرات التي تتعرج متوارية خلف شجيرات النبات، والضيوف المبعثرين جماعات والظلال. عطر طراوة يُنعش الأنوف ويُحيي القلب.

دس محمد ذراعه تحت ذراعي ودخلنا سويا والسيجار يزيّن شفتينا. كانت السلطانة مستلقية فوق الأرائك على الدكة المبنية وسط السلم المفضي إلى الحديقة. وكانت فلاحتي جالسة إلى يمينها، بفستانها السواريه الأسود؛ الحاسر عن نحرها الذي يزينه المشبك المرصَّع بالجواهر، هدية ملك العراق إليها. صافحتْ محمدًا بروؤس أصابعها، وبالكاد نظرت إليّ. أما منيرة.. فقد نهضت وعانقت صديقي، لم تُعر انتباهها ليدي الممدودة لمصافحتها، بل اقتربت منّي وحضنتني بين ذراعيها. لقد اشتقات إليّ كثيرا.. أنا الذي لم أعرفها من قبل.

ابتعدت. استبقت منيرة محمدا إلى جانبها وأشارت بيدها إلى المصور. هي السلطانة التي تقدمت بها السن، محاطة بأشهر نجمين في ذلك الوقت، أحسب اننا أتينا من اجل ذلك؟ من أجل الصورة لكي تتصدر صفحات صحف الغد. تراجعتُ ما استطعت إلى الوراء واتكأت على الجدار عند أسفل درجات السلم. أردت أن أمكث قرب الباب. لكي اغادر متى أشاء.

سطعت أنوار كشّافَيْن لإضاءة المكان أمام البِرْكة. وإذا بالضيوف المبعثرين في أرجاء الحديقة يحتشدون أمام المسرح المُرتجل، غارقين في ظلام جعلته الأضواء عتمة حالكة. وافاني محمد حيث أنا حاملا كأسي شمبانيا واتكأ على الحائط بجانبي. تقدمت الجوقة المؤلّفة من ثلاثة عازفين: عود وكمنجة وقانون، إلى بقعة الضوء، وأحاطت بفتاة صغيرة ترتدي فستانا قصير الكميّن، وزينت شعرها بشريطة حمراء، تكاد تكون طفلة. راح عازف الكمنجة يدور من حولها، وينحني بآلته احتفاء بها. بدت وكأنها

ممُدت في مكانها، فعلا تصفيق الجمهور الموزع على الكراسي على حانبي البركة، لكنها لم تستجب لشدة خوفها من أن تُخفق في طلتها الأولى. في الأثناء أبطأت الموسيقى وعلا صوتها بالغناء، ومن الوهلة الأولى، بدا الأمر مذهلا، ليس الصوت فقط، بل تلك الرقة في الأداء، تلك الخفة السلسة الآسرة. علا تصفيق الجمهور استحسانا، قبل البداية مَلَكته. في العتمة استطعت أن ألمح خيال فلاحتي، واقفة قرب منيرة. لم تكن المغنية الصغيرة تنظر إليهما، فحدست أن تلك النظرة المُفعمة بتطلب الحرية ابست من بلادنا. سألت محمدًا هامسا.

- "داود حسني" هو الذي اكتشفها. ويقدمها اليوم، أضحية أمام مذبح السلطانة. لم تبلغ الرابعة عشرة بعد، وتدعى "أسمهان"، لكنه ليس اسمها الحقيقي. قيل لي إنها متحدِّرة من أسرة درزية عريقة في جبل لبنان.

تقدمتْ خطوة نحو الجمهور إلى يمينها، وغنت لها، واستدارت إلى الناحية المقابلة، ثم عادت إلى وسط المنصة وحدّقت في نقطة ما وسط الحضور. حيوية ونضارة ورشاقة ساحرة. كانت نافورة الماء وراءها، وبدت كأن لا شيء يثقل كتفيها، ولا حتى الفرعون، تغني بطلاقة كما ينبغي أن يكون الغناء. إنها قادمة من هناك، من العالم العربي الآخر، من الشرق الأوسط الخفيف. مال محمد نحوي.

- لا بد أن أهلها يظنون أنها الآن في المدرسة أو في منامة البنات التابعة لها.. وها هي هنا. انظر كيف يرتعش جسمها لكي تحافظ على اللحن. رائعة. أليس بلى؟

وكانت رائعة بالفعل. كفُسحة من التخلي. سحرتني. وتابع محمد وصفها، هامسا في أذني، أساور الفضة التي تحدث رنينا في معصمها، ابتسامتها التي تبدو كأنها ضوء من الداخل ينير شفتيها. رفعت رأسي فصادقت نظراتي عيني نجمتي تحدقان بي. وأدركت أن نظراتها لم تفارقنا لحظة واحدة.

غادرت "أسمهان" المنصة مصحوبة بوابل من التصفيق. واتجهت مباشرة إلى حيث أستاذها، "داود حسني". أمسكت بكمّه وجذبته فوقف الرجل العجوز ورد تحية الجمهور وهو في غاية التأثر. أمسك بيد المطربة الصغيرة، وتقدم بها باتجاه منيرة التي نهضت من مكانها وقبّلتها. أما فلاحتي فقد صافحتها.

سلطت أضواء الكشّافات مجددا على المنصة وصدحت موسيقى أكثر بهجة. إذ انضمت الطبلة والناي إلى الجوقة. وظهرت فتيات، نحو عشر فتيات، بملابس خفيفة، وعلت الزغاريد في استقبالهن. إنهن فتيات فرقة منيرة. ورحن يرقصن متضاحكات تحث إحداهنّ الأخرى، ثم ارتقين السلم وأحطن بالسلطانة بشيء من العرفان. كانْ رقصهن خليعا، غير أنه بدا لطيفا، عائليا، مثابة هدية تقدمها الفتيات لمعلمتهن، مثابة كعكة عيد ميلاد. أردن أن يجذبنها إلى المنصة لتشاركهن الرقص، لكنها تمنّعت فدعوْن نجمتي فتمنعت أيضا بحياء واضح ومثير. ابتسمت لها إحدى الفتيات وهي تخط بيديها الرشيقتين خطوطا وهمية ساحرة التعرج، وأمسكت بيدها، وبطنها يتأرجح أمام عينيها، ويهتز. فتراجعت فلاحتي خشية، حتى تلقفتها ذراعا منيرة التي استغرقت في الضحك.

كأنها تحتجب خلف هاتين العينين، فالمصورون لم يهدأوا، وسيكتشف جمهورها صباح الغد، كلٌّ في صحيفته، أنها كانت هناك بين نساء نصف عاريات. لن يشعر والدها بالإهانة لأنه توفي قبل سنتين. وما عادت تصغي إلى شقيقها، حتى سعدية كانت غائبة. ففي تلك الليلة كانت هي حارسة نفسها.

هبطت الفتيات درجات السلم وأسندن ظهورهن إلى حافة البركة وفتحن سواعدهن فتلامست أصابعهن. كان الماء ينسكب على أكتافهن العارية كمثل دعاء. والرجال الذين وقفوا، راحوا يفرقعون بأصابع أيديهم وينادون عليهن بألقاب الغرام. كن يتضاحكن كالفتيات الصغيرات، والغلالات الشفيفة التي تغطي أجسادهن أصبحت لهن ألصق من الجلد.

مالت فلاحتي برأسها إلى الوراء، ما أتاح لي أن ألمح بريق الغيرة في عينيها، كأنّهما الشرر متواصل في الظلام. لقد كان جو الحفلة المفعم بالشهوانية الأنثوية والابتذال العفوي والمباح، يُشعرها بالاضطراب. وحدست بما اعتمل في داخلها، وهو أشبه بتنهيدة مُطوّلة يحتبسها الصدر فتكبُر فيه. لو سمحت لنفسها بالانسجام مع ما يجري، لما أمكنها أن تتوقف عند حد. وجسدها المتشبث بالأرائك، تحته، يرتعد خوفا ورغبة، والخوف بمقدار الرغبة.

"إنها تحب النساء"، هذا ما يدور على ألسنة الجميع بشأنها. سر شائع، محفوظ. لا أطيق سماعه. غير أني أشعر به مدوّما من حولي، ومن حولها.

كانت تحب النساء، أعلم، ولكن ليس بالطريقة التي يلمّحون إليها. لقد فتّحت عينيها على عالم حيث الرجال، كل الرجال، يشبهون والدها، بالطغيان نفسه، وبالعناد نفسه، وبحس التملّك نفسه، فبحثت عن الأمان في جنسها هي. وكانت تردد على مسامع الجميع: لن أتزوج لأنني تزوجت فني، ويجب أن أكرس نفسي لما وُهبته، ولجمهوري الغيور.. وبذلك كسرتْ العُرف، وما كانت لتعرف عرفا آخر، فوجدت نفسها بلا أعراف.

أي رجل بإمكانه الزعم أنه قد يسيطر عليها ما دام الرجال جميعهم يرتمون عند قدميها ؟ وهي، كيف لها أن تنجذب إلى رجل خاضع، في حين أن الرجولة في نظرها هي صفة الرجل الأولى ؟ عبث. لذا فضّلت أن تهب نفسها للحبيب المجرّد، للرجل القابع في الظل، للتصفيق الذي يتدفق على هامتها كل مساء. لقد كانت تبذل تلك الشهوانية البكر، والعنيفة التي يُنضجها تبتُّلها يوما بعد يوم، لجمهورها وحده، دونما مقابل. هي وحدها، الطليقة من كل ارتباط ذكري. بكرَت إلى ذلك، في عز الصبا. ذلك أن مثال طفولتها لن يجسده أحد سواها، وهي الآن عاجزة عن ذلك. وإذا كان لابد لها أن تكون شيئا ما، أقول أنا، إنها خنثى، رجل وامرأة معا، لا جنس لها، لأنها من الجنسين. وإلى ذلك هي أم، لأن العبارة الأولى في اسمها: أم، أم الجميع، وأم بدون ولد. وقديسة أيضا لأنها تنحدر من سلالة النبي، وتحمل اسم واحدة من بناته. ومع ذلك هي امرأة أيضا، بالطبع امرأة ليست لأي من الرجال، بُرج من لحم مُرتعش لكنه لا يُمس. كنت أدرك

انني أوقفت حياتي على استحالة حيّة، على الإلاهة خنثى، على مسخ.

لامس محمد كتفي. ثلاث من الراقصات كنَّ هنا، من حوله. أثوابهن أكثر حشمة، وشعورهن المبللة تقطر ماء. لم أحفظ أيًا من أسمائهن، فالوجوه وخصل الشعر المبلل تختلط في ذهني في صبا فوارق فيه. اقترحَ عليهن أن يغادرن الحفلة برفقتنا. فقبلن منه دون تردد. أضيئت الكشّافات مجددا فأسندتْ الفتيات ظهورهن إلى الحائط مثلنا بيننا.

تطاول الشعاع المُضيء بحثا عنها على المصطبة، فيما السلطانة تدفعها إلى الأمام، والجمهور يصرخ باسمها. نهضت واتجهت نحو المنصّة. ستغني من أجل منيرة. وفي صمت مخيم أشبه بصمت التقوى، ارتجلت كلمات على شرفها، معبِّرة حيالها عن مشاعر الاحترام والإعجاب والمحبّة، وفي كل عبارة كانت تزداد عظمة. ثم أنشدت بصوت رخيم: "وحقك أنت المنى والطلب" لعبد الله الشبراوي(*)، كانت عيناها لا تفارقان عيني منيرة. فيما اقتعدت "أسمهان" الصغيرة أولى درجات السلم وأسندت ذقنها إلى قبضتها، مسحورة، وبدا الجمهور وقد أربكته المفاجأة فغرق في ذهوله. لم تنتظر صحوته فتابعت منشدة "مثل الغزال" لصفي الدين الحلبي، فصاحبتها موجات من التصفيق الموقع حتى النهاية. ثم علت أصوات تطالب بأغانيها التي اشتهرت من قبل. "إن كنت أسامح" و"شرف حبيب القلب".. لكنها لم تنشد تلك الليلة أيًا من قصائدي، كنت أعلم ذلك. وراح محمد يدفعنا باتجاه باب الخروج.

(*) وردت في النص إيمان الشبراوي (؟).

3

تقدمت نحوي باسطة يدها. كنت احسب اني ساجدها متحفِّظة جافية، فإذا بها تبتسم مائلة برأسها إلى الوراء. على الشرفة، كنت منهمكا بتقليب أوراق محفظتي، فلمست يدي وقالت:

– لدينا متسع من الوقت للعمل.

خلف الحماسة التي كانت تبديها أحسست أنها تخفي شيئا من القلق. لقد شرع العالم أبوابه أمامها وقبلها، غير أنها وجدت نفسها في ساحة معركة جديدة، أكثر اتساعا، وأشد تعقيدا. ما عادت مشكلتها أن تبلغ المكانة الأولى، بل أن تحافظ عليها. نظراتها تتشبث بعيني، إنها هنا حقيقة وتسعى لإغوائي.

سألتني عن رأيي بأحمد شوقي، فأجبتها ان أمير الشعراء لم يختلس اسمه اختلاسا.

– عندما كان في العاشرة من عمره، كان محمد يغني في مسرح مشبوه من مسارح شاطئ النيل، وهناك اكتشفه أحمد شوقي. فوشي عنه للشرطة. غضب منه محمد عندما جاء شرطيان لاقتياده إلى منزل ذويه. في اليوم التالي قرع شوقي بابهم. وقال لهم: هذا الصوت أجمل من أن ينحرف، عليكم بتوفير المعرفة الموسيقية والشعرية لابنكم. وأبدى شوقي، شوقي العظيم، رغبته في اصطحابه إلى بيته، ليقيم في غرفة عنده، ويتكفّل بتعليمه.

– أعرف كل هذا.

- لقد وشي به، وتبّناه. تخيّل المرة الأولى التي دخل فيها محمد إلى بيت شوقي، تخيّل جبروت علاقتهما. وعلى هذا نشأ محمد، على هذه الصلة العميقة. تماما مثلي ومثلك.
- ثمّ ؟
- ثمّ لا شيء البتة إذا كانت لا تود أن تفهم. ثنائي مثل هذا، يتطلب ثقة عمياء، يتطلب رابطا.. مضطربا ربما، لا أدري، ولكنه رابط حصري.
- طلبك أنْ لا أكتب لمحمد، أليس بلى ؟
- أنا شخصيا سأمتنع عن إنشاد قصائد أحمد شوقي.
- ...
- صوتي سيموت معي، ولن يُسمع منه سوى النسخ الرديئة المسجلة على اسطوانات 78 دورة. ولكن ما الذي ينشده هذا الصوت؟ قصيدة واحدة، طويلة. هذا ما سيبقى.
- أتعرضين عليّ الحياة الأبدية؟
- اصمت.
- اسمعي، لا أحد منا، لا أنا ولا أنت، يستطيع أن يتحكم بعلاقتنا، بل الأحرى، أن علاقتنا هي التي تتحكم بنا. هي تقودنا ولا نقودها نحن. وليس بيدنا أن نقرر بشأنها، فهي صاحبة القرار.

لن أقطع علاقتي بمحمد مرة ثانية، لا أريد، ومهما كان الثمن. فطنت إلى هذا الأمر فلزمت الصمت. رأيت نظرة الإحباط في عينيها، ولكني رأيت فيها أيضا ما يُشبه الاحترام.

لم أخبر محمدا بشيء مما جرى، لكنه أدرك أن الصلح مع منيرة لم يُحسِّن في العلاقة بينه وبين فلاحتي. ولكي ينهي حال الخلاف السخيفة بينهما أرسل لها قصيدة، "ياللي ودادي صفالك" على أن يُلحنها بنفسه. لم ترسل له جوابا. فالقصيدة قُدِّمت لها ولها مطلق الحق في التصرف بها. فأعطتها للقصبجي الذي لحنها لها. وسجلت الأغنية لدى شركة (غراموفون، المنافسة لشركة بيضافون التي يمتلكها محمد، وصدرت الصحف بالعنوان العريض: "كوكب الشرق ترفض عروض محمد عبد الوهاب".

وسرعان ما اعتادت القاهرة ذلك العنف الذي رافق تلك المنافسة. لم يشأ محمد أن يأتي على ذكرها، فتكلم الآخرون بلسانه. فدعمته "روزاليوسف" فيما انحازت "أخبار اليوم" إلى صف نجمتي، وحذت الصحف الأخرى حذو المجلتين المذكورتين. وعاد الشلل إلى سابق عهدها من الانقسام والانحياز لأحد الطرفين، وكذلك انقسم الجمهور. أصبحت في النهاية الوحيد الذي لم يختر الانحياز لأحد المعسكرين، وواصلت الكتابة لها وله. لم تكن لتقبل ما أفعله إلا بصعوبة. فأجبتها بقصيدة "خاصمتني وأنا حيران.." التي لحنها القصبجي، أو بقصيدة "جنة نعيمي في هواكي" التي لحنها داود حسني.

لكن محمدًا كان يُضمر شيئا آخر: مؤتمر الموسيقى العربية الكبير الذي قرر الملك فؤاد أن ينعقد في القاهرة للتوفيق بين موسيقى الشرق وموسيقى الغرب. وقد دعى لحضوره أكبر موسيقيي أوروبا والعالم العربي، كيما يتعرفوا على موسيقى بعضهم البعض والمزج بين تقاليدهم المختلفة. كانت

السلطة ترى أن هذا الحدث من شأنه أن يعلي صورة مصر الفرعونية والعربية والإسلامية والحديثة، والمنفتحة على الغرب. ومحمد يحدُس بالتأثيرين في دمه، فبدا المؤتمر في عينيه وكأنه فرصة العمر.

لا يرى الغرب سوى عالمين، العالم الكبير والعالم الصغير، ورغم ذلك انظر إلى المعجزات التي حققها. أما نحن، فنمتلك عددا لا يُحصى من المعادلات ذات الأوجه، فإن تمكنا من إيجاد التناغم الشرقي، تخيل!، لأمكن للموسيقى الشرقية أن تتخلى عن طابعها المحلّي لتصبح كونية! يكفي أن تتبنى سلما موسيقيا واحدا. وإذ ذاك لا بأس من تكييف أنغام البيانو ليُصبح جزءا من فرقنا الموسيقية، وإدخال آلات النفخ كالناي أو الكلارينت.

لم أكن في هذا الوارد، فأنا لا أفهم كثيرا في هذا المضمار، ولكن سيّان عنده. أصبحت المسألة تحتل صفحات وصفحات من الصحف. وأصبح الشغل الشاغل للعازفين والملحنين خوض السجال الحاد حول السلم الموسيقي وأرباع الصوت المتوازية أو المخففة. والجمهور، مثلي، يجد صعوبة بالغة في متابعة الحوار. غير أن للمسألة وجهها السياسي. فقد أخذ المحافظون على أنصار الحداثة رغبتهم في بيع العالم العربي إلى الغرب: "بدعوتهم الأسياد الفرنسيين والإنجليز لإلقاء الدروس على التلامذة الصغار المحليين، يُعد لنا أنصار التقدم المزعومون مؤتمرا للمستعمرين"، وبذلك أصبح محمد رائدا للمجددين فكتب في مجلة "روزاليوسف" ما معناه: "بدل أن نخضع لموازين القوى وأن نستسلم لغزو الموسيقى الغربية في حال من الفوضى والارتباك، الأحرى بنا أن

تتداول بذكاء بشأن حيثيات هذا المنعطف. فعلى الضد مما يذهب إليه المعممون السلفيون، فإن أفضل وسيلة لحفظ التراث تكمن في إعادة الحياة إليه، ودمجه في مجموعة أوسع أفقا".

امتنعت فلاحتي عن الخوض في السجال، ما أغضب محمدًا وأصبح لا يأتي على ذكر اسمها، فقد زالت برأيه من الوجود.

ولكن الأمر لم يدم طويلا. فقد أفادت من موقف الحياد الذي اتخذته. إذ سرعان ما تلقت رسالة تدعوها إلى إحياء حفل ختام المؤتمر الذي سيقام في دار "أوبرا القاهرة" بحضور الملك فؤاد والوفود الأجنبية كافة، كانت الدعوة تضعها فوق المعمعة، فقبلت بتواضع. لقد خبرت اللعبة الجديدة جيدا.

أرسلت في طلب جميع الشعراء والملحنين الذين يعملون معها. فالمؤتمر حدث عالمي، وهي تريد أن تكون رمزًا لكل شيء، التقليد والحداثة، مجسدين في شخص واحد، هي، أما أنا وقد اعتدت أن أكتب بشيء من الخصوصية والحميمية، فلم ألبِّ الدعوة.

طيلة الأسابيع التي تلت ذلك الحدث، شعرت بالعجز عن كتابة أي شيء. كان الوقت يمضي والكتابة لا تزال على جفائها. ومساء، حين أنفرد في غرفتي، أجلس أمام الورقة البيضاء، متعرِّقًا عاجزا، فأنصرف إلى قراءة الشعر القديم، محاولا أن أدرك، في منتصف الليل، أنني لم أتمكن من النظم إلا بالفصحى التي لا تلائم التلحين والغناء. فكنت أحتفظ بتلك القصائد لأضيفها إلى ديواني الثالث الذي أُعدُّ لإصداره.

بدل أن تحثني العجلة، كانت تشلّني بالكلية. ومع ذلك كان مستحيلا

عليَّ أن أستسلم. فعدم غناء نجمتي إحدى قصائدي في ليلة مثل تلك الليلة، من الأمور التي لا أستطيع أن أقبل بها. ولكن.. ما العمل حيال كل تلك الضغوط؟

خسر محمد الجولة. فقد أوصى المؤتمر بأولوية إبراز التراث ونشره على كل السجالات الأخرى حول توحيد الأنماط الموسيقية. لا.. بل ذهب المؤتمر إلى استبعاد أكثر الموسيقيين تجديدا. حتى إن القصبجي لم يكن مدعوًا! ولشدة ما أحس محمد بالإحباط غادر إلى العراق. أما فلاحتي فكانت تكرس وقتها للإعداد لحفل الختام. وأبدت غضبها مني.

- إذا كنت عاجزا عن الكتابة، ففتش في قصائدك القديمة، فربما عثرت على واحدة من العهد الذي كنتُ فيه مصدر إلهامك.

رحت أقلب النصوص التي حملتها ذات يوم إلى شركات إنتاج الاسطوانات. ووجدت قصيدة بدت لي الأقرب إلى المناسبة: "أخذت صوتك من روحي"، ذلك أن القصيدة نظمت على نحو يصعب معه إدراك وجه القصد من (صوتك) فقد يكون صوت الحبيبة أو صوت البلاد. كنت نسيتها تماما و لم يغنّها أحد على الإطلاق. أطلعتها عليها فقبلت بها بحماسة وأعطتها للقصبجي كي يلحّنها.

وإذا بالسحر يعود، السحر الغارق بالأهواء الذي يربط فيما بيننا، أنا وهي، والقصبجي. كانت التمرينات أشبه بلحظات نعمى كما لم نشهدها منذ بعض الوقت. يكفي أن تصغي إلى اللحن حتى يتجسد اللحن فيها. "أخذت صوتك من روحي" بالفعل.

4

نظرت مليا مثل غريق. صالة الأوبرا كوكبة مشعة وكنا في داخلها. بدا لي كل شيء مزيفا. الثريا الهائلة المتدلية من السماء تشيع أنوارا مكفهرة تنير الخميلة والتفتا، وتنسرب خلسة على الصخب والأمراء وأولياء العهد والنبلاء وعلى أرباب الموسيقى. جلس الملك والملكة في الصف الأول. كما في مسرح دمي، وراحت الأنوار تتناثر فيما يجلسان.

بدت من فتحة الستار الذي يُرفع رويدا، قامة منيرة، بُرجًا يتألق بالبريق. أقراط وعقد ومشبك، كلها مرصعة بالجواهر، كأنها عروس.

خلفها وقف العازفون حاملين آلاتهم. إذ يبدو أن فتح الستارة قد فاجأ القصبجي المنهمك في تدبير إطلالة فرقته. وفجأة لم يعد قادرا على الحراك نصف واقف نصف، جالس كأنه مصاب بتشنج عضلي. وحده القصبجي بدا لي واقعيا، وودت لو أحييه، خصوصا هو، غير أن العتمة حجبت عنه الرؤية. هدأت موجة التصفيق فاستطاع أن يجلس واحتضن عوده مطمئنا. من بين العازفين كان سامي الشوّا وكمنجته، ومحمد العقاد وقانونه. الثلاثي الذي صاحب غناءها في دار صفية زغلول، اجتمع مجددا ليصاحبها.

لم ترفع رأسها إلا بعد اختتام المقدمة الموسيقية، عندما تصمت الآلات في انتظار أن يعلو صوتها فيجمع بينهما لحن مصاحب. وشرعت في الغناء: "أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا/ملك .." تريثت في إنشاد العبارة الأخيرة وجعلتها تتردد إلى ما لا نهاية على لسانه، حتى خبت بها أنفاسها. جاوبتها

صرخة استحسان. فعاودت إنشاء المقطع من البداية، توقفت عند العبارة إيّاها، "ملك.."، وعاودت الإنشاد منتشية، ثم عاودت إلى أن نطقت العبارة بأكملها كأن من تلقائها: "ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا". كانت تلك قصيدة للمصري(*)، ومن ألحان أبي العلا، فهي برغم كل شيء ما زالت على وفائها للأستاذ. القلب هو الفؤاد، ملك الفؤاد، وبذلك تكون قد سخرت هذا اللعب بالكلام تحية للملك. انتصرت. رأيت ذلك في انحنائها وابتسامة الغبطة التي ارتسمت على شفتيها. وازداد صوتها ثقة وانتشاء. وأنهت أغنيتها الأولى تصحبها هتافات التهليل والاستحسان.

لوّحت بمنديلها مجددًا إلى الجمهور. كثير من المطربات حاولن تقليد هذه الإيماءة لكن يديها هي وحدها أعطت لها معنى. منديل من قماش هيّن، أضحية، عقدة التأوهات كلها، تعتصره بين كفيها في كل حفل وتجود به إلى الناس دون أن ترميه، مُمزقًا بأظافر أصابعها المنتشية. تملكتها أخذة الغناء حتى سرت أخذة الطرب في أوصال السامعين طاغية مشرقة. غنت القصائد الأربع التي اختارتها واستطاعت أن تأسر قلوب الكهف المذهّب، وأن تُمسك بتلابيب كل واحد منهم كمثل ما تعتصر منديلها الحرير.

أغنية "أخذت صوتك من روحي.." كانت للختام. وها هي تستعد لإنشادها. أطبقت أجفانها قليلا لكي يتسنّى لها أن ترى في العتم، فرأتني. ابتسمت لها فيما تقاسيم القصبجي على عوده تستخفها طربا. بلغت الرعشة ذروتها فانفرجت شفتاها وانطلق صوتها كعارشة متطاولة، لينة الأعطاف، مديدة ومقتدرة.

(*) هو ابن النبيه المصري (المترجم).

كانت تغني للملك، وكنت في مجال التفاتها، فإذا فتحت قليلًا أجفانها شبه المطبقة، رأته ورأتني، ورأيت تلك الشعلة الفارعة البيضاء على المسرح تتحرّى عيني. وحين أنهت غناءها أحسست أن شيئا فيَّ ما عاد يستجيب بشيء. كان الجمهور يقف مهللا، أما أنا فكنت في مكان آخر.

كان محمد لا يزال خارج البلاد، لكنه أرسل من بغداد مقالة لاذعة نشرتها مجلة "روزاليوسف": "لقد انفضّ مجلس مؤتمرينا الميامين وقد عجزوا عن وضع سلم نغمي موحد. مع أنه كان الشرط الأساسي في اجتماعهم. فلندرك مغزى الإخفاق: لقد فوتت الموسيقى العربية فرصتها التاريخية، وحكمت على نفسها أن تراوح في تقليد الماضي ما بقي لها أن تحيا".

وكان المقال مرفقا بصورة لمحمد بدا فيها متجهِّما. وفي الصفحة نفسها صورة كبيرة ورائعة لنجمتي وهي تنحني لتصفيق جمهور الأوبرا. فبدا التنافر واضحا. فتحت المجلة لهنيهات ثم أهملتها. وأحسست بمقدار غبطتها المضمرة. لم يكن لديها أي مأخذ شخصي ضد محمد. ولكنها تحتاج خصما، وأكبر الخصوم حجما، لكي تحيا وتستمر، فلا طاقة لها على التوقف عند حد.

"الشاعر الذي أهان كوكب الشرق": هكذا عنونت "روزاليوسف" غلافها بالبنط العريض. كانت الصحف مكدسة في واجهات الأكشاك، فاختطفت واحدة. انتابني إحساس غريب بأن العنوان يقصدني أنا. "لختام المؤتمر اختارا كوكب الشرق قصيدة "أخذت صوتك من روحي"،

لشاعرها المُفضّل، ولاقت الأغنية الإقبال الذي تستحقه. ولكن ما لا يُعرف بهذا الشأن، أن القصيدة إياها كانت قد عُرضت على محمد عبد الوهاب قبل ذلك بعدة أشهر، غير أنه رفضها. لقد حظى الملك فؤاد والمدعوون الأجانب وجمهور الأوبرا بعمل مُستعمل". ويصاحب هذا الكلام رسم كاريكاتوري يمثلني أنا، عاكف الطربوش، أمد يدي باتجاه نجمتي حاملا ورقة ملفوفة مثل ورقة بردي. ومحمد بالفيونكا التي تزين ياقة قميصه يقول معترضا: إنك تقدم لها قصيدتي.

ما كتبته الصحيفة صحيح. فما زال المشهد ماثلا أمام ناظري. كنا في داره هو، واقفين. وقرأ القصيدة ثم وضعها على الطاولة وقال إنه لا يريدها. ما عاد الأمر يستحق. هذه الذكرى المركوزة في جنبة ما من دماغي.. كانت ولا تزال، جعلني ذُعري غائبا عن نفسي على نحو غريب. ورحت أضحك.

في تلك الأثناء كان محمد قد عاد من العراق. ورمقني حين التقيته بنظرات ساهمة. فأطلقت جام غضبي في وجهه.

- أنت من سرَّب هذه القصة إلى "روزاليوسف" ولا يُعقل أن يكون أحد سواك!

- هل جننت؟ بالطبع هذا أنا.

- لست سوى وغد، كأنك لا تعلم كيف سيستغلون الأمر.. كأنك لا تعرف!

- لقد أصبحت مضجرًا! هذه المرأة ترعبك، وتُحيل حياتك إلى جحيم. ولا بد أنك ضقت ذرعا بها حتى أعطيتها عمدا هذه

القصيدة. كنتَ تتحرق للانتقام منها، وها قد فعلت أخيرا، ولكنك لا تجرؤ على الإقرار بمثل هذا الأمر!

كانت جالسة في ردهة الاستقبال تقرأ الصحيفة وقد شددت عليها بقبضتين مطبقتين. رفعت عينيها وصرخت من مكانها:

– اصحيح ما أقرأ؟

– جئت لأشرح لك.

– أنا لا أسألك تبريرا. أريد فقط أن أعرف إذا كان ما نشرته هذه الحثالة صحيحا أم لا؟

– منذ عام، كنت عرضت، بالفعل على محمد نصا يُشبه...

– يُشبه؟

– لا. عرضت عليه هذا النص نفسه، "أخذت صوتك من روحي". النص نفسه. ولكني نسيت أني فعلت ذلك.

– نسيت؟ هذا النص.. هذا النص نفسه.. أهذا ما تفعله بي!

أسقطت الصحيفة من يديها وراحت تفركهما. وتردد العبارة نفسها كأنها مسلوبة الإرادة. تقدمت نحوها، وحادثتها محاولا كسر الجليد بيننا.

– اذكري جيدا.. أنت من طلب مني أن أفتش في أوراقي القديمة.

لم تسمع شيئا مما قلت، كأنها تصغي إلى صوت من داخلها، وتابعت ما تقوله لنفسها قائلة:

- هذا النص.. هذا النص بالذات.. لحفلتي. أنت. قصيدة رفضها محمد و لم يُعرها اهتماما.. تلك القصيدة بالذات.

أخافتني. وكانت سعدية واقفة خلفي، مجهشة في البكاء، وتابعت جمتي ترداد العبارة إياها، وصوتها تجعله البُحّة غير طبيعي. دنوت منها وامسكت ذراعيها وأوقظها من هذيانها. فأجفلتْ كأني لسعتها بحديد محمّى. وإذا بها تصرخ في وجهي بكلام ما زال إلى اليوم يصخب في أذنيّ، ويتردد صداه بين جنبات راسي:

- لا تلمسني ! لا تقترب مني! إياك أن تقربني بعد اليوم ! إني نادمة لأني عرفتك!

5

كانت المسألة تمس شخص الملك. فلابد من التبرير.

- كنت أجهل أن القصيدة عُرضت من قبل على شخص آخر. لقد خُدعت. ومن واجبي الاعتذار لجلالته ولضيوفه. إني آسفة كان ينبغي أن أكون أكثر فطنة. ولكني لم أتوقع مثل هذه الخيانة.
- لنرجع إلى البداية. الشاعر..
- .. أفضل أن لا أسمع اسمه. لقد التقيته منذ ثمانية أعوام، ومنحته ثقة عمياء.

كان العرق الذي يبلل قميصي ذو رائحة كريهة. وكنت أغالب نفسي وأعاود القراءة: خُدعت، خيانة، لا أريد أن أسمع اسمه. أردفت قائلة:

– لقد حصل ما حصل. وليس بإمكاني أن أصلح ما فسد.

– كيف تفسرين..

– لا أفسر شيئا، لأني أنا نفسي لا أفهم شيئا، لقد أراد تحطيمي ولا أدري لماذا. فالخيانة هي طبيعة ثانية.

– أتقصدين بقولك هذا أنك لن تتعاوني مجددا معه؟

– لا بل أريد أن أقول: إنني لا أعرفه.

حنق هائل كان يعتمل في أعماقي، ويُمسك بعنقي حتى الاختناق. الخيانة طبيعة ثانية! هذا الكلام عنّي أنا، تقول هذا عني! من الذي ضنَّ بها بعينيه؟ من الذي صنعها بيديه! تتهمني في الجورنال عبر هذه المقالة وعلى أعين الجميع! جلست إلى طاولة مكتبي، امسكت بالقلم ورحت أكتب مدفوعا بأحاسيس الكراهية: "من أنت حتى تستبيحي عزتي/فأهين فيك كرامتي ودموعي.." ونظمت البيت تلو البيت أقول لها، هي المصونة بحبي لها، ما لم أبح به من قبل إلى ذاتي. فقط لكي أفقد توازني.

وقعت القصيدة ووضعتها في مغلف. كان القيظ شديدا فقصدت الكشك عند الناصية واشتريت طابعا بريديا وأرسلتها. ثم مشيت على غير هدًى، يُسلمني رصيف إلى رصيف. كان الضوء المشبع بالغبار يغشى أفكاري. انعطفت مرة ثم أخرى وتسارعت خطواتي. كل خطوة تجلعني أكثر خفة كأنني على وشك أن أطير. ثم انتابني شعور لم أعرفه

.ن قبل، وراح يغمر كياني، تدريجيا، طاردا الفراغ الذي ألمَّ بي، تحرر
لائم، بالغ الحيوية، ضار.

فتح لي محمد الباب. لا بد أنه قرأ المقالة. حاول أن يقول شيئا فقاطعته:

- لا تشغل بالك بشأني. فأنا لا أبالي.
- ذهب ليحضر لنا شرابا.
- لقد حرمتُ نفسي من العيش، والآن انتهى كل شيء.
- لم يجروْ على الإجابة.
- ماذا أنت فاعل اليوم؟
- يجب أن أسافر إلى الإسكندرية في غضون ساعة. يجب أن أحيي حفلة هناك، هذا المساء، للأسف.
- ولـِمَ تقول للأسف؟
- كنت أود أن أمكث برفقتك.
- أنا سأرافقك.
- هل أنت جاد بما تقول؟
- وما الذي يعيقني؟

تبادلنا النظرات، ولامس بيده كتفي مُرتبكا. وراح يسأل عن حالي.

كانت الأمسية مذهلة. عودُه يتحرر من كل قاعدة، والنساء يتحلقن من حوله. استبقى اثنتين منهن. واصطحبنا إلى الكازينو وراح يوزع علينا المال لنقامر فخسر منه الكثير. عند الرابعة فجرا، كان الوقت لا يزال مبكرا

لنذهب إلى أسرّتنا. فاصطحبنا إلى شاطئ مقفر، وما حصل هناك بدا شديد البساطة.

صباح يوم الثلاثاء، مررت بأحد أكشاك بيع الصحف، في طريقي إلى المكتبة، فتوقفت عنده واشتريت عدد "روزاليوسف". على الصفحة الأولى من المجلة رأيت القصيدة التي أرسلتها منشورة ومؤطرة بالسواد: "مَنْ انتِ مذيّلة بتوقيعي".

6

كنت أحفظ غيبا كل رسم خلفته الرطوبة المُقيمة في الدعائم التي تسند السقف، أشكال لا شكل واضحا لها: رأس كلب، نقحة دماء.. تطالعني لصيقة بعيني حالما أستيقظ، فأغمض عيني ولكن بعد الفوات. ثانية واحدة بين الحلم والحقيقة وتنقضي. فقد كان حلمي المؤرّق أطول من الليل.

عاودني الألم كمثل أتون تُسعَر ناره كل صباح، وينبغي أن نعتاده. أشبه بالجُعَل الذي يرجم الهواء بقوائمه عاجزا، وكم وددت أن أفقد ذاكرتي التي تجعلني، اليوم ما أنا عليه. أو إذا تعذّر ذلك، أن أُجاوز اللحظة الراهنة أو أن يصبح الحاضر ماضيا منصرما. غير أني أطلب المستحيل.

العبارة تعاود نبضها بين جنبات رأسي، على إيقاع شطريها: "صعبان عليَّ اللي قاسيته".

غَدّية تعسة. أسمعها بصوتها تكرارا، لا تصمت. وأراها هي بعينيها السوداوين وشفتيها المزدريتين الغاضبتين. وإذ ذاك يُستثار حنقي المُعذِّب مثل الملي، لا بل أشد إيلاما. كأنها تمدني بانفعال وتمنحني القدرة على الإدراك هي وحدها تبقيني قادرا على الحياة.

عندما لامس الضوء حافة السرير، أيقظني طرقٌ خفيف على الباب ليشير عليّ بأن الوقت قد حان. فمنذ ثلاثة أسابيع وأختي سلوى تحضر لي طعام الفطور وتضعه أمام باب الغرفة دون أن تسأل عما بي، لقد أقلعت عن عادة تناوله في المطبخ. والدتي أقعدتها شيخوختها عن القيام بمثل هذه الأعمال، فحلت سلوى مكانها. انتظرت ريثما أسمع خطاها مبتعدة، فأفتح الباب، وأحمل الصينية، وأقفل عليّ الباب مجددا. الشاي المُر المحلى احتسيه بمتعة ولا أمس أيًا من الأطباق الأخرى. ثم أتسلل خلسة إلى الحمام لاغتسال عاجل وبعد ارتداء ملابسي، واعتماري البيريه، فأستقل الترامواي قاصدا المكتبة الوطنية، مركز عملي.

أغلق الباب ورائي وأنعزل عن العالم داخل غرفة مكتبي. أمامي، على طاولة المكتب أوراق مبعثرة، ولكن عيني تسرحان عبر النافذة، وأمكث هناك متأملا تدفق مياه النيل في جريان لا نهاية له. كان زملائي يحاولون ما بوسعهم عدم إزعاجي، وإذا اضطروا إلى ذلك يحرصون على اجتناب نظراتي. كلهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئا، وكلهم يعلمون.

وما إن يغادروا غرفة مكتبي حتى يُعاودني الكابوس، كأن النهر يمحى فجأة من أمام عيني، وأشد بجماح قبضتي المتشنجة على مكبس الورق المصنوع من حجر أملس. لم أدرك جيدا، وما زلت لا أدرك، ما حلّ بي.

كنت قد عدت من الإسكندرية مُغتبطا، طليقا أشعر أخيرا بالحرية، وقرأت قصيدتي المنشورة في الجورنال الذي حبّر أصابعي، وانهرت فجأة. من تكون انت. يحسب خصومها أني أصبحت في صفهم، يا لهم من سُذج. فبالنسبة لي انتهت الحرب. فقد أغرقت كل سفني، وما عدت راغبا في شيء. لا أريد سوى الغرفة التي تحجبني عن أنظارهم، ومناي أن يتركوني وشأني، نسيا منسيا.

تفاصيل ما حصل تترى أمام عيني، متاه، مسار شاق. أحاول ان أعثر على شق في هذا الجدار الهائل على منعطف ما، على رواية أخرى ممكنة للأحداث، غير أن الجدار لا يتزحزح من أمامي. وليس لي إلا أن أعاود السيرة إيّاها.

دقت الساعة السادسة في مبنى المكتبة، فجاءت دقاتها المنتظمة الرتيبة لتعيدني إلى أرض الواقع، نهار بليد آخر ينقضي. وها أنذا، أو بالأحرى هو ذا الظل الذي أصبحته، يسلك طريق العودة إلى داره منهكا بمحاذاة الجدران.

رأس كلب؛ جسوم غائمة الأشكال شوْهاء.. كانت البُقع المرتسمة على السقف تتحرك وتبدل أشكالها وألوانها. كم من الشهور انقضت وأنا على هذه الحال؟ شهران ربما. بتُّ عاجزا عن الكتابة. ذلك أن ترجمة عذابي بالشعر لم تكن سوى غلطة. وكان ينبغي أن أدرك الحقيقة منذ

، من بعيد، فما من وقود آخر لهذه الآلة الجهنمية، الألم، لا.. بل الإحساس نفسه. كان أوْلى بي أن أبتلع أحزاني متخليًا عن كل هذا ،ارحل. كان ينبغي ان أفعل، غير أني كلما أردت أن أبتعد هرعتْ إليّ ، نشبت بيدي. تميل برأسها إلى الخلف وتتلو على مسامعي كلمات الحب المخيِّلة، كلمات قصائدي. وكان صوتها يدلني على التمزق في أعماقي، ،افقد صوابي. وعند المساء، كان جسدها يتلبّس هذا التمزق، هذا الأسى الذي بي منها ويُطلقه إلى عراء الضوء. وكان أولاء الذين يحتشدون في الصالة، ويصفقون يغتذون من روحي أنا. أنا المغتبط الأبله الذي حسب ،مسه حبيبا. وكان يكفي أن أطمئن هنيهة فأعود إليها، مرارا ما عدت أحصيها.

تعلمت الصمت، تعلمت التلاشي. و لم أكتب في هذه الأثناء سطرا واحدا، كلمة واحدة. آثرت أن يغتذي ألمي من ألمي، وليتعاظم في داخلي ويكبر ولو أدى ذلك إلى اختناقي.

وكان ألمي يخنقني. شفرات المروحة تدور متباطئة فوق عيني المفتوحتين، فلا تُحيل القيظ طراوة ولا الاضطراب أمانا. مرة واحدة، بعد الفضيحة بثلاثة أسابيع، جاءت سعدية لتطمئن إلى أحوالي: (يجب الا يعرف احد أنني اتيت، يشهد الله أنني أتيت خِلسة لأطمئن وأعرف اخباره). طردتها سلوى بكثير من الجفاء، وردّدت على مسمعي ما قالته. ربما كانت صادقة فيما تقول، فأنا أعرف أن سعدية تحبني بصدق.

منذها لم تبدر إشارة منها. لا شيء على الإطلاق. ربما فهمت هي أيضا. وهذا أفضل بأية حال. ولا بد أنها تواصل عيشها المزوْبع، بعد أن

سدت الثقب الذي كنته، وها هي الآن منهمكة في التهام رؤوس أخرى. أما أنا فلا أحتاج سوى انقضاء الوقت. والاقتناع بأن كل يوم يمضي يُبعدني عن بقعة الغرق.

سمعتُ طرقا خفيفا على باب غرفتي، على غير العادة في مثل ذلك الوقت. كانت الغرفة غارقة في الظلام. ثم عاود الطرق خفيفا، وصوت سلوى وراء الباب يقول:

– إنه القصبجي، هل ترغب في استقباله؟
– هو أيضا. تبع ذلك صمت طويل. ثم مجددا، الصوت الهامس:
– لا يُعقل أن تستمر على هذه الحال. لقد مضت ثلاثة أشهر. الله قادر على شفاء كل عذاب. وهذه المرة الخامسة التي يزورك فيها القصبجي.
– تتناهى إلى مسمعي تنهيدة اليأس التي أطلقتها من الأعماق، ويبتعد وقع أقدامها حتى التلاشي ثم يعاود مجددا. وصوت سلوى مرة أخرى:
– لقد غادر. وقال لي إنه سيحاول مرة أخرى خلال الأسبوع المقبل. وخلال كل الأسابيع المقبلة تنهيدة أخرى.
– هل تريد شيئا؟
– لا.

سمعتُ وقع أقدام أصغر أبناء وبنات شقيقتي الأخرى، وهما يتراكضان في الرواق لظنهم أن باب غرفتي قد فُتح أخيرا. فنهرتْهما سلوى، فأطبق الصمت مجددا واستغرقت في أحلام يقظتي.

كنت أحب القصبجي ولكني عاجز عن رؤيته. لا أستطيع، فحين أراه سيُحدثني بشأنها هي.

ذات مساء، وكنا قد غادرنا، القصبجي وأنا لتونا مسرح "البوسفور" حيث أحيت حفلة غنائية، كان القصبجي يسير مُطرقا، حاملا عوده، فيما تطالعني أنا لا يتسع لها الفضاء. سرنا صامتين مسافة طويلة، وفجأة قال كأنه يتحدث في سرّه:

أوَتعلم كل هذا التهليل الذي ينطلق فجأة من بقعة معتمة أمامها، كل هذا التصفيق، هو الشكل الأوضح لعنف ما.

كنت أسير صامتا.

- جسدها يتلقفه ويختزنه ليلة بعد ليلة. ولكن.. لا بدَّ لهذا المقدار من العنف أن ترد به كما تتلقفه.
- وما زلت أذكر نظرته التي رمقني بها، حزينة وماكرة، وأصابتني على الفور من فوق حدبة الكار التي يحملها.
- حتى على الذين لم يتسببوا لها بأي أذيّة.

وذات مساء آخر، انهمك في توضيب عوده في علبته على عجل، منتهزا موجة التصفيق الأخيرة، كأنه على موعد عاجل، بعد ذلك بقليل لمحته جالسا في سيارته المطفأة الأنوار أمام بوابة المسرح. حاولت أن أحادثه فبدا منزعجا، في عجلة من أمره. ابتعدت ووقفت على بُعد أمتار. وإذا بها تغادر بدورها وتستقل سيّارة أجرة كانت تنتظرها. وسرعان ما أدار القصبجي محرك سيارته دون أن يُضيء أنوارها ولحق بالتاكسي. كان يتبعها ليعرف أين تذهب! كان مولعا بها، وغيورًا!

جرى في ذلك الوقت، الذي بدأت فيه الصحافة تعيرها اهتمامًا وتقتفي أثر أي تفصيلة من حركاتها وسكناتها. وكانت الصحف قد سرَّبت خبر زواجها السرّيّ من "علي البارودي" الذي اصطحبها إلى بغداد، ومن المدعو "عبد الرحيم البدني" منظِّم الحفلات، ومن النحّات "محمود مختار" ومني أنا شخصيا. كل هذه الزيجات المزعومة تم تكذيبها، غير أن شائعات أخرى أُطلقت، وتكاثرت أسبوعا تلو اسبوع. كان يكفي أن ألاحقها أنا أيضا، خلسة، لكي اعرف ماذا يجري. فربما كانت تعاشر رجلا أو امرأة؟ أو ربما كانت امرأة أخرى. كم من الحيوات كانت تخبئ في مسار حياتها؟ وفجأة شعرت بالخوف. وأقلعت عن السؤال لكي أعرف. ورحت أراقب القصبجي بغضب وحسد، وبغيرة أيضا. ما كنت لأسأله ولو كان الثمن حياتي. ربما يعلم. وهذا الشك أبعدني عنه، برغم كل المودة التي طالما أبداها حيالي.

غفوت. كان الظلام حالكا والحارة غارقة في صمت مطبق. ولم أحسب أن شيئا قد يوقظني فزعا في عز الليل على هذا النحو. لو لم تكن هي التي ما زالت يدها تعبث بقلبي. كل هذا الوقت، وليس هناك ما يؤمِّل بالفرج. متى سينتهي كل هذا؟ متى. مسحت العرق المتصبب على جبيني، وأشعلت عود ثقاب لكي أرى بوضوح عقارب ساعتي. ثم استعاد الظلام سلطانه. جلست على سريري، ورحت أتأمل شبح الكرسي

أمام طاولتي المهجورة. نهضت من السرير وذهبت إلى المطبخ حيث شربت كوب ماء ووقفت خلف النافذة. كانت المدينة قفرا بلا حياة. فعدت إلى سريري. تأخّر الوقت وهو ذا الكابوس يُعاودني.

سعت يداي بحثا عن جنبات السرير الجديد لكي أتشبث بها وأقاوم الدوار. كان ينبغي أن أبلغ نقطة خلاصي، أن أتنفس الصعداء، وأن أطرد من ذهني كل صورة، كل خاطرة. ما يُصيبني هو انتحار بطيء. والحل الوحيد ان اطبق اجفاني. وأكزّ على أسناني، وأن أصبح شخصا مجردا، واغرق، رويدا في دعة السرير، وأنسى نفسي قطعة قطعة، محاولا بعناد أن امازج عتمة النوم.

خيال يجلس على كرسيّ، قبالتي، ساكنا، إنه خيال رجل. اغمضت عيني ثم فتحتهما. كان لا يزال هنا، صامتا وبين أصابع يده سيجارة مشتعلة. وبرغم العتمة، ربما لاحظ وجودي، فأحنى جذعه باتجاهي.

إنه محمد. وقبل أن أقول أي شيء نهض عن الكرسي وفتح الستائر فاجتاح الغرفة ضوء باهر، وهواء نقي.

– ماذا تفعل هنا؟

– أنت ماذا تفعل هنا؟

كان صوته يُجلجل في رأسي. لن يُرغمني أحد أو شيء في العالم على مغادرة سريري. دخلت سلوى بخفَر حاملة صينية كبيرة. وفيما همّت بالمغادرة، حرصت على ترتيب بعض ما وقع تحت يديها من همل وفوضى. خرجت من الغرفة و لم تغلق الباب وراءها، غير أن نسيما خفيفا هبَّ علينا

إثر خروجها. كان ابنا شقيقتي الصغيران، البنت والصبي، واقفين عند آخر الرواق، فأمرتهما بالمغادرة.

- في باريس كنت تنام على المرتبة سوية البلاط، وكنت أنام على المفرش ذي النوابض مُحتضنا عودي. وأمضينا الليلة على هذه الحال. كنت أحاول أن أغفو فيما كنت منهمكا في نظم قصيدة. قرأتها لي، فارتجلت لحنا لها فيما تقرأ. أذكر أنك كتبت:

وراح يُغني بصوته الرائق الخفيض.

- سجّلت هذه الأغنية فور عودتي إلى القاهرة. اشتريتها منك بخمسين قرشا.

رمقني بنظرات ثابتة. واشعل سيجارة أخرى.

- أتريد أن تبقى على قيد الحياة أم لا؟ لقد مضت سبعة أشهر.

وددت لو أجيبه غير أن الدموع غشيت عيني، فأشاح بوجهه عني.

- لقد هوجمت ووقفت بالمرصاد. ثم اخترت العزلة في بيتك. إني لا افهم، حقا.

أطفأ سيجارته.

- جئت لأراك وكنت لا ترغب في رؤية أحد. وكنت أعود كل يوم، أردت أن يمضي بعض الوقت لتهدأ، فتركت لك ما شئت من الوقت. و لم يتبدل شيء. ما عاد العالم موجودا في عينيك. هل أصابك انهيار عصبي. أهذا ما حصل؟ هيا، انهض وارتدِ ملابسك.

لم أحرك ساكنا وكانت شفتاه ترتجفان.

– سيقتلني الضجر. ألا تريد أن تنهض؟

أخبرني القصبجي أنها ستسافر غدا إلى المغرب. وسوف ترافقها الشلة إلى المطار. وأحسب أنك لو ذهبت من تلقاء نفسك ودون أن تفكر كثيرا في الأمر، فستكون فرحتها بك عظيمة، وتعود المياه إلى مجاريها.

لاحظ امتقاع لوني المفاجئ.

– لا أقصد أن أكون ملحاحا، فهذا شأنك أنت ولا أحد سواك.

مدّ لي يده، وكم كنت أود أن أخبره، لكنه انحنى مودّعا على وشك الرحيل. باستثناء شعرتين مبيضتين على صدغيه، أرى أن شيئا لم يتبدل في مظهره. فبالنسبة له أيضا تحققت نبوءة الشيخ أبو العلا، فقد أصبح أشهر الملحنين المصريين قاطبة. صحيح أن طموحه لجعل الموسيقى الشرقية على مستوى عالمي لم يتحقق، غير أن طموحه هذا أكسبه شهرة لا تضاهى في أرجاء العالم العربي بأسره. كان صوته لا يعرف هنّة أو حدًا، و لم يبق نوع إلا وعمل فيه. يُلحّنُ دون توقف محاولا تكييف الآلات الأجنبية مع الإيقاع الشرقي، فيخفق ويعاود المحاولة. وأصبح لقبه الجديد: "مطرب الأمراء والملوك". بقيت الحياة احتفالا متواصلا بالنسبة إليه. وعندما أدار ظهره لي وابتعد، أدركت كم أفتقد حيويته وانطلاقة وجنونه.

أقفل باب غرفتي مجددًا، وأُسدلت الستائر مجددًا، ورانت العتمة البائسة. ظننت لوهلة ما، أن زيارة محمد قد أراحتني بعض الشيء. ثم أدركت أنها إنما نكأت الجراح من جديد. امتلأت غرفتي بمشاهد الماضي الذي سبق القطيعة بيننا، أيام الهناء، عندما كانت تشدُّ على يدي قبل صعودها إلى المسرح، وترمُقني بنظرات رجاء، ثم تصافحني عند نزولها

من المسرح، مذهولة، جبينها المندّى، ووجهها الطافح عرفانًا كأنها تود أن ترمي في أحضاني. وأراها في دارها تُهدي القصبجي ربطة عنق مبقعة بالزيت تعقدُها حول عنقه زاعمة بكل رصانة، أنها آخر صيحة باريسية، مقهقهة حيال خجله، ومحاولاته لفك ربطة العنق شاتمًا متوعدًا. فتضحك وتضحك. كانت تلك المرأة بهجة أيامي ولياليَّ، طوال تسع سنوات. وإذا بالحنين يعتصر كياني. فقد أصبح فقدانها مؤلمًا لا يرحم. ما يفصلني عنها أشبه بسد منيع عصيّ على الفهم، تلك العبارات التي تلفّظنا بها حنقا وبات يستحيل التراجع عنها. ومرة أخرى راحت تفاصيل المشكلة تترى في رأسي، مسار شاق لا مخرج منه، قتل متواصل منذ أكثر من ثمانية أشهر. هناك قوى عمياء أفضت بالأمور إلى ما آلت إليه. كان محمد صديقي، وما زال. لقد برهن لي على وفائه، لكن الأمر فوق طاقتي واحتمالي.

وهي.. لا، عاودني الغضب، أشبه بحالة اختناق، أشبه بألم في المعدة، أشبه بالوتد ينغرز في لحمي. لقد تسلسلت الأحداث التي أفضت بي إلى الهاوية بدقة لا مثيل لها. كأنه القدر.

7

عاودتُ فتح الباب، وتوجهت خلسة نحو غرفتي. حاولت أن أُغادر البيت، ولم أستطع. سمعتُ سلوى تناديني، ولم أكد ألتفتُ نحوها حتى وجدتها بين ذراعي. كانت الدموع تملأ عينيها.

- ماذا، خبر سيئ؟
- لا، بل خبر جيد، قالت مبتسمة. لقد وصلتك رسالة من باريس.

ناولتني ورقة كتبت سطورها الآلة الكاتبة، وتأبطت ذراعي واقتادتني إلى صالة الاستقبال التي لم أدخلها منذ شهور. كانت الرسالة تقول: إن رابطة المؤلفين والملحنين العرب في فرنسا قد خصّصت لي منحة ومقدارها أربعون جنيها في الشهر. فهززتُ بكتفي.

نظرت إليَّ. ثم ضحكت بمرارة واستدارت لترتمي على الكنبة مولية لي ظهرها. جلستُ بجانبها، كانت تبكي.

- سلوى، لِمَ لَمْ تخبريني؟

سؤال بلا معنى. إذ لم يكن باستطاعة أحد أن يكلمني منذ وقت بعيد.

- كم بقي من الميراث؟
- الجنيهات القليلة التي تبقت منه أنفقناها منذ شهرين، على جنازة أمي.

كانت نبرتها غريبة بعض الشيء، جافة، كأن الكلام يلفظ من حنجرة يابسة. أذهلني الخبر. فمع ولدي شقيقتي الصغيرتين تكون هناك ستة أفواه يجب إطعامها. راتبي ما عاد يُعيلنا بسبب التضخم الذي أفقد العملة بعض قيمتها، وفي الأثناء لم أكتب قصيدة واحدة لأبيعها. كانت سلوى تتولى مصروف البيت، وتستعين بمبالغ من التركة الضئيلة التي ورثناها عن المرحوم أبي. لطالما عشنا في ستر أحوالنا المتواضعة. وفي غيابي أصبحنا فقراء.

- إني آسف.

فالتفتت نحوي بعنف وقالت:

– ما جدوى الأسف؟ ما الذي تقوله؟ انظر إلى يدي!

يداها. أظافر مكسورة، أصابع مجعّدة خشنة، لفرط ما عصرت مماسح البلاط.

– إنك لا ترى شيئا على الإطلاق! لقد جنتْ ثروة بفضلك، الملايين، وأنت ماذا جنيت، تدفع لك جنيهين أو ثلاثة، هذا إذا دفعت!

– اصمتي!

– لقد تجاهلت بخلها الموصوف، وحرتُ في أمرك، ماذا تصنع لها، المزيد ثم المزيد!

كان الكلام يتدافع على لسانها بحنق باد، كأنه أكبر من جسدها المكوَّم على طرف الكنبة، يهزه الانفعال، وقد شاخ قبل الأوان.

– ممالكي أعصابك. سأجد طريقة. وأرتب الأمور.

دفعتني بعنف، ورمقتني بنظرات جفاء.

– ليس لك أن تتدبر الأمر! لم تعرف يومًا كيف تتدبر الأمر. سأصارحك بما أعتقد. أعتقد أنك تزوجت من هذه المرأة سرًا، كما كتبت الصحف. أعتقد أنكما تزوجتما، وأنها تخلت عنك فيما بعد!

ما عاد شيء يوقفها عن الكلام.

– أنت ليّن معها أكثر مما ينبغي. حتى إنك لا تجرؤ على مطالبتها بالمال الذي تدين لك به، لقد طردتك كما تُطرد العشيقة، فانصرفتَ في بيتك إلى العزلة والبكاء.

كانت سترتي لا تزال على كتفي، وقبعتي "البيريه" على رأسي. فاتجهت كالمسترنم إلى الباب. لحقت بي ونادتني. لكني غادرت وصفقت الباب خلفي.

كانت الأنوار صُفرًا وبيضًا، تنعكس في بريقها على صفحة مياه النهر من الضفة المقابلة، وتلامس عينيّ. التماعات متهادية، وباقات من شجر النخيل، وظلال الفلوكة الماخرة، وإذا بالرتابة الإكزوتيكية تكتسي رقة وطول أناة. كنت حقا هناك، يُداعبني ذلك النسمُ الحار كأنه لفح مفاجئ. في داخلي نأت استغاثة الرجل المجروح، وسهوت. ما عدت أقوى على العذاب. لقد اعتمل هذا الحب فيّ طويلا، فاستنفد ألمي.

سرت على طول الرصيف. وانتبهت إلى أني أسلك طريق محطة الترامواي التي أسلكها، على عادتي كل يوم دون أن أنتبه. متنزهون ومارة مقبلون في اتجاهي ويمرون بي فأسمع ضحكاتهم وحفيف أثوابهم. جلابيات بيضاء، فساتين ملونة، ووعود. انعطفتُ فجأة ناحية اليمين وتوغلتُ سيرًا بين العمارات. سلكت شوارع أكثر انكفاء ووحشة، ورأيتُ غبار الصحراء ملتمعًا في وهج المصابيح واستعدتُ إحساسي بمادية المدينة، بواقعها المعدني المتواضع الذي يبقى بعد أن يزول كل شيء.

سلوى، كما أعرفها هذه طباعها تحامل لا يصده شيء، ديمومة عمياء وعنيدة. لا أستطيع أن ألومها. لقد أخفت عني الحقيقة طوال شهور، و لم يكن الأمر صعبًا عليها. وجدت أني مُنهمك بذاتي، وقد تغافلتُ عما

أرى أو أسمع. حتى إني بالكاد لاحظت احتضار أمي، وحين مشيت في جنازتها، كنت أشبه بالميت الحي.

احتقن وجهي بحرارة كأنها لفحته من داخل، واغرورقتْ عيناي، عاودتُ السير على غير هدى كمثل حياتي. كان ينبغي أن أعود إلى المنزل لأضع حدًا لكل هذا، غير أن الإحساس بالغياب ما زال مائلا في أعماقي، طاقة خفيَّة تستمر في دفعي إلى الأمام، مثل رغبة في السقوط.

رفعت عيني لأرى من حولي. أكواخ بائسة، أزقة معتمة، روائح المياه المبتذلة والمجاري الطافحة، فأدركت أن قدمي قد قادتني إلى ضواحي الحي الشعبي في إمبابة. تلفَّت من حولي في الجهات الأربع، فلم أجد ما تألفه عيناي. فقط العتمة التي كانت حجابًا لي. عُدت أدراجي متمهلا، فلم أجد في الأزقة التي سلكتها فروقًا تميز فيما بينها. توقفتُ مجددا، حائرا، وقد أنهكني التعب. اخترت اتجاها وسرت ظلا بين ظلال، غير أن الزقاق الذي اخترت سلوكه بدا بلا نهاية له، وجعلتْه الحفر الموزعة في أرجائه، أشبه بالوعر المتعرج بين بيوت اللبن المبنية كيفما اتفق. لكي تتعرف على ذاتها، ربما احتاجت نفسي المتحللة عربات القمامة تلك التي تجرها الحمير، ولا تظهر إلا في اللحظة الأخيرة، إذ تبرُق عيونها لدى مروري بمحاذاتها، بمحاذاة كل هذا البؤس. ما من أنوار، اللهم إلا تلك الأضواء الخافتة المنبعثة من قناديل الجاز داخل البيوت. أسيرُ ولا ألتفت إلى نظرات الفضول التي ترمُقني، والأحاديث الموقوفة فجأة، وصخب الأولاد في الظلام. أدركت أنني، هذه المرة قد ضللت طريقي بالفعل، أدنو

من الصبية لأسألهم عن الطريق، فيهربون متراكضين، ثم يتوقفون بعيدا لمراقبتي. ورحت أدور مجدَّدًا حول نفسي. كانت السماء منقشعة صافية فوق هذا البؤس الخالص. وظهر فيها هلال قمر لامع. كانت تقول: أحب القمر في ابتدائه، أحب كل ما له مستقبل. ولمحت في الأفق بصيصًا، أنوار القاهرة من بعيد، فأوليْتها ظهري. مكثت هنيهات مودعًا، ثم سلكت الاتجاه الصحيح، ولكن.. أهو الاتجاه الصحيح حقا؟ الأزقة تُفضي إلى ازقة أخرى، أشد إعتاما. وكان سيري فيها يتبع المصادفة فلا أرى شيئا لا عن يميني ولا عن يساري. والرجال الذين ألتقيهم يبدون كالأشباح، فلا أجرؤ على الاقتراب منهم. ثم إن اقتربت ماذا أقول لهم؟ أرجوك قل لي يا سيد: كيف السبيل للخروج من هنا؟ فلا بد أنهم، هم أيضا يطرحون مثل هذا السؤال على أنفسهم.

أرعبني اتساع ضاحية البؤس، كأنها تؤلول متوالد في جنبة الحارة الفقيرة هي أيضًا، مشهد لعار لا تشير إليه خارطة. لم أكن أعلم أنها موجودة أصلا ومتى نبتت وتعاظمت. كنت قد قرأت مثل سواي؛ أن عدد سكان القاهرة قد تضاعف خلال سنوات، وأن الهجرة من الريف قد تفاقمت مع بروز الأزمة، ولكني ما كنت لأتخيل ما رأيت. هذا المقدار من كثافة الشتاء الذي ليس بعده رجاء، هذا العدد الهائل من الناس المكوّمين بعضهم فوق البعض الآخر، يخوضون في ظلام ليس منه نجاة.

رُفع أذان صلاة العشاء. ولم يكن صوت المؤذن رخيمًا أو مطمئنًا. بل صوت أجش، مضمَّخ بالعنف، لا يُنشد آيات الكتاب القدسي، بل يُطلقها صراخًا مثل الوعيد. وما لبثت أعداد من الرجال أن خرجت جماعات

من أوكار النمل تلك، واجتمعت في حشد يسير في نفس الاتجاه الذي أسلكه.

افضى بنا السير إلى أرض بور، كان الحشد قد بدأ يجتمع فيها. وعلت تمتمات صلاة الجماعة، وترددت في أصداء الليل. توقفت.. كان الجامع (أو يقوم مقامه) منزلا من طبقتين عند طرف الساحة، تنيره مشاعل مثبتة في جدرانه. وعلى الشرفة وقف إمام وقد شرع في خطبته:

– ونحن، صرخ قائلا، لا نملك إلا هذه الدماء التي تجري في عروقنا. والتي تغلي في عروقنا، إلا هذه النفس المتألقة إيمانًا وكرامة، إلا أن هذه الحياة، وتلك القروش القليلة التي نستقوي بها على جوع أولادنا! لا نعرف ماذا نفعل، ولمن نتوجّه!

كان الحشد يجيبه بموجةٍ من التكبير، تتردد موقَّعة فتطغى على صوت الخطيب. الله أكبر. الله أكبر.

– هنا في هذه البلاد، لا حظَّ للعرب وللمسلمين بمكانة أو بكرامة. وهم لا يفعلون شيئا لوضع حد نهائي لعملهم كأجراء تحت رحمة الإنجليز وسواهم من الأجانب!

علت صرخات تكبير قاطعت خطبته مجددا. وكان وهج المشاعل ينعكس على الوجوه بوتائر متباعدة.

– بأي عُجب وأي غيظ معتمل نرى المتبطِّلين يسترخون في المقاهي ويحتشدون في صالات اللهو. من هم هؤلاء؟ هل هم مصريون مثلنا. هل هم عرب، هل هم مسلمون! هل فئة مثقفة ومن شأنها أن تكون أكثر قدرة منا على الاضطلاع بهذه المهمة. لكنها

لا تفعل لشدة ما يفتنها الغرب، ويُثير فيها الرغبة الهوجاء في تقليد النمط الغربي في العيش والملابس. لم يبق لهم في الحياة سوى شاغل وحيد: قتل الوقت!

راح المصلّون يرمقونني بنظرات غريبة. ربطة العنق، والبدلة والبيريه. كانت جلابيّاتهم الرثّة تشير بوضوح إلى الأمكنة التي قدموا منها، هم الفلاحون الذين رمت بهم الأقدار وسط هذه الملغمة المستغلقة، وسط أرض اللا أحد هذه. ابتعدوا عني دونما قصد، تلقائيًا، فوجدت أني وسط دائرة فارغة، يُحيط بها الحشد. وأحسست بالعداء المكتوم، وشعرت بالخوف. سارعت، دون تفكير، إلى الاستدارة رغبة في مغادرة المكان. فانشقّت الكتلة البشرية أمامي، وكأنهم يُخلون الطريق أمامي في الوجهة الصحيحة. إذ لا جدوى من وجود واحد مثلي في هذا المكان. سرت قُدُمًا وسط كوكبة من الوجوه المعادية، وسمعت في طريقي عددًا من التعليقات المُحرجة لكن أرغمتُ نفسي على التمُّهل. الجسم الصفيق يلفظُني تقززًا وأحسست أن أية بادرة مني مهما كانت، ستدفعهم إلى اتخاذ موقف معاكس فتنغلق الدائرة من حولي مجددًا.

أخيرا، غادرت المكان وحثثت خُطاي، لا بل ركضت، دافعًا الناس الذين ينظرون إليّ. كنت أرتعد كفريسة. المدينة في ذلك الاتجاه، كان حدس كاليقين يدلّني، كان جسدي يدلني. آخر الأمر.. أوصلتني قدماي إلى القطاع الذي يحظى بالإنارة الأميرية. وهناك، أمام أحد المنازل، بل أمام آخر المنازل، صادفت نحو عشرين رجلا يقتعدون الأرض، لا يُرى منهم في الظلام سوى بياض عيونهم، تمهَّلت في سيري دونما قصد.

إنها الشُحن إياها، تلك التي صادفتها أمام المسجد، إنهم الفلاحون إياهم. يجلسون سوية الأرض، ويستمعون إلى موسيقى تندلق من النوافذ المفتوحة، من بُحّة "الغراموفون" المعهودة. وكان الصوت الذي جمعهم صوت فلاحتي. والقصيدة التي تنشدها هي قصيدتي. "جنة نعيمي في هواك".

أدخلت المفتاح في القفل، وإذا بسلوى تفتح الباب في نفس اللحظة:

– محمد والقصبجي هنا.

أحكمت قبضتي معتصرًا قُبعتي البيريه، وتبعتها إلى صالة الاستقبال. وتظاهر صديقاي بأن ما رأياه من شحوبي، ورثاثة مظهري ليس سوى أمرٍ عادي. وعانقاني، كلٌ بدوره. وفي الأثناء غادرت سلوى الحجرة. ومكثنا نحن الثلاثة جالسين في شبه حلقة. وأخيرًا قرر محمد أن يكون البادئ في الكلام.

– لقد جئنا لأن لديَّ ما أقترحه عليك.

– عادت سلوى حاملة صينية الشاي، التي وضعتها على السكمُلة.

– منذ ثلاثة أشهر، أردف قائلا، وأنا منهمك في الإعداد لفيلم: الوردة البيضاء. إنه فيلم استعراضي غنائي، ونحتاج فيه لأغنيات قصيرة تناسب الأحداث التي تتخلله ويمكن تمثيلها. كما هي الحال في الكوميديّات الاستعراضية الأميركية، ولكن باللغة العربية. وسيكون الأجر أكثر من جيد.

رمقتُ سلوى بنظرات حنق، فأطرقتْ.

– أين كنت؟ سألت وسط الصمت المطبق.

- في .. ضاحية إمبابة.
- معقل الإخوان المسلمين، قال القصبجي.

نظرت إليه دون أن أفهم.

- ماذا تقول بشأن الفيلم؟ سأل محمد.
- لا أدري.. قلت بعد تردد. سوف نرى.

و لم أدر ماذا أقول بعد. نهضت، فنهضا بدورهما. ولبثا واقفين وقد بدا عليهما بعض الارتباك.

- هناك أمر آخر، تمتم القصبجي قائلا بصوت يكاد يكون غير مسموع.
- ماذا؟
- نجمتك، إنها تريد أن تراك.
- هل هي التي قالت لك؟
- المسألة اليوم تختلف.
- لمَ؟
- لأنها نزيلة المستشفى. يجب أن تخضع لجراحة، صباح الغد.
- وبعد؟
- سوف تحتاج لأن تخدَّر ببنج عمومي.

لم أتردد لحظة واحدة، اعتمرت البيريه مجددا وغادرت.

8

استطاع القصبجي أن يعيق الممرضة التي حاولت اعتراضي. وأغلق الباب ورائي. تقدمتُ فوق بلاط الأرضية العاري. ليس هناك سوى سرير مستشفى بين أربعة جدران، وشكل ما مُستلقٍ عليه، أبيض فوق أبيض. فتحتْ عينيها لترى وجهي منحنيًا عليها. بكَت دون أن تقول كلمة، على الفور، أجشهتْ بالبكاء، وبكيتُ معها. مضت بضع دقائق دون أن يتمكن واحدنا من التلفُّظ بكلمة. وعلى سريرها المعدني طلبتْ أن أغفر لها، سألتني الغفران. فوضعت راحة كفي على فمها.

– ما فات مات. لقد نسيته.

– أتعتقد أن الجراحة خطيرة؟

– في غضون خمسة أيام ستقفين على رجليك مجددًا.

امسكتْ بيدي وشدت عليها بعصبية.

– أتعتقد ذلك بالفعل؟ هل أنت واثق مما تقول؟ وأنت.. ألست غاضبًا مني؟

– إني واثق مما أقول. ولست غاضبا منك. ومن الآن فصاعدًا ستصطلح الأمور وتصبح أفضل.

كانت عباراتي تلك تجرح حلقي فيما ألفظها، لكني قلتها. مسحتْ دموعها وتمخطتْ. صدّقت كلامي. راحت تضحك دون أن تتوقف على البكاء.

- أريدك أن تفهم، أنت بالذات. نحن خلق الله، وإليه نعود. لست خائفة. لقد وهبني الله هذا الصوت، وهو كل ما أعطاني. ولو لثانية واحدة، كحب مطلق، أحملُ قصيدتك في دمي. أنا والقصيدة واحد. أتفهمني؟
- أجل.
- حياتي بدأت بالقرآن، هذا هو السبب. من يتلو كلام الله يقف وقفة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. إنه يقف وشفتاه تتلوان كلاما أنزلته مشيئة سماوية علية. لقد تلوت وعلمتني التلاوة هاجس الدقة. هاجس يستبد بك حتى الألم. تقبّل مني هذا الغدر على الأقل: إن أنانيتي ليست هي التي تحكم تصرفاتي، كما أنّي لا أستمتع بإهانة أحد.

تقبّلت وواسيت، وقلت لها: إني أصدقها، وليكن ما تشاء. كأني أستعيدُ ذاتي. غير أن قسوة ما أستشعرها في أعماقي. أمرًا ما لا يلين بالمواساة، في أعماق القلب، شيئا ما، لا يزال مستغلقًا.

شعرتُ بذلك، ولم يفارقها هذا الشعور، حتى بعد الجراحة، وبعد مغادرتها المستشفى. هذا الإحساس بأني أرفضها. هذا الأمر الصلب مثل كرة رصاص، في داخلي، والذي لا يلين.

ضبط مدير الراديو الميكروفون بموازاة شفتي نجمتي، واثقا من نفسه، أرستوقراطي الأداء، غير أن أصابعه ترتعد من شدة الانفعال، نظرتُ إليّ طويلا.. ولاحظتُ خوفها.

– سوف أعطيكِ الإشارة، قال.

وغادر المكان. لم يعد أمامها سواي أنا. كانتْ طلبتْ مني أن أرافقها لهذا السبب، لكي أكون هناك جالسًا على بُعد أمتار منها، جمهورها الوحيد. كان القصبجي والشوّا والعقاد جالسين خلفها. ثوب السهرة الذي ارتدته للمناسبة كان لي أنا وحدي، عيناها العميقتان، وقامتها التي من حرير أخضر. خلف واجهة الزجاج، جلس مدير الاستديو وسط العاملين الفنيّين. ثم رفع إصبعه وعدَّ الثواني. ثم أضيء نور أحمر.

فأطلقتْ صوتها المترجج بإيقاع. الفاتحة، أولى سور القرآن موطنها الأصلي من حيث تحدرت بنفس متماد، لا إله إلا الله، مطبقة الأجفان. لم تفتح أجفانها إلا بعد تلاوتها الكلمة الأخيرة، حينئذ نظرت نحوي حائرة والخوف يملأ عينيها. فهززتُ رأسي أمارة رضاء عميق. كنا نتحدث اللغة نفسها ورأيت وجهها يستعيد صفاءه، وابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيها.

باشر القصبجي عزْفه على العود، فانطلقت أولى أنغام "بلادي" النشيد الوطني، القصبجي منفردا مذهلا حتى في عزفه نشيدًا عسكريًا. ثم سرعان ما صاحبته الكمنجة والقانون والطبلة، ومعها صوت فلاحتي: "بلادي، بلادي لكِ حبي وفؤادي.." وأنهت النشيد مبتسمة. لقد جرت الأمور على أحسن ما يكون، وها هي قد افتتحت (صوت القاهرة) الإذاعة الوحيدة التي يمكن سماعها حتى حدود السودان وبلدان الشرق الأدنى،

وفي مصر كلها، وللمرة الأولى، وبصوتها.

حمل العازفون آلاتهم مجددا: "يا آسي الحي"(*)؛ كنتُ نظمْتها منذ زمن بعيد، ولحنها الشيخ أبو العلا، كانت ترمقني بنظرات تقول: أتُرى، أنا لا انسى شيئا، بل أستعيدُ الأمور من بداياتها. "يا آسي الحي هل فتشت في كبدي / وهل تبينَ داء في زواياها.." تنبّهت إلى صدودي. فأصبح صوتُها متوسلا، وتوقدت عيناها كأنهما أدركتا أن هناك ما يعاندهما، وينبغي أن يلين. غير أني لا أستطيع، وكان عليّ أن أحمي نفسي.

وغنت: "يوم الهنا حبّي صفا لي / بعد الجفا والأسيّة". كانت تلك أمسيتي. فقد كنت صاحب هذه القصيدة أيضا ولحنها داود حسني. وراحت تنشدها بإحساس مخيف، وكأن خلف الصوت ضحكات مكتومة.

"يا اللي أنت جنبي" "جنة نعيمي في هواك"، كأنها تنتقي بدقة كل عبارة لتقولها لي. تستعيد محطات قصتنا من البداية، ونمو المشاعر فيما بيننا. والأمر لا يتعلق فقط بالماضي، ففي اللحظة بالذات، تستلُّ الأبيات من جسدي وتطلقها عبر الأثير، وعيناها تخاطبانني. في المقابل، كنت أشعرُ بدوار الهاوية السحيقة، تلك الأعداد الهائلة من المستمعين الذين لا أراهم، وصداهم المذهل. كنت أعاند نجمتي، وكانت نجمتي ترفع التحدي، فتشركني في تلك الثمالة التي استبدت بها، خطوة راقصة مع شعب بأسره، وقصة حب ذاعت في البلاد، مكتوبة بكلماتي ومغنّاة بصوتها.

(*) هذه القصيدة من تأليف إسماعيل صبري باشا.

أمـا المفـاجـأة المؤثرة، فقد احتفظتْ بها للختام. أشارت بيدها إلى القصبجي الذي رمقني بنظرات حبور، ولمحتُ في عينيه لذته العارمة في مفاجأتي. "أخذت صوتك من روحي" القصـيدة التي أثارت الخلاف فيما بيننـا، غنتهـا هناك لأجلي، في افتتـاح صـوت القاهرة، وفي وجـه العـالم بأسره.

في تـلك الأمسية وصـل صوتها إلى ملايين الناس. كثيرون منهم كانوا يسمعونها للمرة الأولى. فقد قلب صوت القاهـرة نمط حياتنا رأسًا على عقب. حتى ذلك الوقت، لم نحظ إلا بإذاعات محلية، ويكفي أن تُدير زر المذياع في أية لحظة لتسمع الموسيقى ونشرات الأخبار. طبعا لم يكن الجميع يملكون أجهزة، ولكن يبقى أن يقصـد المرء أحد المقاهي، وهناك بثمن كوب شاي بإمكانه أن يستمع إلى آخر اسـطوانة أصـدرهـا محمد أو أسـمهان أو أبـو العـلا، يبثها مذيـاع يتصدر صـالة المقهى، ولا يكفُّ عن البـث ليلا ونهارا. حتى إن إحـدى الفقـرات الإذاعيـة كانت تُعـرف بـ "ما يطلبه المستمعون".

عمدت الإذاعة الجديدة إلى بثّ مباشر للحفلة التي تقيمها نجمتي أول يوم خميس من كل شهر. وفي موعدها تغصُّ المقاهي بالناس، فتغلق علب ألعاب النرد، وتُخلى الطاولات، فتتحول الردهات العابقة بالدخان إلى مسارح صغيرة، وينتشر صوتها، في تلك الأجواء الخانقة، وسط النراجيل، بين أولئك الرجال المنتشرين في أرجاء المدينة، والدلتا، على طول شاطئ وادي النيل.

طبعا.. بلغني ذلك على لسان آخرين، لأني ساعة الحفلة الغنائية ينبغي أن أكون لا محالة، جالسا في الصف الأمامي تحت ناظريها، متألقة على المسرح، فما عاد أحد يُظلل حضورها. أصبحت عريضة الكتفين، ما يكفي للتحكم في أمداء النفس، ولُعب هذا الدور، كانت تمد يدها بمنديلها، وتسر في أذن كل مصري الأنشودة اللامتناهية لعذاب الحب. أغانيها تجوب البيوت والشوارع، وتجوب الفضاء الطلق. فقد استطاعت – تلك الفلاحة الصغيرة – أن تجعل البلاد بأسرها تحيا في مناخ صوتها.

كنت أنتحي ركنا في الظل، وتنمُّل خفيف يسري في رأسي. فالمنافسة التي أوجدها الراديو تسبب الكثير من المآسي. الفرق الموسيقية تسرّح عازفيها، والمسارح تُعلن إفلاسها، وباتت الأبواب موصدة في وجه الوافدين الجدد والمجهولين. ولحسن الحظ أنني كنت موظفًا في المكتبة الوطنية.

لم أتقاض عن قصائدي أكثر مما كنت أتقاضاه من قبل. وبرغم ما قالته لي سلوى، لم أرد أن اطلب شيئا، فحتى الآن، ما زلت أتدبر أموري بفضل "الوردة البيضاء" فيلم محمد، كنت أصرف نصف أوقاتي في توفير المال الذي يعيننا على تدبر أمورنا حتى نهايات الشهر، أما النصف الآخر فأمضيه متتبعا خطواتها كيفما ذهبت أو حلّت. كنت أعد قروشي بقلق فيما تظهر صورتي في الصحافة بانتظام. لقد أصابت فلاحتي حين قالت

إن شعوري قد دخل إلى أصغر زقاق أو بلدة. كنت مُفلسًا، ولكني على أبواب الشهرة.

أصبحت عاجزا عن الابتعاد عن هذه المرأة. أعلم ذلك. ولكني لا أمنّي النفس بأي رجاء. لقد تألمت كثيرا. نجاحها يحملها إلى ما فوق السحاب، وأنا إلى جانبها، أكتب لها، وهذا يكفي، كانت تغني أمامي، تبذل نفسها لأن مقاومتي لها تأثيرها. وأقرأ في عينيها أنها لن تكف عن محاولاتها كيما أستسلم، وذات يوم سألتها صحفية إذاعية عما أكون بالنسبة إليها، فقالت: "إنه شاعري يحترق ليُنير طريقي".

9

تعلمتُ من تجربتي كيف أجتنب الإشراك فلا أقع فيها. لقد وعدت، لقد نسيتني، وها أنت تُهملني. أنتظر ريثما تنهي كلامها. موقفي السلبي هو حصني الوحيد، ثم أبدي لها بعض اللِّين. تعلم أني أكذب، ولكن لا حول بها. كل انكسار في عينيها انتصار لي. لا أشعر بالاطمئنان إلا برفقتك إلا معك، إلا معك .. ليست غاضبة مني، ولا تريد شيئا مني إنها تنتظر فقط اللحظة التي ألين فيها. كنت أصد كل محاولة منها للتقرب مني، لائذًا بالحائط سندا، مسألة حياة أو موت. فتعاود المحاولة، من حيث بدأت القطيعة، لا، بل أبعد فأبعد مما أرادت، وما كنت أريد.

ربما كنت أكذب، لكني لم أمثّل. ليس بوسعي أن أستسلم ومقاومتي تغتذي من حبي الحقيقي الثابت من المقاومة التي توازيه صلابة.

ثم راحت تستشيرني في كل شيء، في تنظيم حفلة، أو طبع اسطوانة، أو الثوب الذي ينبغي أن ترتديه لأي مناسبة.

– ما رأيك؟ أتعتقد أنه ينبغي أن ألعب دورًا في فيلم؟

ومثل هذه المسألة لا تخلو من خطورة بيننا. فقد أصبح محمد ملك السينما. ولاقى فيلم "الوردة البيضاء" نجاحا منقطع النظير، وأنا شخصيا ألفت كل أغانيه. وبيع الفيلم للمغرب والعراق، مرورا بلبنان، ونجح في نصدير اللهجة المصرية إلى أرجاء العالم العربي.

– لا رأي لك؟

– لا.

وبذلك أتعمّد حرمانها من كل الذرائع التي أعدتْها لمناقشتي. والمرة الأخيرة التي سمعتها تتكلم عن السينما، أردَفتها بقسم، أنها لن تزاولها على الإطلاق. غير أني حدست بما ترغب فيه، السينما: الثمرة المحرمة.

– لقد عُرِضَ عليَّ دور ..

سمعت ما قالت بالحياد الذي أمكنني التظاهر به.

– أي دور؟

كأنها انتظرت جوابي هذا بلهفة كبيرة. فهرعتْ إلى حجرتها وجاءت بملف أزرق. كان خلاصة سيناريو قصة لائقة، جيدة، كأنها تستبق الدفاع عن نفسها، وكأنني أتهم. كأنها تطلب مني إذنا لأدائه. تدور أحداث القصة في عهد المماليك، حيث الفتاة "وداد" محظية أحد الأسياد. هو مُولع

بها وهي تحبه. قلبه طاهر وهي تغني له. ولشدة شغفه بصوتها يُكرِّس لها ثروته. وعندما ينفق ما لديه ولا يبقي شيئا، يرفض أن يبيعها. أما هي فتُصر على ذلك. وحين تُعرض في سوق الرقيق، لا يؤخذ العجوز الذي يبتاعها بجمال جسمها، بل بغنائها. ويدرك مقدار حزنها ويعيدها إلى حبيبها.

- إن فهمتُ جيدا، فهي تدمر حياة الرجال بكل براءة.
- أجل.
- وهل يحل الصوت محل الجنس.
- لم لا؟
- إذًا هو المطلوب؟
- هل توافق على كتابة السيناريو والحوار.
- لن أعجز عن مثل هذا الأمر.

انكببت على هذا العمل، فاستغرق كل أوقاتي. في الظاهر، كنت أتبع ملخص السيناريو بأمانة. "وداد" الفتاة العفيفة والمحبة، تبذل نفسها مغمضة العينين. وخلال إغماضة العين تسبب الكوارث. كتبت وهي الجارية، عن إرادة المُلك لديها، عن شذوذها، وعن طغيانها. باختصار: كتبت الفكرة كما أريد، على طريقتي.

حول طاولة مستديرة، كان المنتجون يُدققون في النص صفحة تلو الأخرى. أمر واحد كان يستوقفهم: أن السيناريو لا يلحظ وجود قُبلة واحدة، وهذه القبلة ضرورية.

- يحتضنني شريكي ين ذراعيه، ويضمني إلى صدره، قالت. هذا أقصى ما أستطيع.
- الفيلم من دون قُبلة ليس فيلمًا.
- في المشهد حول حوض الماء، أغني، فيأتي ليجلس ورائي فألتصق به. هذا كل شيء، لن تكون هناك قُبلة.
- لا قُبلة يعني لا فيلم.
- أقترح ما يلي: يُدْني شفتيه من شفتي، ويقطع المشهد قبل أن تتلامس. وهذا كل ما أستطيع أن أفعله.

وافق المنتجون وانتقلوا إلى مشهد راقصات هز البطن. وتم التوصل إلى تسوية بهذا الشأن. إذ ينبغي أن تُستر بطون الراقصات حين تظهر نجمتي في المشهد، وبإمكانهن أن يتعرّين من ستورهن حين تغادر المشهد. وتواصلت المفاوضات على هذا المنوال، خطوة خطوة، وطيلة أربع ساعات. وفي الختام، أصرت أن تلحق تفاصيل الاتفاق بالعقد الرسمي تحت بند: "احترام التقاليد الشرقية". أما البنود الأخرى فتضمن لها نسبة % 40 من أرباح الفيلم، ومقدمًا مقداره خمسة آلاف جنيه، وحق (النقض) حيال شريكها في العمل، وبقية الممثلين والموسيقى وكلمات الأغاني.

عُرض فيلم "وداد" خلال مهرجان فينيسيا، ودرَّ عليهما أموالا طائلة. وكانت تلك المرة الأولى فعلا، التي تكسب فيها هذه المبالغ من المال.

اصطحبتني في نزهة على ضفاف النيل، دون أن تنبس بكلمة، حتى بلغنا جزيرة الزمالك حيث تقيم منيرة. وتوقفتْ أمام قطعة أرض بور في شارع أبو الفدا.

– انظر هذه أرضي. لقد اشتريتها لتوّي.

وظّفتْ كل ما تملكه في هذا المكان وسط القاهرة، أرض الوفادة، أمارة النجاح الباهرة. خلعت نعليها وخوّضت في تراب الأرض. راقبتُ مشيتها، كأن قدميها الحافيتين تستعيدان مشية مناسبة، غبطة بريّة. شعرت بأنها ما عادت منفية، لقد عادت.

تغيرت. في كل صباح تقصد الورشة بحجة أنها تراقب الأشغال عن كثب. كانت تلمس التراب بيديها وترفع راحتيها وتشمه، كانت تجول بين البنائين، وتحشر أنفها في أدق تفاصيل البناء. لقد عاشت نحو عشر سنوات في شقة في الطابق الرابع من إحدى العمارات، وها هي تعيد صلاتها بالشيء الوحيد الذي يكتسب قيمة في نظر الفلاحين، كأنها تستعيد جذورها المفقودة.

كنت قد نسيت تقريبا الشيخ خالد لكنه ظهر مجددا حاملا تصاميم البناء. هجر العمامة والجبة، وارتدى البدلة وربطة العنق. فقد أصبح تمويل المشروع رسميا في يده، غير أن قرشًا واحدًا لا يُصرف دون موافقة شقيقته. أما سعدية فكانت الأشد حماسة لمثل هذا المشروع، تتبع مخدومتها كظلها في الأروقة والممرات وتردد أوامرها، وتوبخ البنائين، وتندهش، وتُبسمل عند الحاجة لاتّقاء "صيبة العين". وكان القصبجي يسخر منها ويقول إن "الأرض ليست سوى ملك لله وينبغي التنبُّه للعفاريت المقيمة في الأساسات". كانت تمشي.

اصبحت ورشة شارع أبو الفدا مكانا على الموضة. وأقامت فلاحتي بورية على أطرافه. تجتمع فيها كل ليلة القصبجي والشيخ زكريا وعازفون اخرون يحضرون معهم آلاتهم. ومن بينهم أيضا الملحن المبتدئ السنباطي، كان لحن إحدى قصائد فيلم "وداد": "على بلد المحبوب ودّيني.." وقد لاقت هذه الأغنية نجاحا مذهلا. كان رجلا متحفظا، حليق الذقن، أنيق المظهر. بدأ حياته الموسيقية بتلحين الأدعية للذاهبين إلى الحج في مكة. وها هو أصبح مدعوًّا، معنا إلى سهرة البورية.

كنا نمكث هناك، بعد رحيل العمال، لسماع الموسيقى، وفي بعض الأحيان كانت تغني مظلّلة بسماء معتمة، فأغمض عيني ويستغرق صوتها الليل. كانت تبني بيتها أخيرا.. كانت في الرابعة والثلاثين.

ذات يوم كانت الفيلا قد شُيِّدت أو (شُطِّبت) كما يقول المعماريون. ابيض سُكري وأزرق، صالتا استقبال في الطابق الأرضي، وثماني غرف في الطابق العلوي، وشرفة مطلة على النيل، وحديقة فسيحة الأرجاء محصّنة بسور. زرناها سويا، هي وأنا؛ غرفة غرفة ورائحة الطلاء والغراء. كانت تتقدمني ربما لكي تقنع نفسها أن ما نراه هو بيتها حقا. تصلّب اصابعها لكي تطرد المحرّم. أنهكتنا الزيارة معا، وما إن هممنا بالمغادرة لامست كتفي:

– ليلة الافتتاح أريد أن تكون عند المدخل، معنا أنا وخالد، لاستقبال الضيوف.

طلبتْ مني ذلك على عجل دون أن يتورَّد خداها. لقد بنيت بيتي وأريدك أن تكون هنا، فقط أن تكون هنا، بجانبي. وفجأة استحالت الكرةُ في حلقي مُرًّا سائلا، لا بل استحالت سقامًا. ووضعت راحتها على فمي.

الفيلا مُنارة مهيَّأة للاستقبال، كنت أصافح الأيدي التي تمتد لمصافحتي كُتاب، ملحنون، سينمائيون، رجال سياسة، شعراء. وكانت العيون تخفي دهشتها لرؤيتي هناك. الجميع: منيرة المهدية التي أنهت للتو تصوير فيلمها "الغندورة" والملحن العجوز داود حسني وبرفقته اكتشافه الجديد "أسمهان" ومعهم القصبجي والشيخ زكريا، وحتى محمد.

سعدية تمارس سلطانها في المطبخ، ونُدُل بقمصان بيض يقدمون للمدعوين أكواب عصير الفواكه. اختلطنا بالمدعوين، هكذا تلقائيًا كأننا نأتمر بشارات غير مرئية، وأصبحت مُحاطا بالمدعوين: أصحاب شركات اسطوانات، مديرى برامج وصحافيين. منذ أشهر طويلة، حرصت الصحافة على اجتناب أي خبر يُشهر بي. فقد بسطت كوكب الشرق سترها الواقي فوق رأسي، وأصبحت معصومًا. أناس كانوا يتجاهلون وجودي منذ أيام، أصبحوا الآن يمدون أيديهم لمصافحتي دون أن انتبه. وكنت أتقبَّل هذه التفاهات بابتسامات متواضعة، ولكن في أعماقي، كنت أود أن أبصق عليهم، هم الذين طالما سخروا من حبي لها.

ما كانوا يستشعرونه، كنت أشعر به أنا أيضا. ففي اختبار البوكر الكاذب الذي واجهتها أو واجهتني به، شاءت أن تنسحب. ما عادت لتغش، فهذه الليلة تعاملني بوصفي سيد الدار.

10

كانت الإذاعة تبث موسيقى عسكرية طوال صبيحة ذلك النهار. وعند الظهر بثت الخبر: لقد توفى الملك فؤاد عند منتصف الليل.

أعداد قليلة من الناس تتعاطف مع الملك، غير أن وفاته جاءت في أسوأ الظروف. فخلال الأسبوع الماضي اجتاح القاهرة متظاهرون في ملابس رثّة، يهتفون ضد الجوع، لأن المُقتلعين يعدون بالملايين. وثمة انتخابات عامة أُعلن عن إجرائها يوم السبت التالي، أي في غضون خمسة أيام. كانت المعارضة، من علمانيين وإسلاميين، تستهدف الإنجليز الذين يحتلون الثُكن في المدن وفي منطقة قناة السويس، والذين يفرضون إرادتهم على سياسة البلاد. لذا فإن وفاة الملك فؤاد من شأنها أن تفجّر بركانا. وولي العهد فاروق لم يجاوز السادسة عشرة من عمره.

في ساعة متأخرة من بعد الظهر، اتصلتْ بي هاتفيا في المكتبة الوطنية.

– هناك موفدان من القصر في الفيلا، أتصل بك من حجرة مجاورة. لقد قرروا القيام باحتفال التتويج في أسرع وقت. ويريدون أن أغني للمناسبة. فماذا أفعل؟

– سيخسرون الانتخابات .. إذا حصلت.

– أعلم، ولكن ماذا أقول لهم؟

– قولي: إنك تحتاجين ليوم من التفكير في الأمر.

- سيحسبونها إهانة.

واقفلت الخط. و لم تُعِد الاتصال. عند السادسة مساء، اتصلتُ بها قبل أن أغادر مركز عملي. لم تكن موجودة.

وفي اليوم التالي اتصلتُ بها أيضا و لم تكن موجودة. و لم يصلني منها علم أو خبر. غير أن إحدى صحف المساء نشرت صورة لها وهي تترجّل من سيارة رسمية عند باب القصر.

تحسّبت المعارضة لحدوث تجاوزات، فأطلق زعماؤها نداء تهدئة. فحبس البلد أنفاسه. و لم يحصل ما يُعكر صفو الأمن. وكان من المقرر أن يدفن الملك فؤاد يوم الأربعاء في احتفال رسمي حاشد، على أن يبقى الملوك ورؤساء الدول العشرة الذين سُيشاركون في الدفن إلى اليوم التالي الذي سيشهد تتويج ولي العهد.

خطر ببالي أن أتابع الاحتفال عبر الإذاعة، في بيتي بصحبة سلوى. كان الاحتفال نسخة عما يجري، في هذه المناسبات، في البلاط البريطاني. في قاعة العرش، رفع الأمير يده وأقسم اليمين.

بدت يده مرتعشة لهُنيهة، غير أن صوته المراهق ما لبث أن أصبح واثقًا تدريجا. الله، الشعب، الوطن، وقُضي الأمر. دوت إحدى وعشرون طلقة مدفعية، ثم انفجارات أخرى، كان مصدرها الألعاب النارية التي أُطلقت للمناسبة.

وسط هذا الضجيج، علا صوت فلاحتي بالغناء. "المُلْكُ بين يديك" عرفت الكلام إنه لأحمد شوقي. كانت تغني أمير الشعراء، أكبر المتحمسين لمحمد، للمرة الأولى. "المُلْكُ بين يديك في إقباله عوّذت

ملكك بالنبي وآله.." أُصغي لابتسامتها العريضة. لا بد أن اللحن للسنباطي. ليس للقصبجي أو للشيخ زكريا، وإلا لعرفت منهما. شوقي المؤلف، والسنباطي الملحن، ما يعني أني خارج المسألة.

قرعتُ الجرس من خلف السياج. رمقتني عينان من كوّة فيه، لم أتعرف إلى الوجه. فعرَّفت عن نفسي. فُتح الباب دون صرير. ورافقني أحدهم إلى صالة الاستقبال الأولى. لم يكن أحد هناك، كل هذا الأثاث الأوروبي، كأنها صالة عرض. جاء نادل في بدلته وقدم لي الشاي. فسألته إذا كانت سعدية في الجوار، فبشَّ لي وجهه. إن سألت عن سعدية فهذا يعني أنني من أهل البيت، فخلع قناع الخدمة عن وجهه وأسرَّ إليَّ أنه في الأصل من "طماي الزهايرة" وأنه قريب لها، بعيد، قد استقدمته مع أكثر من دزينة من أبناء عائلته، وأنه للمرة الأولى يكتشف القاهرة. أما السيدة فهي تقوم بواجب الزيارة، وينبغي الانتظار، وسيبلِّغ سعدية بوجودي.

جاءت كالصنم في ثوبها الجديد، الجميع يرتدون ملابس تليق بالفيلا، ويشعرون أنهم غرباء في دارهم. أسندت ذراعها إلى مسند الكنبة قُبالتي ولم تجرؤ على الجلوس، سعيدة بالبيت الجديد، لا بل شديدة السعادة، فبدت في عيني مشوّشة الذهن. وروتْ لي ثلاث مرات على التوالي أن الصغيرة قد شيَّدت مسجدا في البلدة، وفي الوقت الذي كانت تبني فيه الفيلا، وأن لا أحدًا يستطيع أن يقول إنها بخيلة وأنها لا تفكر إلا في نفسها.

– يا سعدية ما الخطب؟
تنهدت أيضا وأيضا.
– أتعتقد أنها حسنا فعلت حين غنت ذلك اليوم، للملك الجديد؟
– لا أدري.
– أمس الأول، فازت المعارضة بالانتخابات ويُقال إن الوفد سيحظى بالأغلبية.
– الناس مستاءون.
– أفهم استياءهم، ولكن.. ألا تعتقد أن هذا الأمر سيضر بالصغيرة؟
– لن يبدل شيئا فيما يعنيها.
– هذا ما تقوله. ولكنني أرى أنها قلقة. يا للأسف. يحصل مثل هذا حين دخلت البلاط.

نزلت فلاحتي السلم بصحبة رجل أوروبي. رافقته إلى الباب، ثم عادت إلي.

– صباح الخير! قالت مبتهجة: كنت أعلم أنك تنتظر. لكني لم أستطع التملص من هذه الزيارة.
– مَن يكون؟
– إيطالي. سأخبرك فيما بعد.

تبعتها وهي تصعد السلم. كان الشيخ خالد قد أنشأ مكاتبه في الطابق الأول، ورأيت عددا من الموظفين المنهمكين في إنجاز أعمالهم، لقد أصبحت الطابق الأول مقرا لشركة صغيرة. قادتني إلى الشرفة. مقاعد،

جُنينة، وكنبة أرجوحة، قبالة النيل. أفرغت حقيبتي مما حوت من أوراق على الطاولة، فاللقاء كان لقاء عمل. ووضعت أيضا عليها صحف الصباح. وكانت عناوينها تشير إلى فوز الوفد.

– ما رأيك؟ قالت.

– بأي شأن.

– بهذا.

– أعتقد أن الشعب قد كبّد الملك والأحزاب الموالية للإنجليز، خسارة تاريخية.

– أعتقد أنك على حق.

وبعد صمت طويل.

– إن فني الذي أكرّس له نفسي، هو فوق السياسة.

– هذا إذا كنت مقتنعة ..

– ماذا تقصد؟

فجأة امتقع وجهها غضبًا.

– أتعتقد فعلا أنني معروضة للبيع؟ أنت، أنت بالذات أتعتقد ذلك؟ إذًا، اسمعني جيدا: قد تذهب الحكومات والانتخابات والأحزاب وحتى الملوك! لكني، أنا، سأكون دائما هنا، لأغني.

أمسكت الأوراق بغضب لا يفارقها.

– أمر أخير. هل تعلم مَن الزائر الذي صادفته؟ إنه الملحق الثقافي للسفارة الإيطالية، وهو ممثل إذاعة جديدة في مصر، إذاعة "باري".

سوف تبدأ البث خلال الشهر المقبل من "أديس أبابا". وجاء ليطلب مني أن أحيي حفل افتتاحها. إنها إذاعة كما تحب. مناضلة جدا، وطنية جدا، ومعادية للبريطانيين.

– ولكن قولي إنك لم توافقي!

– ولـمَ لا؟

– لأن موسوليني قد احتل لتوه أثيوبيا، وراديو باري هي أداته. إنه يُعادي الإنجليز لأنه يرغب في أن يحل محلهم. أجهزة البث لديه قادرة على الوصول إلى مناطق مصر كافة. بربك.. هل تودين أن تُشجعي المنافسة بين القوى العظمى. وإن فعلت ماذا تكونين؟

– مطربة.

– هذا يعني أنكِ وافقت.

– لم أوافق بعد، ولكنهم يعرضون عليَّ ثروة.

ثم تصفحت الأوراق مجددا. الأغاني التي نظمتها لفيلمها الجديد، "نشيد الأمل". غير أني لم أُعِر الأمر انتباهًا، أرادت أن تُعطيها للسنباطي لكي يلحنها. وزعمت، دونما مزاح، أن ألحانه تُلائم شعري.

تم افتتاح راديو "باري" أخيرا، دون مشاركتها. وكتبت الصحف المؤيدة للملك مهنئة لأنها رفضت أن تلتحق بالحملة المعادية لمصر، أما صحف المعارضة فقد حيَّت موقفها المعادي للفاشية. بدا أن كل الناس يقدرون موقفها، إلا أنا، فحين شارفت على بلوغ مقصدي، زلَّت بي القدم، وما زلت لا أعرف لَمِ أو كيف. وقرر البلاط مكافأة لها على إحساسها الوطني، أن يفتح لها أبوابه. وتوالت الاحتفالات الرسمية والمآدب،

وحفلات استقبال الضيوف الأجانب، وكانت نجمة هذه الاحتفالات كلها. وكان السنباطي يلحن لها ما تطلبه. وسعدية، لشدة غبطتها، قد نسيت سبب قلقها، وكان النجاح لها نشوة، فصارت سيدتها تلاقي الحظوة في أوساط الأمراء والباشوات. وإن استمرت في سعيها لصارت صوت الملكية.

11

لكنها لم تُصبح صوت النظام الملكي، بل على العكس. فعِوض أن تنبذها المعارضة راحت تتودد إليها أكثر فأكثر. وكان البلاط قد أخذ بعين الاعتبار نتائج الانتخابات النيابية، وعين زعيم الوفد رئيسا لمجلس الوزراء. وإذا كان ممثلو المعارضة وأشراف البلاط يتنازعون المواقع في السلطة، فإنهم يلتقون،كل مساء، في دارها ويتبادلون الأنخاب. كانت فيلا الزمالك تحقق الوحدة الوطنية، وتمثل ساحة معركة من نو ع مختلف. أصبح هاجسها الدخول إلى المعترك، أن تأخذ وتؤخذ، وأن تصبح هي نفسها، رهان حرب النفوذ، هذه أصبحت لعبتها، لا أكثر ولا أقل. ولكن من دوني أنا.

كانت حفلات الاستقبال والناس والمجوهرات تفتنها، وخصوصا أفراد العائلة المالكة، أولاء الذين ينضحون سلطانًا منذ ولادتهم. فهي

تشعر أنها تحمل في داخلها سُلطانًا يُضاهي سلطانهم، وهي أيضا ليست مدينة به لأحد إلا لخالقها.

كانت الدعاوي المعادية للبريطانين على راديو "باري" تحقق كل يوم انتصارًا تلو انتصار، فالأمر من اليسر بمكان ما دام الإنجليز يسيطرون على الملك، ويدفعون البلاد إلى حافة الإفلاس، فاعتبر الجميع أنهم هم المسئولين عن الأوضاع. كما تؤخذ عليهم سياستهم في فلسطين. ففي كل ليلة تعبُر أعداد من الإخوان المسلمين الحدود لمساندة الانتفاضة الفلسطينية.

انتهى الأمر بأن خفف بالإنجليز أنهم خففوا من غلوائهم ووقّعوا مع الحكومة اتفاقية تحدد وجودهم العسكري بعشرة آلاف جندي يرابطون عند قناة السويس، وترافق إعلان النبأ مع موجة ابتهاج عارمة. إذ لم يُعر أحد أي انتباه للبند المتعلق بالوجود العسكري في الاتفاق. و لم يلتفت أحد إلا لمشهد إخلاء الجنود ثُكنهم على إيقاع مزامير القِرَب. هل يغادرون حقا؟ هذا بفضل الضغوط التي مارستها سرًا، قال البلاط: لا، هذا بفضل معارضتنا الثابتة، قال رئيس المجلس: لا بل بفضل المقاتلين الإسلاميين، قال الإخوان المسلمون، أما راديو "باري" فقد أشار بوضوح إلى فضل إيطاليا الفاشية.

وللجميع على حد السواء، كانت نجمتي تغني. "اجمعي يا مصر أزهار الأماني.." وهي قصيدة كتبتها أنا.

فجأة.. عاودت الصحافة اهتمامها بي. كانت فلاحتي قد رحلت لقضاء بضعة أيام في رأس البر، فلمّحت صحيفة أن دافعها إلى الرحيل هو الهروب من "شكاوي"، حرفيا كما وردت العبارة بين فاصلتين، في

سياق مقالة عن حياة البلاط. كانت هي بطلة السلسلة. غرامياتها السرية المزعومة، وعلاقاتها الأفلاطونية (طبعا) مع عم الملك، وانجذابها، الذي قد يوصف بأنه أكثر من مضطرب، إلى رجل السلطة الحقيقي، حسنين باشا، المعروف بتعدد علاقاته الغرامية. كل يوم، كل أسبوع، قصة جديدة مختلفة. فعاودني إحساس بالعذاب. ومكثتُ، في الأسفل، ظلا على عتبة الباب عاجزًا عن الدخول، عاجزًا عن الخروج.

وأصبحتْ حياتي غريبة بعض الشيء. ذات مساء عدت من عملي فأخبرتني سلوى أن هناك ضيفا ينتظرني. صبيةً لا أعرفها وصلت من باريس أخيرًا، تنتظرني في الصالون. كلفها أحد أصدقائي أن تسلمني رسالة منه. مزقت المغلف ووجدت أنه يحتوي على ورقة بيضاء. أريته للفتاة فبدت عليها الدهشة، مثلي، وبعض الإحراج كأنها هي المذنبة. وراحت تقص عليّ التفاصيل. لقد التقتْ صديقي في الجامعة حيث تتابع دروسا في الأدب العربي، أما اختصاصها الفعلي، فهي تعد أطروحة دكتوراه حول، ديدرو "Diderot". حول ديدرو؟ فالتمعت عيناها. لقد أدرك "ديدرو" كُنه المسألة قبل الجميع، كان سباقا، ففي زمانه كانت الديانة الكاثوليكية تحاول أن تتحكم بحياة الناس كما يفعل الآن فقهاء الإسلام عندنا، إنه يتحدث عن حالتنا، ويجب أن نترجم أعماله كلها: "الخواطر الفلسفية"، أولا، ثم "الراهبة" و"رسالة إلى العميان لكي يستخدمها المبصرون"، وخصوصا: "جاك القدري"، هذه الأمثولة المكنّاة المستنيرة حول حرية الإنسان. كانت تتحدث بطلاقة وحماسة لا تنضبان. ثم حدثتني عن الأوضاع في أوروبا، فهي تعيش هناك منذ ثمانية

أعوام، والآن تريد أن تستقر هنا نهائيا، أن تكتشف المدينة من جديد، وربما أن تترجم "ديدرو". وحدثتني عن أفلام السينما التي تُعرض حاليا في صالات باريس، والمسرحيات، وعنّي أنا. كانت قد قرأت دواويني الثلاثة، وتنتظر التالي الذي تأخر بضع سنوات. لم تأت على ذكر نجمتي إطلاقا، و لم تُشر في تفصيل إلى صلتي بها، فأنا في عينيها شاعر كلاسيكي ومترجم عمر الخيّام، وعاشق للغة العربية، وصديق صديقها.

لم تهدئ زيارتها من روْعي، و لم تحمل إليّ أي عزاء، لا بل فاقمت إحساسي بالمنفى. مكان آخر؛ جسم آخر.

قيل لي إن فلاحتي غادرت. فرحت أفتش عن سعدية. وقيل لي إنها في الطابق السفلي.

لم أنزل من قبل إلى الطابق السفلي، فالبدروم هو مملكة الموظفين على مراتبهم، هذا كل ما أعرفه. أضواء كُوى ومصابيح عارية، ورائحة خزائن الطعام حرّيفة في أنفي، شيء رطب وأليف. المكان فسيح الأرجاء، ومساحته لا تقل عن مساحة الدار ، إلى اليسار القسم المخصص للرجال، وإلى اليمين ذاك المخصص للنساء. أكداس المؤن مكوّمة في آخر المكان، أعداد لا تُحصى من أكياس الخيش، فول وعدس وسكر وطحين وصفوف من الأوعية العملاقة المغطاة بخرق رطبة. كل ما في المكان مصدره القرية، دون استثناء الناس والروائح والأطعمة.

سُتر بيض ومآزر مطرزة الحواشي، معلّقة عند المدخل، فالأوامر تقضي

بأن يُرتدى الزي المطلوب قبل أن يصعد العامل المعني إلى الطابق العلوي. أما العالم السفلي، فسلامه لا يقتضي مثل هذا الواجب. تقدمت متمهلا. نراجيل مصفوفة لصق جدار، علب أوراق لعب، وعلب دومينو، وموسيقى تصدح في الأرجاء. جهاز الراديو يتصدر المكان على مصْمدة عالية، عند طرف الممر العريض الذي يفصل بين حيز الرجال وحيز النساء، في الوسط تماما. في ناحية الرجال أعدّت فسحة خالية. وهناك لمحت أخيلة لرجال مُقرفصين في شبه دائرة يتبادلون أطراف الحديث فيما الدخان يتطاير، دفعات من أنوفهم. نهضوا حين رأوْني. كنت أعرف معظمهم، الصبي الذي قدم لي الشاي للمرة الأولى، وأحد البوابين والبُستاني. كأني حللت في حمامهم، في "طماي الزهايرة" وهرعوا لإحضار الكرسي الوحيد المتوفر لديهم ثم جاءت سعدية.

كانت سعدية ملكة البدروم، سيدة الأنبار، فاصطحبتني في جولة على أنحاء المكان. تتقدمني دافعة الأبواب التي تعترضنا فتنشق المغالق عن فتيات يسترخين في قيلولة متلاصقات. ورجال يحلقون ذقونهم. مراتب قش بُسطت لصق جدران حجرات النوم الجماعية، وفردت الحصر على المساحات المتبقية. أحيانا تكون هناك طاولة، سخان شاي، دكة قصب بمثابة كنبة، بيت كما تكون عليه البيوت.

– أهل طماي، الذين يفدون إلى القاهرة، من أبناء العمومة والأقارب والجدّات، يأتون إلى هنا، باستمرار دون توقف.

نُزل عائلي تدير شئونه. فإن كان ثمة مكان في وسط العاصمة، تسير فيه الأمور على ما يُرام، فلا بد أنه المكان الذي تتدبر هي شئونه.

حتى الباب الموصد بالمفتاح، عند آخر البدروم فتحته لي. وكانت تلك حجرة نجمتي، غرفتها الخاصة في العالم السفلي. أثاثها شبيه بأثاث الغرف الأخرى، مرتبَتان من القش على الأرضية، وطاولة وطيئة ودكة من قصب. مرآة مثبتة بمسمار في الجدار بعلو العينين، هي وحدها التفصيل الإضافي. ومجلة أزياء فرنسية مليئة بالصور.

– تأتي إلى هنا عندما تتعب من فوق، قالت سعدية ببساطة.

أذهلني الأمر. طابق سري، في داخلها هي، في أعماق ذاتها. أشارت سعدية إلى داخل الحجرة وكأنها تريد أن تفسر لي.. لكنها تعجز، هي نفسها، عن التفسير.

– أحيانا نلعب بالورق سويا مع الفتيات في فترات بعد الظهر. وحين تزور والدتها القاهرة لا تستطيع النوم إلا هنا. لقد نقلت الفتاة دارها في القرية إلى هذا المكان، دون أن يعلم بالأمر أحد. النوم مريح هنا. ولا ينقُصنا إلا صياح الديك ليوقظنا عند الصباح. القصر.. ما الذي تحسبه.. ليس البلاط هو الذي سيزوّجها. لن ينظر إليها أحد إلا بوصفها فلاّحة.. وهي فلاحة بالفعل.. ومطربة أيضا، ما يزيد الطين بلّة.

– ماذا تحاولين أن تقولي؟

– لم تجب، بل راحت تُبرطم وتهز رأسها.

– لقد حشت رأسها بأفكار غريبة. ربما كان من الأفضل ألا أخبرك.. لكنها تعتقد أن أحد رجالات البلاط سيتزوجها.

- مَن منهم؟
- لا أدري! هل تعتقد أنها قد تخبرني؟
- بالطبع تخبرك! من يكون؟
- ...
- أهو حسنين باشا؟
- هو أو سواه، ما الفرق. إنها مجنونة. نحن فلاحون، وهذه حقيقة. ولن يفكر واحد من العائلة المالكة.. ولكن ماذا دهاك؟

كنت قد استدرت على عقبي مغادرًا. لقد رأيت أكثر مما اردت ان أرى، وسمعت أكثر مما أردت سماعه. وعادت الأمور إلى مجراها الكئيب. لا أساوي شيئا، وهي كذلك، لم تكن حالها أفضل من حالي، هي أيضا تعيش منفيّة عن ماض تصرّم، عن رغبة مستحيلة. مثلي. من دوني. حبنا المنهوك. لقد قاومتُ تلميحاتها طوال أشهر، ظننت أني أقاوم، ولكني استسلمتُ. عند باب الفيلا استسلمتُ، و لم أدرك الحقيقة إلا الآن. لأن اللعبة انتهت، وما عاد شيء يُجدي.

12

"إن المدعو عبد الستار الهلالي، وهو مزارع من قنا، وقد فاجأته الأنباء التي ترددت حول خطوبة نجمة الغناء العربي، يؤكد علنًا أن هذه الأخيرة لا تستطيع الزواج من أحد، لسبب وجيه وهو؛ أنها زوجته منذ نحو خمسة عشر عاما. وتأكيدا لأقواله.."

انتزعتْ نجمتي الجرنال من بين يدي القصبجي، وراحت تقرأ الخبر بنفسها وقد تسارعت أنفاسها.

".. وتأكيدا لأقواله تقدم السيد الهلالي بشكوى أمام محكمة القاهرة مطالبا زوجته بالعودة إلى بيتها الزوجي، لتحيا معه كما في السابق. وقد أرفق شكواه بمخطط تفصيلي لداره التي يملكها في قنا "صالتان كبيرتان، وحمامان، وست غرف، وشبكة مياه وكهرباء" ليثبت أنه قادر على توفير سكن محترم وشرعي لزوجته".

كان الخبر مرفقا بصورة فلاح خمسيني، يرتدي الجلّابية أمام باب دراه. إنها المرة الأولى التي ترى فيها هذا الرجل. فمازحها القصبجي قائلا: إنه قدرها، قدرها الذي لا مفر منه، غير أنها لم تكن في مزاج لتقبل المزاح.

بدت الصحافة هذه المرة أنها تمتلك إثباتًا ملموسًا، وأوفدت الجرائد والمجلات الرصينة مراسلين إلى قنا، حيث أعلن الهلالي أنه مستعد للقسم على القرآن الكريم بأن هذه المرأة هي زوجته، والله شاهد على ما يقول.

لم أتزوج هذا الرجل، حتى إني لا أعرف اسمه، إنها عملية احتيال إنه يحاول تلطيخ سمعتي، يريد مبلغا من المال ليصمُت، وهذا كل ما في الأمر. كانت تردد هذا الكلام عشر مرات في اليوم الواحد، وكأن عليها أن تقنعنا حتى نحن. ولم يكن الجمهور يصدق أقوالها إلا مع بعض الشكوك. إذ بدا موقف عبد الستار الهلالي سليما، ونجح في زعزعة الثقة

لدى أقرب المقربين. وكلما بدا نفي نجمتي قاطعًا، بدت في أعين الناس أكثر تعرضًا للشُّبهة.

– هل تعرف هذه السيدة.

عند المنصة استدار الفلاح ملتفتا نحوها، وقد جلست في الصف الأمامي. نظارة سوداء، وثوب أسود ومنديل حول شعرها المرفوع كعكة عند آخر الرأس، مقطبة.

– بالطبع إنها زوجتي.

– أنا يا سيد هلالي؟ أنا زوجتك؟

– لا تظني أنك إذا حققت النجاح والشهرة تستطيعين أن تهجُري منزلك، فالله لا يقبل بذلك؟ هل كانت حياتك بائسة معي؟

– لكن هذا الرجل يكذب! إنه يختلق قصصًا لا أساس لها!

– يا سيد هلالي، سأل القاضي، ألديك إثباتات مادية تؤكد حصول هذا الزواج؟

– بالطبع، كل الناس يعرفون. الجيران. العائلة، الحيّ الذي أسكن فيه. وبإمكان الجميع أن يشهدوا بذلك.

– ألديك مستند رسمي، وثيقة زواج، أو أي ورقة موقَّعة من قِبل أحد المشايخ؟

– لا بد أني أملك شيئا من هذا القبيل، ولكن ينبغي أن أفتش.

– إن التحقيقات التي أجريناها في قنا لم تتح لنا العثور على أي إثبات مادي. لذا، وإلى أن يثبت العكس، ترى المحكمة أن مزاعمك لا أساس لها.

– أتسخرون مني. أنا أعلم يقينًا أنني زوج هذه المرأة.. وبالطبع، هي تعلم ذلك جيدا. يجب أن تخجلي من نفسك. لقد أقسمت أمام الله. وأنت يا سيدي القاضي، مع كل احترامي، أرى أنك تقسو عليّ بالكلام، لأن زوجتي أصبحت مشهورة، وهناك من يحميها من أصحاب النفوذ والمراتب العالية.

– صُن لسانك يا سيد!

– لن يبدِّل هذا من الأمر شيئا، فحسبي الله ونعم الوكيل.

عريض الجبين تحت اللفة المائلة إلى الوراء قليلا، كث الشاربين غليظهما، وجلابية حاسرة من الأمام عن سروال طويل من القطن الأبيض، لم يكف عن المحاولة، صدّته المحكمة فاستأنف حُكمها. ونظرًا لعدم تمكنه من إبراز البراهين الحسية، حكم عليه بالسجن ستة أشهر ودفع غرامة رمزية مقدارها قرش واحد، لإدانته بجرم التشهير والنيْل من الحياة الخاصة.

للمرة الأولى منذ أسابيع طويلة، عادت البسمة إلى ثغر فلاحتي. فقد رأت في انتقال القطعة النقدية من يد إلى أخرى، رمزا كافيا لاسترداد كرامتها. وكذلك الأمر، الحكم بالسجن لمدة ستة أشهر. ومع ذلك كان أثر الصدمة كبيرا، فالهلالي قد وضع إصبعه على جذورها، ومزج صورتها بصورته. لطّخها، دون أن تعلم كيف. وأصبحت تسير بين غرف دارها بخطًى غير واثقة.

منذ يومه الأول في السجن، طلب من محاميه التقدم بشكوى إلى محكمة النقض. فأذهلني إصراره. وأدركت أن هذا الرجل مقتنع بالفعل

بأن فلاحتي هي زوجته. وبدا استلهامه أقوى من ذاكرته. فلاحة غير متزوجة، أي ليست ملكا لأحد، فلمَ لا تكون مُلكا له، إذن فلتكن ملكا له. أما الناس فقد أصبحوا الآن واثقين من أنه يكذب، ويُظهرون استياءهم حيال كذبه وكأن عذرية شقيقة كل واحد منهم هي المعرّضة للشبهة. ولكن خلف الاستياء كنت أشعر، وهذا أمر غريب، بأنهم متفهمون لا بل متواطئون ففي أعماق كل واحد منهم صوت مكتوم يدعم الهلالي تلقائيا، ويحلم بأن يربح الدعوى. يعرفون جيدا أن هذا الفلاح مجنون، لكنه على الأقل تجرأ على ما لا يتجرأون عليه.

ردت محكمة النقض دعواه على الفور. وأصدرت قرارا بمنع المدعي من القيام بأية محاولات مماثلة. فخصصت مجلة "روزاليوسف" بمثابة ختام، مقالة ساخرة لهذه القضية: ستعود النجمة مجددا إلى عالمها، وسيبقى الفلاح الهلالي في السجن. وسيكون لديه متسع من الوقت للتأمل. كان الأجدر به أن يطلب النُصح من شاعر معين أخصائي في هذا المجال.

قرأتْ هذا الكلام ورأتْ أنه طريف جدا، كنت في دارها مع القصبجي والأستاذ أباظة، محاميها. نظرا إليّ وحاولتْ أن تستدرك ضحكها، بدت مسرورة جدا! فأخيرا طُويت هذه القضية إلى الأبد، وفي غضون ساعة ستُقلع بها الطائرة في جولة على بلدان الشرق الأدنى، وهو بالضبط ما أشارت إليه توقعات المقالة في المجلة.

بعد قليل، جاء السنباطي ليودعها. فلم تقاوم متعة أن تقرأ على مسامعه الفقرة التي تقول: (شاعر معين أخصائي في هذا المجال). وعاودها الضحك، فضحكا معا.

رحت أنظر إليهما فاقدًا ما تبقى لي من قدرة وطاقة. رأيت الأمور كما هي، وكما ستكون دائما. إن قضية الهلالي لا موضوع لها سواي، لقد حدست بذلك منذ البداية، غير أني الآن على يقين. فالشعور الذي استبد بالهلالي، هو إياه الشعور الذي استبد بي، نفس الطبيعة نفس المصدر. وتقاسمنا الخسارة.

كان ينبغي أن أكتم في داخلي كل هذا، ان أطمُر هذا الجرح كما تُحجب الحقيقة، نهضت واستأذنت بالمغادرة. ولمحت المفاجأة في عينيها، لم تُحرك ساكنا، واكتفت بإشارة من يدها.

خرجتُ إلى الشارع، مُتكئًا على مجرى حياة كل يوم، غارقا في لجّتها، الهلالي على الأقل، أحرق نفسه بالفعل، وخسر بالفعل. و لم يستسلم، وها هو الآن يشعر براحة لأنه تخلص منها إلى الأبد.

سألتني سلوى عما بي، واقتادتني، ممسكة بكم سترتي، إلى المطبخ، حيث كانت تُعد طعاما. أضفت طبقا آخر وضعته فوق مشمع الطاولة، وقرّبت كرسيا وسكبت. لم أعترض ورحتُ أراقبها وهي تأكل بشهية. قالت:

– أتعرف بيغماليون؟
– ...
– كان ملك قبرص، وذات يوم نحت تمثال امرأة رائعة الجمال، ووقع في غرامها.
– وبعد؟
– وبعدُ؟ لا شيء.

نهضتُ عن الكرسي ببطء. فتوقفت عن الأكل.

- كيف وجدتها؟
- مَن؟
- تلك الفتاة التي حملت لك رسالة من باريس.
- لـمَ تسالين؟
- لقد غادرت لتوها. كنت قد صادفتها مرتين أو ثلاثا وأصبحنا صديقتين. كيف تجدها؟
- جيدة جدا.. فتاة صغيرة.
- .. إنها تحمل الإجازة في الأدب المقارن من جامعة السوربون. وعزباء.
- سلوى.. لا تعاودي..
- بماذا تُعيبها؟
- بلا شيء. فأنا لا أعرفها.
- أما زلت تأمل بشيء من ناحية أخرى. ألا تصبو لبعض الطمأنينة، لامرأة تحبك في كل وقت.. لأولاد؟
- دعيني وشأني. وباية حال، إني لا أملك مالا.
- تملك منه ما يتيح لك شراء خاتم خطوبة ومحبسين.
- أتقصدين.. ان هذه تكفي؟
- دع الأمر لي.
- لا. أنا سأتولى الأمر.

تعمّدت أن ألتقيها. وأخبرتها كل شيء. سمعتني إلى النهاية ثم رفعت

يدها وأشارت كأنها ترمي كل شيء خلف ظهرها. فرُحنا نلتقي كل يوم. كانت تتمتع بحيوية كبيرة وبجدة لافتة للنظر، فأشعر بدعة مذهلة في حضورها، وكأن لا شيء، بعد الآن من شأنه أن يكون مساويا. واستسلمتُ لهذا الشعور اللا واقعي والذي لا يخلو من خفة. فلاحتي غائبة، ما يمنحني الإحساس بأن روحي مطمئنة. حتى عندما دخل الشيخ إلى البيت، بدا الأمر غير حقيقي. كان احتفالا بسيطا تعمدتُ أن يتم بالقدر المستطاع من التكتم، غير أن هذا لم يحُل دون أن يحتل عناوين الصحف والمجلات، ثم عادت نجمتي من جولتها التي استغرقت ثلاثة أسابيع وكنت خاطبًا.

هبطت درجات سلم الطائرة درجة درجة، وبانتباه لكي لا يَعْلَق كعب إسكربينتها العالي بين الألواح، وكانت تخفي عينيها بنظارتها السوداء، فاستغرق هبوطها السلم دهرًا.

ما إن وطئت أرض المطار، حتى راحت تصافح المستقبلين وعلى رأسهم مُوفد البلاط، وموفد الحكومة، وتبادلت معهما عبارات المجاملة، ثم التفتت نحوي أخيرا. وراحت تصافح الآخرين على التوالي حتى وصلت إليّ.

– إذًا، هل الخبر صحيح؟

أردت أن أجيب لكن إحدى الطائرات التي تستعد للاقلاع أدارت فجأة أحد محركاتها فعَلا الضجيج، وبدد كلماتي. رفعتْ يدها ولوّحت بها للجميع، وسرنا معا باتجاه صالة التشريفات.

قدموا لنا المرطبات، وتحلق عدد آخر من المستقبلين حولها، فابتعدتُ قليلا لأقف بعيدا حاملا كأسي بيدي.

– ما بالك؟ صرخت بي فجأة. من يرك يحسب أن خبر الخطوبة صحيح فعلا!

– هذا صحيح. لقد خطبت فعلا.

كانت تعلم، ولكنها تريد أن تسمع الخبر من فمي.. تمالكت نفسها. وقالت كلمات مناسبة بلهجة مناسبة. فارتفعت الكؤوس، نخب الخطوبة، والتمنيات بحياة سعيدة وذُرية صالحة.. لكني رايت دموعا تغشى عينيها. وسرعان ما خفُت هرج التمنيات والتهاني.

– أود أن أقدم لك هدية. أود أن أغني في حفل زفافك.

– اختلج صوتها. لم ينبس أحد بكلمة، كأنهم استحالوا تماثيل شمع. اقتربت.

– اسمح لي أن أقبلك ولو لمرة واحدة.

أرادت أن تعانقني و لم أدر ما حصل بالفعل. فإذا بنا مُتعانقين، يضم واحدنا الآخر إلى صدره بقوة، وقد انهمرتْ دموعنا تحت أضواء عدسات المصورين اللامعة. كانت تلك هي المرة الأولى، ثم أرخت يديها، وابتعدت قليلا، وخاطبتني دون أن تنظر في عينيّ:

– لا تقلق، سنستمر في العمل سويًا. فالرابط بيننا أوثق من أي زواج.

ما قالته كان صحيحا. كنا محكومين بأن نبقى سويًا.

الجزء الثالث

(1956-1950)

1

عندما استدرت ملتفتا، رأيت صبيًا يرتدي بيجاما واقفًا وسط الصالون ويرمقني بنظرات قلقة. استغرقني الأمر بضع ثوان لكي أدرك أنه ابني.

قال استيقظت وكانت الأنوار مضاءة، فتنقلت بين الغرف و لم أجد احدا، أريد امي، لقد فتشت عنها في كل مكان و لم أجدها وأخيرا رأيتك على الشرفة وظننت أنك لص. احتضنت جسده المرتعد ورحت أقبّله لا أعرف كيف، وأردد الماما ستعود غدا أو بعد غد، الماما ستعود ومعها اخوك وأختك، إنه مجرد كابوس واستبدت بي رغبة في ان ابكي معه.

حملته إلى سريره وبقيت يداه تتشبّثان بي. عيناه مفتوحتان في العتمة وقبضتاه تشبثان بقميصي، خشية أن يُرغمه النعاس على تركي. ليس مهمًّا ما كنت أقوله، المهم الا أتوقف عن الكلام، وبما أني لا أحفظ قصصًا للأطفال، رحت أتلو عليه بعض قصائدي همسا، لم يكن بمقدوره أن يفهم معنى الكلمات لكنه أشبه بالموسيقى، صوتي الذي يتردد كأنفاسي على وجنته الساخنة. وما هي إلا لحظات حتى أرخى النعاس جفنيه، وسرَت رعَدات خفيفة في ساقيه. لم أحرِّك ساكنا وتركت ذراعي فوق صدره ليستغرق في النوم.

كانت هدى، امرأة قليلة الكلام، "أغنية أخرى، لقد طفح الكيل" فقط هذه العبارة على قصاصة وجدتها حين عدت عند منتصف الليل

بعد انتهاء الحفلة. كانت على منضدة التليفون دون توقيع، حتى رحت أنا أيضا أتنقل بين الغرف، عاجزًا عن التصديق، مرارا وتكرارا. لقد رحلت بالفعل، واصطحبت معها الصغيرين. عاودني الدوار كأني رهين صحراء. فخرجت إلى الشرفة حيث وقفت قبالة المدينة النائمة. لا بد أنها استمعت إلى الحفلة عبر الراديو، وكانت الأغنية هي السبب. أحد عشر عاما من الزواج لم تعترضنا خلالها أي مشكلة، كتبت لها أغنيات بالعشرات، ثم جاءت هذه الأغنية، وطفح بها الكيْل.

فتح سمير عينيه، ثم أغمضهما، كان جسمه يتعرّق فأحسه غريبا مجهولا. تلك الأغنية ظنت هدى، ولكن ما كان ظنها، حقًا؟ جالسا عند طرف السرير، رحت أردد أبياتها على طرف لساني: "جددت حبك ليه / بعد الفؤاد ما ارتاح / ويشعْلل النار والأشواق / اللِّي طفّيتها إنت بإيديك.."، بدت لي الكلمات أوضح معنًى.. " أقدر أجيب العمر منين / وارجّع العهد الماضي / أيام ما كنا إحنا الاتنين / أنت ظالمني وأنا راضي /..) كم من الوقت استغرقها اتخاذ القرار، ثم تدوين هذه العبارة والرحيل؟ الناس الهادئون هكذا، يكابدون طويلا ويطفح بهم الكيل فجأة. (جددت حبك ليه) فأغلقت الباب وراءها. لم أكن قد أدركت بعدُ كل ما جرى، فالجانب الذي لم أتنبّه إليه من حياتي على وشك الانهيار.

حاولت أن أفهم ما الذي خطر ببالها، حاولت جاهدًا أن أفهم. لا بد أنها ذهبت إلى بيت أمها، كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، لكني لا أبالي، فلن أتردد في الاتصال هاتفيًا في أي ساعة. غير أن في رحيلها على هذا النحو، رسالة تريد أن تبلغني، وأردتُ، قبل أي شيء، أن أفهم الرسالة.

لقد أمضيت كل هذه السنوات كأني لا أحد، هي من جهة، ونجمتي من الجهة الأخرى، نوع من التوازن المثالي غير المتعمّد. إحدى عشرة سنة. في الخارج، اندلعت الحرب، الحرب العالمية وحرب فلسطين التي اعتملت في قلوبنا. وتنامى النظام على صورة ملكه، بدينًا فاسدًا. وكانت فلاحتي واقفةً دائمًا خلف الباب بانتظار أن يُفتح لها، وتغنّي. لم تتخل عن حلمها المجنون في أن يتزوجها البلاط. أما أنا، فطوال هذا الوقت كنت خارج الوقت، أكتب لها القصائد. كانت تعوزنا الطمأنينة، نحن الاثنين. كان شعري يُعبر عن النقص، وهذا النقص يتحول في صوتها إلى النقص الذي تعاني منه البلاد. صوتها يهدْهد الغضب والألم والتوق لعالم مقبل لا يأتي. وهي مثلي. وأنا مثلها. لقد مددنا أيدينا إلى أبعد ما أمكننا لكي نقبض على رغبة صرف، على بؤرة فارغة. وقد لا يكون الفن سوى الأثر الذي تخلّفه هذه المحاولة العبثية، هذا الإخفاق المؤكد. لقد سبق للخيام أن قال ذلك: "الثمالة التي لا تفضي هي الطريق".

وفي الأثناء، كانت هدى. هدى، التي جعلت الاستمرار في الحياة، على أرض الواقع، ممكنًا، هدى الدؤوب دون أن أراها، القادرة على تدبر شئون البيت وتربية الأولاد، أما الحب الحقيقي، فيقوله هذا البيت الذي يخاطب امرأة أخرى: "ياللي قضيت العمر معاك"، ربما كان هذا البيت هو السبب. فهو لا يترك لها متسعًا أو مكانًا. وينتزع منها ما تبقّى لها من القسمة الجائرة، ينتزع منها حضوري الجسماني. ياللي قضيت العمر معاك. لم أكتف بكتابة هذا الكلام، بل غنته هي عبر الإذاعة، وعلى مسمع

البلاد بأسرِها. إذلال مُعلن. ومن قِبل مَن لقد جاوزت الحد. فرحلت ورحيلها هذا يجعلها موجودة.

رفعتُ ذراعي عن صدره، ومكثت هنيهات أصغي إلى أنفاسه المنتظمة. ابني مستغرق في النوم. أمسكتُ وسادة وألقيتها على الأرض، وتمددتُ على السجادة قرب السرير. أنفاسه تُعيد إليَّ الهدوء. أما هدى، فسأتصل بها عند الصباح ونسوّي الأمر. سأقول لها إنني فهمت.

رفضت أن تكلمني على الهاتف، فجُنّ جنوني، أوْصلت سمير إلى مدرسته وعرّجت عليها، أقصد على بيت ذويها. استقبلتني أمها عند فناء المدخل وهمست قائلة: إنه ليس بالوقت المناسب، وأنه ينبغي الانتظار ريثما تهدأ هدى، وأنه من الأفضل ألا أحاول الآن. فيما كانت تدفعني برفق نحو الباب.

لزمت غرفة مكتبي بعد أن أوصدتُ بابها، وأمضيتُ نهاري محاولا أن أكتب لها رسالة، فامتلأت سلة المهملات بالورق المجعوك. عند السادسة ولدى عودتي من المكتبة، لاحظت أنها جاءت إلى البيت، وحملت معها كل متاعها ومتاع الصغيرين. كان سمير في غرفته منكبًا على إنجاز فروضه المدرسية. وراح يردُّ على أسئلتي بأجوبة مُقتضبة جدا. جاءت أمه إلى المدرسة واصطحبته إلى البيت وقالت له: إنها ستأخذه ليحيا معها في غضون بضعة أيام، بانتظار ترتيب الأمور كافة.

لم يبدُر مني أي رد فعل. وغادرتُ الغرفة إلى الصالون، ثم إلى المطبخ.

كان البيت صامتًا. سألت سمير إذا كان يريد أن يأكل، فقال: لا بحركة من عينيه. أعرف جيدا أنه يتعمّد هذا السلوك. فتحت باب الثلاجة ثم اغلقته. لم أجد فيها ما أشتهي أكله. عدت مجددا إلى الصالون. صمتٌ كصمت الحداد. أشعلت الراديو، فطالعني صوت نجمتي: "يا ظالمني"، إحدى قصائدي فأسكتّه على الفور.

جاءت جدته، فكان من الطبيعي أن أوافق على رحيله معها، لأنني لن أفلح في تدبير شئونه. والخادمة أيضا اختفت، تركت لي المفاتيح على طاولة المطبخ. لا أحتاج أحدًا. وفي غضون أسبوع حلت الفوضى في حياتي كلها. وعندما عرج عليّ الأستاذ أباظة، وجدني وسط أكداس من الأطباق الوسخة. أدركت على الفور من سيماء وجهه، أن بحثه مع هدى كان عبثًا. لقد أوْكلتُ إليه متابعة إجراءات الطلاق.

بإمكانها أن ترحل مع الأولاد، وأن تفعل ما تشاء، ولكن الطلاق، أبدا، حتى إني أمقت الكلمة. تركتُ المحامي حيث هو واستدرتُ على عقبي. ودون تفكير، فعلت الأمر الوحيد الذى تبقى لي أن أفعله. اقتحمت باب أهلها لكي أقول لها إنني لا أحب أحدًا سواها. ارادت أمها أن تعترض طريقي فنحّيتها جانبًا ودخلت إلى الغرفة، نهضت بجفلة. ورأيت هدى التي أعرفها، شاحبة هزيلة الوجه، حتى إن قسماتها فقدت حتى احتمال قدرتها على الابتسام، أغلقت الباب وأسندت ظهري إليه، وإذا بكل الغضب الذي كان يعتمل في صدري قد تلاشى. طلبت منها أن تسامحني لكل ما كابدته طوال تلك السنوات، لقد تزوجت حالمًا، عيناه شاخصتان صوب نجمة، لقد آذيتك، اعذريني، هناك الأولاد، نحن أولاد، كل شيء

قد يُستأنف فيما بيننا. تقدمتُ خطوة نحوها فتراجعت. لقد كنت ظالما معك، و لم أدرك ذلك، غير أن كل هذا قد انتهى الآن، صدقيني أعدك بذلك. إعصار من الأسى يرتسم على وجهها، ألم عميق لا يلين، ومع ذلك بدا لي أنها تصدق ما أقول. إذ ماذا يعني الصدق؟ كنت أخاطبها من أعماق قلبي، وكانت تدرك ذلك جيدا. ولكن في الوقت نفسه، وفي عمق أعماقي، كنت أرفض الإقرار بأن وعدي هذا قد يعني أنني سأتخلى عن فلاحتي. ولا يجب أن تطلب ذلك مني. لم تفعل. و لم تعد إلى البيت.

رحت أحرس البيت، بالمعنى الحرفي للكلمة. كل مساء أعود إليه لأحرسه، وانتظر، لا ادري ماذا. الباب موصد وما عدتُ أفتحه. لم يكن هناك سواي. كان الباب يُقرع ويرن جرس الهاتف، فأشعر كأنه اعتداء على شخصي، فأتدبر أمر تخلي الطارق عن إصراره، لم أكن مصابًا بانهيار عصبي، بل اكتشفت تلك اللذّة القائمة للعزلة، لقضاء الساعات دونما شغل شاغل، التلاشي ممدًا على كنبة الصالون، تحت أنظار لا أحد. لم يكن الأمر كريهًا، وإن كان كذلك، فهو يحصل دون شهود.

لمرتين في الأسبوع، يوم الثلاثاء ويوم الجمعة، تأتي والدة هدى بالأولاد ليمضوا ساعات ما بعد الظهيرة برفقتي. وكنت أعدُّ لهم وجبة العصر الخفيفة بكثير من الجهد. فهم يأتون إلي لكي اراهم، وينبغي أن أستغل كل دقيقة من الوقت لأجعلها تدوم، لأجعلها مليئة بالحركة، وكان الأمر ينهكني. بعد ثلاث ساعات، عندما تأتي جدتهم لاصطحابهم أشعر

شيء من الارتياح. ما عدت أبالي إلا بجدراني. وعليّ أن أستدرك ما فاتني. لم أعش وحدي أبدا، باستثناء إقامتي في باريس، منذ وقت طويل.

كان الأستاذ أباظة مُنهكما بإعداد أوراق الطلاق، فبذلت ما استطعت لأجعل مهمته بالغة الصعوبة، فأتلكأ طوعا في توفير الأوراق التي يطلبها. وكنت قد أبقيت رحيل هدى سرًا، فالأمر لا يعني احدًا سواي. ألتقي محمدًا أو القصبجي عندما يكون اللقاء، لا مفر منه، وكأن حياتي على سابق عهدها.

ولم أجد صعوبة في التكتم على الأمر، والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. ومع نجمتي، كانت الأمور أيسر. فقد أحكمت إغلاق عالمي الخاص، بحيث إن أحدا لن يُلاحظ أن حياتي قد بُتر نصفها.

2

كانت تتأرجح ساهمة، لا رغبة لها في العمل. جسدها المقبل والمبتعد برفق، يزداد حيرة فاقدًا انطلاقته، ثقيلا غائبًا. كان الأمر يجعلني عصبيًّا. ذلك أنه في غمرة انشغالها بالقصائد وتنظيم الحفلات، يستحيل أن يبدر منها شيء، وإن حاولتُ، أصدها على الفور. أما في ساعات صمتها وسهوها فالأمر يختلف، لقد مضى زمن أردتُ أن أنساه، وما عدتُ أريد صمتًا بيننا، وخصوصا الآن.

رفعت راسها، ورمقتني بنظرات أعجز الآن عن وصف كآبتها. لقد علمت بأمر هدى، ربما الأستاذ أباظة أخبرها. ورغما عني رحت أستعد للسؤال الذي لا بد منه.

اردتُ ان أخبركَ بأنني مريضة.

تنفستُ الصعداء. مريضة، أعرف أنها في معظم الأيام تكون مريضة. فما إن تشعر بضيق حتى تستدعي الدكتور حفناوي. وصار وجود الطبيب بجانبها مألوفًا كفكرة المرض المحتمل أو المستديم التي تراودها. وكانت الصحافة تُفرِدُ لحالتها الصحية مساحة منتظمة في إصداراتها، قد تعادل المساحة المنتظمة التي تُفرَد لأخبار علاقاتها أو زيجاتها السرية. وعندما يتضح أن وساوسها لا مبرر لها، لا نعبر عن تأففنا، بل على العكس نهنئها على السلامة، كما لو أن احتمال مرضها قد جنّبها ما هو أسوأ.

– أهذا هو رد فعلك؟

– اعذريني، غير أني كنت غارقًا في همومي.

– لقد لاحظتُ منذ بعض الوقت.

– ما الخطب؟

– يسمّونه تضخمًا تطوّريا، ورمًا في العنق. وربما كان سرطانًا.

وطالعتني بابتسامة فاترة. لم أصدقها. لقد شخّص د. الحفناوي، منذ أسبوعين، ظاهرة غريبة في حنجرتها، واستدعى أخصائيا للتثبت، فاستقدم البلاط أخصائيين أجنبيين، بالإضافة إلى طبيب الملك الخاص. وأجمع الأطباء على تشخيص وحيد: احتمال وجود ورم سرطاني. وأدركُ جيدا وقع الخبر عليها. لكنني لم أشعر بأي تأثر رغم نبرتها الرقيقة. وأخبرتني أنه

ينبغي أن تختار بين المستشفى الملكي في لندن، ومستشفى القوات البحرية في واشنطن. سرطان، حنجرة الأوتار الصوتية، خطر الموت، أو فقدان صوتها.. قلبت هذه الاحتمالات في ذهني لعلّها تخيفني.

– لم تسمع ما قلت.

– لا.. ليس.. لا أستطيع.

لزمتُ الصمت. و لم ألحظ في نظراتها التي أشيحت عني، حتى معالم الدهشة، فقط الإحساس بالوحدة التي لا تحتمل. إذ ما عاد شيء يحول دون أن يحصل ما سيحصل. لا أحد، قالت ما أرادتْ أن تقوله، و لم تلقَ أي رد فعل. ولكن المواجهة أفقدتني فتوري المتعمّد، فأمسكتُ يديها.

– ولـمَ كتمت عني الأمر؟

– رأيت أنك غارق في همومك.

ليس في نبرتها أي لوم. والآن، أذكر أنني ذات ليلة فاجأت، شقيقها خالد جالسا بقربها في العتمة، و لم ألحظ شيئًا. غير أن عيني سعدية الحمراوين، ووقع الخطى المحاذرة، والصمت المطبق المخيم على البيت.. الآن أذكر. المشكلة أني ما عدتُ أصدقها، أقصد، أني ما عدت أصدقها فعلا، ما عدت أصدقها بالفعل.

– وما العمل الآن؟

– يجب أن أتخذ القرار. سيضعون حنجرتي، ويفحصون. والأرجح أنهم سيجرون جراحة.

عبارات محسوسة كأنها بذلك تريد أن تجعل كلامها حاضرا.

أغلقتُ الباب ورائي، واستندت، متهالكا إليه، عظامي تؤلمني كأني تعرضت لضرب مبرح. هدى ليست هنا، والأولاد أيضا لحسن طالعي، فلا أحد يضطرني إلى المراعاة والتظاهر. أشعلت الأنوار، ورحت أخلع ملابسي على مهَل. وجدتني عاريًا أمام الثلاجة التي فتحت بابها، وأمام باب الشرفة، وعلى الكنبة، وفي الرواق المفضي إلى غرفتي. لا أذكر أني خلدت إلى سريري، ولا أذكر أني غفوْت.

استيقظت مُطمئنا. هذا الجسد المستلقي على الفراش، في آخر المطاف، هذا المكان من حولي، هذا ما تبقى لي. أشعة الشمس سخيّة عبر النافذة. أبعدت الغطاء عني ولبثت مستلقيًا دون حراك.

لطالما ظنت أن مشيئة مفارقة تشق لها الطريق، لكن الأفلاك غيَّرت مواقعها. كنت قد علقْتُها، فلم دهشتني؟ اقتادتني المشيئة إياها وأرغمتني على السقوط. ليس باستطاعتي أن أبكي. أواجه الحُكم على نحو لم أعهده فيَّ من قبل، ولا أتنصّل من مسئولية ما حصل. أوتارها الصوتية اهتزت بكلماتي أنا، لستُ بريئا. لقد أوصلني إخلاصي لها إلى التخلّي عن زوجتي وأولادي، ظنًّا مني أن جناحا واحدا يكفي للتحليق، لا بل لم يُتح لي أن أظن، كنت مخلصا وحسب، وليس هناك ما يفرِّق بيننا سوى الموت، أو أن تفقد صوتها، فلتفقده إذًا، وليكتمل المصير! كأني أستسقي المأساة راضيا، عليَّ أن تكون أفظع المآسي. لن أكتب إذا تحققت، سأتلاشى وفي أحسن الأحوال، لن تكون قصائدي سوى حبر على ورق. لقد أتينا على ذكر الحب مرارا في الصالات المعتمة وكفى، وسينطفئ العالم،

والناس، والأشياء سوف تستعيد دكنتها الأصلية، وأنا وهي، من بين الناس والأشياء.

عدتُ لزيارتها في اليوم ذاته. وأبقيْتها بين ذراعي دون أن ألفظ حرفًا. ادركتُ أن الخبر قد روى صحراء جسدي، وأنني، أخيرا قبّلتها. فزال أي حرج. وعاودنا الاطمئنان إياه، دَعَة قائمة صامتة.

كان المرض يعيدنا إلى ما كنا عليه في علاقتنا، إلى ذروة ما كنا عليه، لا بل إلى ذروة أعلى. وقبل أن اغادرها قلت لها إن هدى هجرتني مع الأولاد، فلم تطرح أي سؤال.

تلقت الصحافة بيانًا طبيًا، إذ بدا أن السر أكبر من طاقة الناس على إخفائه. ليس في مستطاع أحد أن يُطمئن أحدًا. واشاع النبأ قلقًا بين الناس جميعا. إذا كانت النجمة ستخضع لجراحة، فعلى جماهير محبيها ان تتدبر أمر تلقي الوزر. احتشد بضع مئات منهم أمام فيلتها، ما أوجب على رجال الشرطة أن تقيم حواجز من حولها. وزادت الصحف أرقام طبعاتها، إذ شعر البلد بأسره أنه مهدد بالوحشة.

اتصلت هدى هاتفيا وقالت: إنها بجانبي ولكنها لا تدري متى تعود، خصوصا الآن، وأربكني اتصالها. لقد أفقدني اتصالها إحساسي بالواقع واستلهامي الحلم في وقت معا.

كان الحشد أمام الفيلا يزداد يوما بعد يوم. ثم خرجت نجمتي عن صمتها، وأجرت حوارًا إذاعيًا مع "صوت القاهرة". ليست خائفة على

الإطلاق "فإنا لله وإنا إليه عائدون" وطمأنت المستمعين، وضحكت وطالبت برفع (الحصار) عن دارها. فاستجاب الحشد، وعاد كل امرئ إلى بيته. وراحت الصلوات تُرفع في المساجد والكنائس والمعابد بالدعاء لنجاتها، كانت الصلاة صامتة، وانطفأت الأضواء وعاد الهدوء مخيمًا.

- لا تُخيفني الجراحة، بل تركي جسدي مخدرا بين أيدي الجراحين الأجانب. فأنا لا أعرفهم.
- لا تقلقي.
- ما رأيك بالدكتور حفناوي؟
- منذ سنوات طويلة وهو يصر على حضور حفلاتك.
- إنه مصري وأثق به.
- لكنه طبيب جاد.
- سيَّان عندي، أريد أن يكون حاضرًا، وأن يكون الضمانة.
- لن يقبل.
- هذا صحيح، قال لي إنه كان ليرافقني لو كنت متزوجة، لأن زوجي في هذه الحال سيكون هو المسئول. لذا سأتزوج، زواجًا شكليًا، وسوف يُلغي العقد بعد إجراء الجراحة.
- ممَّن ستتزوجين؟
- من محمود الشريف.

زعمت صحيفة أن الزواج هو علاجها الوحيد، وقالت إلماحا: إن عزوبتها التي طال أمدها، لها صلة مباشرة بمرضها. فالمرض لم يحُل في أي مكان من جسدها، بل اختار الحنجرة، حنجرتها التي أوْحت بالأمل

والشغف والشهوة، أي بكل ما كان ينبغي أن تعطيه للرجل. و لم تفعل فانقلبت الآية، واستحالت العزلة والحرمان والعفة قاتلة، استحالت وربّما قاتلا. وهذا ما كان يقتلها. قد أصدّق أو لا أصدّق. لكنها الحقيقة على المستوى السحري. لطالما أراد جمهورها أن يضنّ بها، فأجبرها على الوحدة المقدسة. وإذا كان يقبل بزواجها المحتمل، فلأسباب يريد أن يفسرها بأنها أسباب صحية. وكانت هي ترى في رأي الجمهور صوابًا. ولكن شريف لم يكن سوى عازف كمنجة في فرقتها، مدمن على الكحول. في العادة لا ينظر إليها أو بالكاد، وبنظرات استخفاف وازدراء. وكانت تسامحه على كل شيء. بهي الطلعة، فظ ولكن الدارات الداكنة حول عينيه تشي بميله المفرط للملذات. يصل متأخرا عن مواعيد البروفات وحين تفتقده تجده برفقة صديق يحتسي الشراب على قارعة الرصيف. كان لا يحبه، وبدا له أن اللامبالاة التي يعاملها بها هي التي تفتنها.

- ألديك مأخذ على الشخص؟
- هذا لا يعنيني.
- هذا يعني أنك تعترض، مثلك مثل الجميع. ولكن أنا أيضا لدي الحق بأن أفعل.

3

تقدم رجل بخفة على حلبة الرقص، وكان يحمل حقيبة صغيرة من قماش مربع. إنه محمود الشريف. طبيعي جدا أن أراه، غير أن رؤيته جعلتني مضطربًا. لا أعرف إن كانت تزوجته أم لا، فهي لم تقل لي. كان هناك مع حقيبته الصغيرة، لو كان الموت منافسي لما قلت لا. ولكن ليس هو.

لم يلقِ التحية على أحد، متعتع، سكران. اقتربتْ مني وضمتْ بذراعها عنقي. وما لبثت أن ابتعدت، كأنها لا تريد أن تبقي لنا فرصة اختلاء.

كنت قد أُجزتُ أسبوعًا من عملي في المكتبة. توقيت واشنطن يقول إنها العاشرة صباحًا هناك، والساعة هنا تشير إلى الخامسة عصرا. إلى الآن لا يمكن أن يحصل شيء. أربعة أيام من الانتظار هي فوق طاقتي واحتمالي، فلم أنتظر مع الآخرين. البلد بأسره كان ينتظر، غير أن انتظاره مشفوع بالأمل. لزمت بيتي منفردا بصحبة الإذاعة لم أُسكت الراديو لحظة، ليلا ونهارا، غارقا في لـجّة صوتها.

أيقظني كابوس عند منتصف الليل. أنام الآن في غرفة سمير. نهضت مذعورًا، محمود الشريف في حُلمي، ولا أذكر شيئا آخر، كان يُفسد عليَّ حتى حُلمي. لولاه لبقيتُ لي بكل كيانها، ولأدركتُ كيف تمنحني الدَّعة. تناهت إلى مسمعي الموسيقى الصادحة في الصالون، فتبعتها.

"أنا في انتظارك" بصوتها المذهل الطليق الذي أنضجه الزمن: "خليت ناري في ضلوعي وحطِّيت/إيدي على خدي وعدِّيت/بالثانية غيابك

ولاجيت/يا ريتني عمري ما حبيت". وهذا ما كنت أفعله، الانتظار
ذل ثانية، وهذا ما لم تكف عن فعله، فتزوجت، و"ناري في ضلوعي"،
صحيح أن القصيدة كتبها بيرم(*) لكنها تخاطبني. كنت أود أنا أيضا ألا
أحب. فالمشاعر كافة قد تستحيل أضدادها.

"الأولة في الغرام". كتبها بيرم أيضا. طالما كان موجودًا هنا، ويكتب
لها القصائد كأنه حلَّ مكاني: "الأولة في الغرام والحب شبكوني/بنظرة
عني/والثانية بالامتثال والصبر أمروني/ وأجيبه منين/والثالثة من غير ميعاد/
راحوا وفاتوني قولوا لي فين" لقد ابتلاها بيرم بالجنون، بالحب الذي يفقد
العقل."(طالت عليَّ الليالي/والفكر راح من خيالي/وأقول يا عين اسعفيني/
وابكي وبالدمع جودي..". ألحان الشيخ زكريا تستغرق في هذيانها. بيرم
والشيخ زكريا، الثنائي الذي لا ينفصم. لقد أصغيا إلى توقد مشاعرها
وتبعاها، أفضل مما فعلت أنا. كل أولئك الرجال كانوا يلاحقونها.

قُرِعَ الباب، وكنت منذ وقت أمتنع عن استقبال أحد. ولكن هذه
المرة بدا لي أنه قرع بجماع اليدين وكان القصبجي واقفًا على العتبة زائغ
العينين خجولا. طلبت منه أن يدخل فقال: إنه ما عاد قادرًا على احتمال
العالم الخارجي، زوجته، عائلته، وذلك الانتظار، فاليوم الثلاثاء وغدا يحل
الموعد، وما عاد يُطيق صبرًا إنه يحيا في حال من الرعب تشبه حالي،
جسمه هنا وعقله هناك.

رضخت طوعا لوجوده معي. قبلت به. له أن يفعل ما يشاء أن يتجول
بين الغرف، أن يذرع الأرض جيئة وذهابًا، أن يطوف في صوته، ولي أنا

(*) يقصد محمود بيرم التونسي (المترجم).

أن أفعل مثله، ولكن على أن يبقى كل منا على حدة، أن لا نفعل ذلك سويا فلا رغبة لي في الكلام.

"ليلة البدر في رأس البر" كتبت كلماتها ولحنها هو. جلس متربعا على السجادة، وقد أسند مرفقيه إلى أعلى فخذيه، كأنه يحتضن شبح عوده، وعيناه غائرتان كأنه يراها. كانت دعتنا إلى "طماي الزهايرة"، فهي تريد أن تغني في ساحتها العامة عند المغيب. وتحلّق كل سكان البلدة من حولنا متلاصقين يُنشدون سماعها. "ظللت أعد ليالي القمر /وأرتقب البدر حتى ظهر /بقلبي شكاة تكتمتها/ وقد كتم القلب حتى صبر.." كانت المناسبة قد أعادت إليها لهجتها الأصلية، ونبرتها الفلاحية. وفي الليلة المنصرمة كنا اجتمعنا كلنا في البلاط، حيث قُلّدت وسامًا، قبل ذلك بوقت قليل كانت "أسمهان" قد لقيت حتفها إثر حادث سيارة. كانت الحرب في أوجها، وقد أشيع كلام عن تصفيات حساب بين جهازي الاستخبارات الإنجليزية والألمانية، وسرت شكوك بأنها كانت عميلة مزدوجة. وشائعة أخرى سُرّبت مفادها؛ أن نجمتي هي التي أمرت بتخريب السيارة للتخلص من منافستها. سمعت صفقة الباب. لقد غادر القصبجي.

الخامسة يوم الأربعاء، إنه الموعد المرتَقب. استضافت الإذاعة شيخًا لتلاوة القرآن، وطلب من كل مصري أن يفكر فيها .. فكدتُ أحطم جهاز الراديو. يجب أن يلزموا الصمت! فهذه اللحظات تحتاج صمتًا، وشيئا من الكتمان. ثم جاء صوت مراسل الإذاعة الخاص في واشنطن، مشوَّشا

متقطعًا غير مفهوم، فالاتصال رديء للغاية. غير أني فهمت الجوهري في كلامه. لقد بدا الأطباء في إجراء الجراحة.

كان الراديو يبث الأنباء المستجدة عنها ساعة بساعة، ليس لديهم ما يقولونه سوى أنهم هنا والناس أيضا، الناس الذين ضاقت بهم المقاهي متحلقون حول أجهزة الراديو، وغصّت بهم ردهات المساجد. لم تكن المساحة داخل جدران شقتي لتتسع لي، وددت لو أخلع عني ذاتي، فما عاد يجول في رأسي يفرز سوى ثانية جامدة، لا جدوى منها.

إنه منتصف الليل. رن جرس الهاتف كأنه نداء استغاثة. إنه القصبجي يهاتفني من الفيلا. كل شيء جرى على ما يرام، وهي الآن تستعيد وعْيها. كان الورم خبيثا فتم استئصاله وهي الآن بخير. ثم سرَت الأنباء عبر الأثير، أصوات بليغة التأثر، كوكب الشرق، بعناية الله، إلى أصغر قرية في أقاصي البلاد.

خرجت إلى الشرفة وقد استنفدتُ صلواتي. سوف تغني. وسأنظُم لها الأغنيات. وستدور المحدلة مجددا لا تخلف إلا العذاب، ساحقة الكائنات التي تعترض طريقها. كانت اللعنة تفوق طاقتي واحتمالي. إذ كان ينبغي أن تنهض من تلقائها مثل جبل غير مرئي. على مَن أصب جامَّ غضبي الآن. سوف تتصل بي وسأهرع مفتونا، نحو حتفي مغتبطا، منهوك الجسم والروح. وستكون البلاد حاضرة لاحتضانها كما كانت أمس وكما ستكون دائما. كل هؤلاء الرجال، وتلك الموسيقى التي يتلقونها ويهبونها، هذا العرق الوجْدي، وكان عليَّ أن أتهيأ لحريقي المقبل. لو أنها ماتت.

4

اصطفَّ الرجال على طول الطريق التي سلكها الموكب، وراحت النساء يرشقن سيارتها المكشوفة بالأرز، موكب من السيارات رافقها إلى دارها وسط الأهازيج والزمامير الصماء. كان الناس لا يروْن سوى فرحتهم، وكأن الموت قد هرِم إلى الأبد. وكأن العيش أصبح ممكنًا، عند بوابة الفيلا بدا رجال الشرطة مغتبطين كسِواهم، وراح كل منهم يشارك بدوره في استقبالها.

كان "حسنين باشا" ينتظرها عند العتبة. رجل النظام القوي، وعشيقها المظنون، فقد أراد أن يستقبلها شخصيًا. جرت الأمور على نحو ما تجري في أحلام الناس. سيارتها غارقة وسط الحشد وقامتها البيضاء الممشوقة وفاء، وصوتها الهامس في مذياع "صوت القاهرة" امتنانا.. أود أن أشكر ما تقوله ليس مهمًا، لكن الناس عرفوا صوتها، صوتها المكتوم قليلا، لكنها هي وهذا صوتها، يسمعون ويعلو صراخهم وترتفع الأذرع تهليلا، لقد زال الألم إلى الأبد، أما أنا فأصبحت لا أصدق، وتلك الإيماءة التي لا مثيل لها، حين ترمق الناس مطرقة بكبرياء وخضوع، ساكنة بلا حراك، إنها هنا بيننا مفعمة بالحياء.

عانقت سعدية، وسكنت إلى حضنها، كأنه الموطن الذي عادت إليه كانت ردهة الاستقبال تغصُّ بسلال الورد وأكياس ملأى ببرقيات التهنئة، وأُصص العسل المغلقة بإحكام بأيدي الفلاحين، ومثل عددها نُقل إلى رفوف حجرة المؤن. أرادت أن تغني على الفور، متلهفة لاختبار حنجرتها

المتعافية. وأصرت على الجلوس وسط كل هذا الهرج. وجلست. وتدفق صوتها صافيا مُفعما بجشّة لم يعرفها من قبل. غنّت لنفسها، وكلما أطالت في الغناء استوثقت، وجادت مجوّدة نغمة، متنقلة بيسر بين الطبقات، بالغة أقصى ما يُبلغ. كان ذلك الصوت هناك.

هرع القصبجي لمصاحبة غنائها منحنيًا على عوده. فاستغرقت في الضحك. ثم بكت. "سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها"، قصيدة أحمد شوقي الصوفية، بالطبع. بدا وجه "حسنين باشا" مشرقا مبتهجا. لقد استعادها البلاط سالمة وسوف تواصل ما بدأته. كان محمود الشريف واقفا في آخر الصالة، يرمقها بنظرات ساهمة محمومة، هو الذي عهدناه أنه شخصية متطلّقة مرخة. ورحت أحدق به بغبطة غامضة. ولذة تريد به سوءًا، أدركت ذلك و لم أحجم. إذ بدا لي وكأنه ذاق طعم المر، واكتشف كيف يكون، لكنه ما زال في بداية الطريق.

عند منتصف الليل طلب "حسنين باشا" من الجميع أن يغادروا، لأن السيدة تريد أن تستريح. لكنها تشعر بنشاط غير عادي، ولن تقدر على النوم، فالليلة ليلتها. رضخ لرغبتها حانقًا وغادر مصحوبا بمعيّته. فاستعادت كل طاقتها، وابتساماتها التي نعرفها، فما عاد شيء يحول دون أن نُكمل السهرة في جو حميم، وغنت حتى الفجر.

حاولتْ أن تتصل بي، في المكتبة ثم في البيت. و لم أعاود الاتصال. واتصلت مجددا فتركتُ الهاتف يرن.

دعتني هدى لتناول طعام الغداء في مطعم وسط المدينة، و لم أستطع

أن أرفض دعوته، ورأيتها مقبلة نحوي بثوبها الخفيف، واثقة الخطوات، نحيلة الجسم، كأنها ازدادت رقة. حدثتني وكأن كل شيء قد انتهى بيننا، كأن قصتنا أصبحت من الماضي، وينبغي أن نتفاهم من أجل الأولاد. كانت تتحدث بطلاقة، وبشيء من المرح غير أني لم أكذب إحساسي.

ما إن سلكت الشارع الذي أقطن فيه، حتى رأيت محمدًا مغادرا بيتي. ورأيته مقبلا نحوي أنيقا، وعلى عجلة من أمره كالعادة. وقبل أن تلمحني عيناه بثانية واحدة التصقت بواجهة أحد المحال متواريا فمر من أمامي دون أن يراني.

عند العاشرة مساء نزلت من البيت، رغبة مني في القيام بجولة قصيرة. التقيت بسعدية على السلم، فأُسقط في يدي وعُدت أدراجي معها.

– لم كففت عن المجيء، لم تمتنع عن الاتصال بي، لقد اتصلت بك مرارًا، إنها في حاجة إليك!

– إنها لا تحتاج أحدا.

– ما الأمر؟

– غداة عودتها من الخارج جاء "حسنين باشا" وعم الملك إلى الفيلا. كلاهما.

– وما كان غرضهما؟

– قالا: لقد تزوجتِ هذا الكمنجاتي دون أن تخبري أحدًا، لا ندري كيف تدبر الأمر، فقد كنت مريضة ونحن نفهم ذلك. لكنك لست امرأة عادية. أنت صوت مصر، أنت مصر. وبالنسبة لنا هذا الزواج لم يتم. وإن تم فعلا، فما عليك إلا أن تطردي هذا الرجل

من حياتك بتكتم شديد.

- ...

- إنهما متنفّذان جدا. وأمهلاها عشرة أيام لا أكثر، وإن أصرّت على موقفها، فالإجراء بسيط جدًا، يكفي أن تُمنع من الغناء عبر الإذاعة لكي تختفي من الوجود.

- وما كان قرارها؟

- أرادت أن تناقش الأمر معك. مهلة العشرة أيام تنتهي غدا. وسيأتيان إليها نحو الظهر، وأخطراها بأنهما سيصطحبان شيخًا لإجراء معاملات الطلاق.

- ولكن، مَن أكون أنا، وكيف لي أن أضع حدا لما يجري؟

- أنت لا تدرك الأمر جيدًا. إنه الرجل الوحيد الذي أحبته في حياتها.. أقصد على هذا النحو. غير أن غرامها لا يمكن أن يكون رجلا.

- إذًا اشرحي لي، ما عساه يكون هذا الغرام؟

صرختُ في وجهها. فلم تُجب. وبتُّ عاجزا عن تمالك غضبي. وبعد هنيهات من الصمت، قالت بصوت خفيض.

- إذًا، أتريدني أن أغادر؟

- قاومت بكل ما أوتيت من قوة.

- يا سعدية، لا أستطيع أن أعينها بشيء فهذا الأمر يؤلمني أكثر من طاقتي على الاحتمال. قولي لها إنك لم تجديني.

جاءتني هي، شخصيا، في اليوم التالي، نحو العصر. جاءت إثر المعركة

مهزومة. بدا ثوبها الرمادي قيدًا عليها، تحجبُ عينيها بنظارة سوداء تود لو تنشق الأرض وتبتلعها. رجوْتها أن تدخل فصفقت الباب وراءها. طلبت مني أن أسدل الستائر، فالضوء قوي جدا. أسدلتُ الستائر نافذة تلو الأخرى. وكانت هي هنا. جالسة على طرف الكنبة. إذ سبق لنا أن انفردنا، نحن الاثنين، في جلسة مثل هذه.

رفعت رأسها ساهمة العينين. كأن شيئا لم يحدث، فالمفروض أن لا أعرف شيئا. جاءت لتناقش معي موضوع حفلتها المقبلة، وهذا ما دفعها للمجيء، فستقام الحفلة بعد خمسة عشر يوما.

– لقد نظمت قصيدة، سأقرأها عليك.

– لا تتعب نفسك، أعرف تماما ماذا سأغني.

صوتها متعب. وفترات من الغياب التام في نظراتها، تتكلم باذلة ما أمكنها من الجهد، كأنها تقف على شفير ما تقول.

– يجب أن أعمل، أحتاج أن أعمل. فهذا أفضل ما يمكن أن يفعله واحدُنا.

– ...

– أريد أن أغني "رباعيات" الخيّام.

– ...

– أشعر بأني أصبحت مهيأة لمثل هذا العمل. بلاهة المحرمات الأرضية. ومديح السبيل الفرداني نحو؛ إني لا أرى ما قد أغنيه سواها.

رفعت نظاراتها. ما عادت تُغضي. كنت لا أزال واقفا، ودون تفكير

نلوّث هامسا:

- "أولى بهذا القلب أن يخفقا / وفي ضرام الحب أن يُحرقا..".
- "ما أضيع اليوم الذي مرّ بي / من غير ان أهوى وان أعشقا"، أرأيت لقد حفظت الأبيات.
- أما عدت خائفة؟
- وممَ ينبغي أن أخاف.
- من سَدَنة الايمان، من سَدَنة القانون، وهم بأية حال أشباه. لقد شتمهم الخيام في رباعية من كل اثنين. سوف تُهاجمين، كما هوجم هو، من قِبل المتنفذين وفقهاء الدين وحتى من قِبل قسم من المعارضة. لن يقبلَ الإخوان المسلمون أن تغني الثمالة، سيتهمونك بإضعاف الشعور بالتسليم، والتسليم هو الإسلام.
- التسليم بالله وحده، بلى.
- "ولذّتي في شربها ساعةٍ / تعدل في عيني جنان النعيم / إن دارت الكأس ولذّ الشراب / فكن رضيّ النفس بين الصحاب". هل تغنين هذه الأبيات؟
- لا.
- أترين. لم ينته شيء بعد.
- ماذا تريد، ما الذي تبقّى لي؟
- إنك تغنين قصائد أحمد شوقي والناس يسمونك "راهبة الإسلام" الشعب يُصغي إلى أغانيك طول الليالي، لأنك تواسينه في بؤسه الأسود. وما من أحد أو شيء أعلى مرتبة منك في عينيه سوى

القرآن الكريم.

– سأغني "الرباعيات".

كانت مشدودة الأعصاب على وشك الانهيار. فجلست متمهلا قربها.

– "لبست ثوب العيش لم أستشر/ وحرت فيه بين شتى الفكرِ/ وسوف أنضو الثوب عني و لم/ أدرك لماذا جئت أين المفر".

– أسمعني أيضا وأيضا.

– "القلب قد أضناه عشق الجمال/ والصدر قد ضاق بما لا يُقال/ يا رب هل يرضيك هذا الظما/ والماء ينساب أمامي زلال".

ردّدت من بعدي، "يا رب هل يُرضيك" الأبيات وحدها أتاحت لها أن تبوح بما يُطبِق على صدرها. استكان جسمها فلمُّته بين ذراعيها. وتلوت المزيد.

– "هبُّوا املأوا كأس الطُّلى(*) قبل أن/ تفعم كأس العمر كف القدر".

– ربما ينبغي أن أكتفي بعبارة (كأس المنى) بدل كأس الطلى، أتعتقد أن الأمر ممكن؟ فالمعنى لن يتغير وسأغنيه.

– "أطفئ لظى القلب ببرد الشراب/ فإنما الأيام مثل السحاب".

– سأقول: "أطفئ لظى القلب بشهد الرضاب/ فإنما الأيام مثل السحاب".

كانت تسأل مذعورة مثل طفل. أخذت راسها، وبعد صمت، همست:

(*) "الخمر".

"بلى، مثل السحاب تمضي. وكم أود أن أملأ كاسي قبل أن تملأها كف القدر".

تركتُها لصمْتها. كانت مهيأة للاستسلام إلى تلك الكآبة الساخرة التي تلتهمها، والتي يغلب عليها هاجس الموت وهشاشة الحياة، مهيّأة لذلك الجنون المرعب الذي يجذبها كقرينة له، لأن تغرق فيه، شريطة أن يُسمع بصوتها.

قالت: أجل. بعد كل تلك السنوات. بعد أن ضاع كل شيء. قبلت الخيّام في عمق روحها. بعد أن هجرها الجميع، بعد أن هجرني الجميع، أصبحت قريبة بهذا المقدار. إذ لم يعد لدينا سوانا في هذا العالم.

5

على جاري العادة كل صيف، يهجر أفراد الأسرة المالكة والحكام قيظ القاهرة للإقامة في الإسكندرية، العاصمة الثانية. وبمعيتهم ينتقل إليها كل الذين يملكون ويقودون هذه الشرائح من الناس التي تظن أنها العالم. وخلال شهرين تُترك القاهرة لسكانها، الغُفل، الحقيقيين، وهم ملايين من البشر. يمتلكونها لبعض الوقت، عندما يشيع القيظ لديهم إحساسًا موهومًا بالعطلة، حتى لهم. وأنا منهم، إذ أرفض أن ألحق بالهجرة الموسمية. هذا الخواء يلائمني، وكذلك الصيف حيث من المفترض أن لا يحدث شيء.

انتقلت، هي أيضا إلى الإسكندرية. وغنت "الرباعيات". ولم تبدل

التعديلات الطفيفة التي أجرتها على كلماتها شيئا من حجم العاصفة التي هبّت على الإثر ضدها، وضدها هي بالذات. لم تسع إلى إيجاد الأعذار والمبررات. فأبيات الخيّام جزء من تاريخ البشرية، لكنها أيضا اليوم بالذات تبدو مشبعة بالحمى، التي تسري أيضا في عروقنا. ومن يشعر بالإساءة هم الذين لا يفقهون شيئا من الحب، هم الذين يدوسونه بأقدامهم. لقد اختارت الاستفزاز، طوعًا وبغبطة مفرطة، لا بل انتحارية. ليس أمام هؤلاء إلا أن يقتلوها، إذا واتتهم الجرأة. وما لبث "حسنين باشا" أن ألغى الحفلة التي كان ينبغي أن تحييها في القصر الصيفي. وبدل أن ترضخ للأمر الواقع، اختارت أن ترفع التحدي، فاستغلت السهرة المذكورة لتغني "الرباعيات"، في حفل مجاني، في أحد مسارح الإسكندرية الشعبية. لم يشن البلاط حملة مباشرة عليها، بل اكتفى بالتلميح إلى أنها ستُمنع في الإذاعة فور انقضاء العطلة. كان البلاط يستخدم بذلك نفس السلاح. رضخت في المرة الأولى، وتخلّت عن شريف. فالحقيقة أنها لم تكن تحبه بالمقدار الذي يحثها على المقاومة. غير أن رضوخها الأول أذاقها المر، والآن تريد الحرب. وكان ذلك أفضل ما قد يطرأ على علاقتنا. هذه الخاتمة الرؤياوية، لها ولي أنا، بسبب ترجمتي "رباعيات الخيام" تحديدا، هذا التمرد.

كنت وحدي وكانت المدينة وحدها. لم يسع أحد لانتشالي من كآبتي الشهوية ربما. وكانت هدى قد رحلت برفقة الأولاد، ولا أدري حتى إلى أين. طعم الشاي الرتيب عند طلوع الشمس على الشرفة، وطراوة النسيم الذي يبدو كأنه وافد من ساعات الليل الأخيرة، وصوت الراديو الخفيض،

لا أريد شيئا آخر.

الراديو. موسيقى عسكرية يبثها الراديو. البلاغ رقم واحد. "لقد استولى الضباط الأحرار على السلطة دون إراقة دماء أو عنف خلال ليلة 23 تموز/ يوليو 1952، المنصرمة. الثورة تسيطر على البلاط ومبنى الإذاعة ومبنى الحكومة وقصر القيادة العامة للقوات المسلحة. يا أبناء شعبنا البطل.." انقلاب عسكري! لقد استولى العسكريون على المواقع الشاغرة للسلطة! أصوات بعيدة، صراخ أولاد، صدى مياه تتدفق من السيفون، صمت، كأن أحداث القصة تدور في بلد آخر. الشمس ساطعة في السماء، إنه يوم عادي من أيام الصيف.

هرعت إلى الهاتف. يُجيبني عامل المقسم بصوتٍ متدافع، أنه يعمل وحيدا والاتصالات كثيرة، وأن جنودنا يحيطون به لكنهم لا يجيدون توزيع المخابرات، وأن رفاقه جميعا نزلوا إلى الشارع، وهو يريد اللحاق بهم. تمكنت بعد جهد، من إملاء الرقم والعنوان عليه: فندق سيسيليا، الإسكندرية، الغرفة رقم 36. أجابني، أن انتظاري سيطول، فنزلت إلى الشارع.

طالعتني وجوه الناس في الشارع، حائرة، كان الخبر أنهضها عنوة. من هم هؤلاء العسكريون، وما الحكاية؟ وراح كل منا يتتبع خبرًا أو معلومة بحسب المستطاع. كانت أعداد الناس تتزايد في الشوارع مع تقدم ساعات الصباح، تحتشد في الساحات، وتتدفق كالسيول في الشوارع الرئيسية. علائم بهجة حائرة تنتهي من هذه المجموعة أو تلك، ثم لا تلبث أن تستدرك فتُكتم. كان الجميع يسيرون في كل اتجاه. دبابات متمركزة

عند التقاطعات الإستراتيجية، إذًا الخبر صحيح. كان الناس يمدون أيديهم لمصافحة الجنود الذين أطلوا من أبراج الدبابات وكواتها، وهم أبناء لهم أو إخوة، وليسوا أقل ذهولا منهم.

مقابل وزارة الدفاع، عند الساحة، كان الصمت يخيم على الحشود. حتى الدبابات بدت وكأنها انجرفت مع مياه هذا البحر الهائل، غافلة عمّا تصنع. لا شعارات ولا يافطات، بل إن الذهول الفاغر حيال السهولة الظاهرة، لنجاح انقلاب عسكري قد أخرس الناس في حيرتهم.

تسلق أحد الضباط برج إحدى الدبابات التي تحرس المكان حاملا مكبر صوت وقال: "باسم مجلس قيادة الثورة.." كان مُنهكا لم ينم، بالطبع منذ بضعة أيام. البؤس، الفساد، الإذلال، وحرب فلسطين، كان صوته المجهد صادقًا. وراحت الحماسة تستحث الحشود، كأن إعصارًا سياتي. صرخ الضابط: "منذ بضعة أشهر اجتحتم شوارع القاهرة، وأشعلتم النيران، مئتين وسبعا وسبعين محرقة في يوم واحد، ثم عرقلتم وصول رجال الإطفاء. ولقد أدركنا، نحن أولادكم في القوات المسلحة، مأساتكم. فما بدأ به الشعب آنذاك، نستكمله اليوم. لن يكون المحتل الأجنبي سيد القانون في مصر، ولن يكدَّ الفلاح لصالح المالك الغائب، وستكف المحاكم عن انحيازها لرب العمل ضد العامل، وستكون البلاد حرة في أن تنمّي نفسها وأن تنفتح على العالم..".

لم يُستجب للكلام بأية حماسة مفرطة. وجوه العمال ذاهلة، تحاول أن تدرك وتقتنع، الكلمات جميلة جدا، غير أن الابتهاج عيد قد لا يكون

من اليسير العودة عنه.

اجتمع عدد من الملتحين على مقربة من الدبابة. وما إن أنهى الضابط كلامه حتى صرخوا معا: الله أكبر، النداء الشعائري، الذي تردّد بوتيرة الأنفاس، والقبضات مرفوعة نحو السماء. إنهم الإخوان المسلمون. واستجاب الحشد للنداء، فامتد الصراخ إلى ناحية بأكملها وسمعته. ارتفعت الرؤوس والأيدي. الغضب المتراكم عاما تلو عَام، الحرمان، كل ما تخفيه الصدور، آلاف من الصدور، يصرّحُ عنه في صوت جماعة. الله أكبر من الفرحة والألم، من الحياة والموت، أكبر من كل هذا على الدوام. هذه الصرخة المعتادة التي تطلق تكبيرًا، يألفها الناس في تخاطبهم، كما يرتدي المرء جلابيته، وتتناقلها الألسن من جيل إلى جيل، ولا مجال للغلط فيها، حتى هذه الصرخة راحت تخفُت تدريجيا قبل أن يرين صمت، وكأنها تلاشت في لجة بحر من الحيرة. لم يُرفع شعار محدد، و لم يتمخض تدفق هذا الحشد الرائع عن أمر محسوس. الملك لم يُخلَع عن العرش بعد، بل تقرر أن تُعلَّق جميع صلاحياته، وشكلت السلطة الجديدة وفدًا توجه إلى الإسكندرية للتفاوض معه. ما يعني أن المعركة لم تُحسم بعد.

فيما كنت أهمُّ بفتح الباب، رن جرس الهاتف فارتبكت وما عدت أدري كيف أعالج المفتاح في القفل.

– هذا أنا، قال الصوت.

– إذًا بلغك النبأ. كيف الحال عندكم؟

– مريع. كأنه منع تجوال عام. إنهم يلازمون فنادقهم وقصورهم

مرتعدين خوفا. كان كل شيء ملكًا لهم، بما في ذلك صوتي أنا، "وبدرت منها ضحكة اغتباط". أشعر أني رهينة حصن الفئران، أرجوك إن كنت لا تزال صديقي، أخرجني من هنا!

- ولكن مَن يمنعك من المغادرة؟
- حجوزات الطيران! فقد اجتاحت حشود الهاربين المطار.
- ولكنك..
- قلت لك إنهم باتوا لا يعرفون أحدًا. إنه أمر رائع.

وتضحك مجددا بغبطة لا تضاهيها إلا غبطتي أنا. غير أن ضحكها يُمازجه شيء آخر، يمازجه التعب، ومشقات متراكمة.

- تدبري الأمر بأي طريقة وعودي إلى هنا. فالأحداث تجري في القاهرة.
- أخبرني عما يحدث.
- المدينة بأسرها يلفها الذهول، فمثل هذا الرجاء أكبر من أن يُصدَّق. لقد فاتني يوم الاستقلال وأحسب أن المدينة تمنحني أن اشهده مجددًا. بعد ثلاثين عاما تعود العجلة إلى دورانها المعكوس لتبدأ دورانها الجديد من نقطة الصفر، كأنها فرصة جديدة.

لم تجب. إنها لا تصدِّق. أو على الأقل هي لا ترى أنها فرصة جديدة لها أو لي. وما عدت أدري ماذا أقول. كان قلبي يختلج بخفقات لا يتسع لها صدري. فإن نجح هؤلاء العسكريون بانقلابهم، أصبحوا أول مصريين يحكمون مصر منذ عهد الفراعنة.

غير أن كل هذا لن يعيد لها الحب، ولن يُعيد إليّ الطمأنينة. فالواقع

مطور علينا، الأمل تحمله مناكب أخرى. وكان ثأرنا الوحيد، غبطتنا الوحيدة، ولكن البائسة، هي أن تتخيل حال الأسرة المالكة، عم الملك ، حسنين باشا، فقد حان دورهم لابتلاع غيظهم حتى الاختناق.

- هيا عودي بسرعة، إني وحيد هنا.
- سأحاول غدا في أبعد تقدير.

وضحكت مجددًا. وكل صباها اجتمع في تلك الضحكة، كل الحزن، كل التاريخ. قالت إنها ستقفل الخط فاستمهلتها.

- هناك أمر أخير.
- ماذا؟
- لا شيء إني سعيد.
- وأنا أيضا وسكتت، أتظن أن هذا الأمر حقيقي، أقصد لا أدري.
- إن شاء الله.

6

تمكنت من العودة إلى القاهرة. لزمت دارها لا تستقبل إلا قلة من الناس. كانت منهمكة في الإعداد لحفلتها المقبلة، فهي تفترض أن السلطة الجديدة لا بد أن تحيي حفلة عندما تستتب الأوضاع.

لم تكن دارية بشيء. منذ أربعة أيام لم تبث الإذاعة أغنية لها. غير أن

فكرة أن تكون مستبعَدة لم تخطر ببالها لحظة واحدة.

تنازل الملك عن العرش دون إطلاق رصاصة واحدة. وأصبح اللواء "نجيب" الناطق باسم الثورة المظفرة. كان عسكريًا ذا شأن، وبورجوازيا كبيرا صادقا مع ذاته، يحظى باحترام الجميع. وراءه يقف المقدم عبد الناصر، مهندس الانقلاب الحقيقي، وكنت التقيته ذات يوم. هو ونفر قليل من الضباط الآخرين، كانوا قد برزوا خلال حرب فلسطين، فدعتهم نجمتي إلى دارها، لكي تشكرهم على ما فعلوا. وها هم الآن يشملونها بالرقابة المفروضة على الإذاعة.

كان مبنى الإذاعة قد تحول إلى حُصن. دبابتان تتمركزان عند مداخله الأمامية والخلفية، وأحيط بأسلاك شائكة من كل صوب، وجنود يتمركزون في طبقاته كافة.

عادت القاهرة عاصمة للبلاد، حتى في الصيف. وكان مجلس قيادة الثورة يعمل دون كلل في مثل هذا القيظ كسائر الناس، ومثل هذا الأمر زاد من شعبيته بين الناس.

اتصلتْ بي هدى، وبدتْ هلعة قلقة. البُعد يجعل الأمور أشد وطأة. سألتني إذا كنت أريدها أن تعود، ولكني أدركت قصدها. أعطتني عنوانها و لم تنه المخابرة إلا بعد تردد طويل، وكذلك أنا.

وجدتُ الفيلا غارقة في صمت حداد، وبوابة الحديد مشرَّعة. شراشف بيض غطت قطع الأثاث جميعها. لقد علمت بالأمر. رأيت سعدية جالسة عند ركن في آخر الصالون، نهضت وتقدمت نحوي كأنها لا تعرفني.

– لا يوجد أحد، لقد غادر الجميع.

- ماذا تقولين؟ غادر الجميع إلى أين؟
- إلى "طماي الزهايرة" لقد طردتُ الجميع، طلبت منهم أن يغادروا على الفور، فهي لا تريد أن تراهم.
- أين هي؟
- ليست هنا!

هرعتُ إلى السلم الذي يؤدي إلى البدروم، سبقتني واعترضت طريقي بعد أن تشبثت بالدرابزين بيد وأسندت الأخرى إلى الحائط.

- ارحل. دعها وشأنها.

دفعتُها وهبطتُ السلم فهرعت ورائي.

- لا تريد أن ترى أحدا، حتى أنا!

تابعتُ طريقي.

- بأية حال هي ليست وحدها!
- من معها؟
- لقد أذلوها وجرحوها، هي التي أرادت أن تدعم الثورة بصوتها. لـِمَ لا تغادر؟

أسلمني الدرج إلى روائح القرية، اتجهت مباشرة إلى غرفتها. تناهى إليّ همس وحفيف أقمشة تُدعك. فتحت الباب. كانتا في السرير. عرفت الفتاة على الفور. إحدى مذيعات الراديو التي أجرت معها حوارًا في الإسكندرية. فراش على الأرض ولا شيء آخر، خواء. لقد اختارت هذا المكان، حيث لا شيء يجرح، الرَّحم الذي تستمد منه كل قوتها الغامضة. امرأتان مستلقيتان تحت الغطاء الخشن، في سكون غريزي. لم يزعجني

الأمر. بل أزعجني أمر آخر. أن يكون رد فعلها على هذا النحو. أمام الاختبار، أن تطرد الجميع وتنعزل في الطابق السفلي، لتستعيد مناخات أصولها الريفية.بمثل هذا اليأس وبمثل تلك اللذة. الغرفة المعتمة. ليكن، ربما كان عليها أن تتلقّى الصدمات، وأن تُرذَل في عمق ذاتها، وتُستبعد من كل مكان. ولكن ليس هذا التخلي الأسود.

وقفت لا أحرّك ساكنا. راحت المذيعة ترمقني بثبات، وكنت بالكاد أميّز ملامحها. أما فلاحتي فغطت وجهها بباطن مرفقها. عندها، رحت أكلمها برفق، وأذكّرها بكل ما غنته خلال السنوات الأخيرة، وإلى أي جانب اختارت أن تكون. حدثتها عن صوتها، عن روح الشعب التي تنبض على وتائره، وأنها أرقى مرتبة من كل ذلك، أجمل صوت في العالم، وأن اسمها سيبقى لامعًا حتى حين تغرق أسماء الملوك والضباط في النسيان. لم تُجب لكنني أحسست بأنها تُصغي، ذبذبة ما في الهواء، فثمة ما يجعلنا لصيقين كذات واحدة، وقفت طويلا في عتمة البدروم، أهمس كلاما أريد أن تسمعه، حتى رفعت الغطاء عنها.

– إن حكايتنا ممزوجة باحتضار الأمل، ولا أحد يحتاج إلينا. عُد إلى بيتك.

كان جسدها مرتعدًا لا طاقة له على احتمال كل هذا الغضب. وبُحّ صوتها.

– أتعتقد حقا أن بإمكانهم منْعي من الغناء إلى الأبد؟

لم أضطر للرد عليها.

جاءت سعدية راكضة. الهاتف. الخط الخاص. نهضت بسرعة،

. . ها إلى غرفتها في الطابق الأول. وطلبت مني التصنُّت عبر السماعة
. . الهة:

المقدم عبد الناصر، قال صوت جهوري مُحبَّب.

لقد رفعت رؤوسنا عاليا، قالت بقدرة مذهلة على تمالك نفسها.

راسك لم يكن يوما إلا مرفوعًا، أمام الله.

صمت. ثم يقول:

أقول لك ذلك بصدق، ولطالما آمنت بالله، منذ أكثر من سنة كانت اجتماعات قيادة مجلس الثورة تُعقد، سرًا، ليلة أول خميس من كل شهر. فبذلك نطمئن لأن الجميع ينصرفون إلى سماعك. صديقك الصحافي مصطفى أمين يجلس الآن قبالتي. لم يبلُغني شيء من قبل هو الذي أخبرني الآن. واتصلت فورا بمدير الإذاعة وقلت له بأن النيل والأهرامات كانت موجودة في ظل النظام البائد، ولا أعتقد أن هناك نية في منعها.

– إنكم تضعونني في مكانة لا أستحقها.

– ستكون مكانتك أعظم وأعظم. لقد كنت صوت مصر، وستجعلك الثورة صوت العرب. في مواجهة العالم بأسره، وسوف ترين.

7

كانت الصالة محاصَرة بالجنود ورجال الشرطة المدنية، ذوي النظارات السوداء، من كل صوْب وناحية. بدت غريبة، الصفوف الأولى يحتلها عسكريون بلباسهم النظامي، أعضاء قيادة مجلس الثورة بأكملهم تقريبا، وثمة صف من الكراسي الشاغرة، يفصلهم عن الجمهور الذي احتشد في الصالة، وناءت به الشرفات معبرًا عن فرحته التي لا توصف بانتظار فتح الستارة. كانت المقصورات الخاصة ومقاعد النخبة وغيرها، قد فُتحت أمام الحشد الوافد من الأحياء الشعبية والضواحي، وشيئا فشيئا صارت الأمكنة لهم، كأنها دائما كانت لهم دون أن يدروا. بدا الأمر أشبه باحتلال الأوبرا، أو بالأحرى استعادتها من قِبل أصحابها الفعليين، الذين جاءوا لسماع شعرائهم وملحنيهم. في برنامج الحفل نجمان فقط، ولكن أي نجمين. افتتاحًا، يبدأ الحفل بمحمد عبد الوهاب، واختتامًا بكوكب الشرق. لقد أدرك الحُكم الجديد ما العمل.

تحايلت على رجال الأمن وعبرت. وبدت لي عينا سعدية المرتابتان عبر فتحة الباب. استمْهلتني ريثما ترتدي الصغيرة معطفها، إذ ينبغي ألا يرى أحد ثوبها، وإلا كانت علامة شؤم. طالعتني النجمة وسط مقصورتها بتاجها الذي يزيّن شعرها، كبرج، كوثن، وبنظراتها القلقة.

– كيف تراني؟

قالت دون أن تغادر عيناها صورتها في المرآة.

– أنت رائعة!

هزت كتفيْها. أعلن مكبر الصوت الصغير في المقصورة عن افتتاح

الستارة في غضون خمس دقائق. فقبّلتُ يديها.

- كم من الوقت برأيك سيستمر غناء محمد؟
- اهدئي، لن يحين دورك إلا بعد الاستراحة. وسيكون كل شيء على ما يرام.

تشبّثت بيدي.

- أتعتقد ذلك فعلا؟
- بالطبع. لا تبالِ. سأكون في الصالة. دعيني أذهب.. ستفوتني المقدمة.
- انتظر. انظر إليّ مرة أخرى.

كان ماكياجها يلمع قليلا.

- لا تبدّلي شيئا مما أنتِ عليه.
- ولكن ربما ..
- لا شيء، أؤكد لك. يجب أن أذهب الآن.

كانت الكواليس تعج بإمدادات الإضاءة وأجهزة الصوت، وتقنيي الإذاعة. وكان وجودي هناك يُربك حركتهم، فأمروني بالبقاء حيث أنا. رأيت محمدًا جالسًا أمام العازفين قبالة الستارة المسدلة. ودون أن أعي ماذا أفعل، تقدمت منه فأشار إليّ بيده. ثم جاء مدير المسرح ودفعني باتجاه ثنيات الستارة التي فتحت في تلك اللحظة.

بدت الصالة. تقدم محمد في العتم حاملا عوده. إنه صديق المراهَقة وهو اليوم في الخمسين، أصلع الرأس تقريبا، لكنه هنا. لطالما كانت

موسيقاه حاضرة على الخشبة عامًا بعد عام. "نشيد الحرية" أغنية كان قد لحنها غداة حرب فلسطين ومنعها الملك فاروق. مشاغب، حاد الطباع، إبن البلاط المدلل هذا، وشهد صورته تتبدَّل في اللحظات الأخيرة: وها "نشيد الحرية" قد أصبح اليوم نشيد الثورة.

وأنشده على الخشبة للمرة الأولى، ومعه الحشد والتهليل، بعد انتظار طويل. فالانطلاقة الجدية، الانطلاقة الحقة، تحدث هذا المساء، كانت المناسبة أكثر من مجرد حفلة، فالأضواء وحماسة الجمهور تحتفل بانطلاقة جديدة مذهلة، نحو العهد الذي سيصالح الجميع مع أنفسهم. لم يمض على قيام الثورة سوى شهرين، وقد وفُت بوعودها. ومشروع تحديد الملكية الزراعية بتسعين هكتارا لا يحتاج لأي تفسير: إنه يعني مصادرة أملاك كبار الملاكين ومنحها للفلاحين. فملكية قطعة أرض في وادي النيل أو الدلتا، قد تعني الخروج من عتمة الزمان.

كان محمد يغني تلك الحرية، فيهتز الجمهور طربًا. أما أنا فكنت أود، خلف ثنيات الستارة لو أشارك بالوعد، من كل كياني، غير أن شيئًا ما كان يُبقيني خارج المعمعة. فهذه الحماسة المهتاجة أمام عيني تسبر فراغ حياتي. تنقصني إشارة ما، لا أدري، ربما هدى زوجتي. جاءت اليوم وتركت الأولاد معي. أمضيتُ فترة بعد الظهر ألاعبهم، ذريعة لألمسهم وأتحسس جسومهم التي تنمو، ثم عادت لتصطحبهم فركضوا إليها. أحيانا نترجّل من قصة كما نترجل من قطار، وندرك فجأة أنه واصل رحلته من دوننا، وأنه أصبح بعيدا.

احسستُ بيد تجذبني من كُم سترتي. لم تُطق صبرًا على الانتظار في

مصورتها، وإذ جذبها التصفيق كالمغناطيس فجاءت خلف الكواليس، هي، وحيث يقف محمد منشداً!

- سأغني قصيدتك. وبذلك تكون معي.

احنيت رأسي. بقي جسدها لصيقا بي من الخلف وأنفاسها المضطربة على عنقي. أما محمد فقد استجاب لطلب الجمهور وغنى اغنية أخيرة قصيرة. فأصغينا إليه واقفين في الركن المعتم دون حراك.

حين شرع العازفون يرتبون آلاتهم، امسكت بيدي وقادتني إلى فتحة الستارة المُسدلة، ثم فتحت طرفيها المخمليين الثقيلين، قليلا وقالت:

- هيا قل بسرعة مَن هو من.

أشرت بإصبعي إلى اللواء نجيب، جالسا في الوسط وقد زينت سترته الأوسمة، ساخطًا لا يزال وقورًا وساخطًا. فخلال حرب فلسطين كان هو من يُرسل المقالات الموقعة باسم "الجندي المجهول" منددًا فيها بالبلاط واصفًا إياه بأنه المسئول الأول عن الهزيمة، كل شيء بدأ خلال تلك الحرب، ففي فلسطين تعرف الضباط إلى بعضهم البعض والتقوا. أشرت أيضا إلى السادات وعبد الناصر وعامر. فتراجعتْ قليلا كأنها تستكشف ميدان لعبتها الجديدة، وشركاءها الجدد. كأن نفخًا أحيا جسدها، لمجرد أنها فكرت في ذلك، وتملكتها رعشة غريبة نقلت عدواها إلى جسمي الملتصق بها. لم تع حقيقة الأمر. كان فكرة الثورة الماثلة أمامها والقرب من السلطة قد بثّا في روعها حماسة شهوانية، غريزية، جعلتني أستشعرها لمسًا دون أن تدري. رمتْ بثقل جسمها على صدري. فارتبكت متراجعًا إذ لم

أشعر يوما أنني وحيد إلى هذه الدرجة. ثم ضحكت وقالت همسًا:

– انتبه! إنهم ينهضون من أماكنهم.

وابتعدت قليلا.

– سأتوارى.. إنهم قادمون إلى الكواليس.

وقفتْ جامدة أمام الجمهور، باسطة ذراعيها، مبذولة الكيان بغبطة خفية. ثوب أخضر مقوَّر، لون الإسلام، وحلي وتاج، ولكن لا شيء قد يكون هو الأجمل في مثل هذه المناسبة. خلف الكواليس كان عبد الناصر قد عانقهما، هي ومحمد، وأراد أن يقطعا له وعدًا بأنهما سيعملان سويًا. "بإمكانكما أن توحِّدا الشعب. وهذا أكثر ما يحتاج إليه هذه الأيام". أبدى محمد حماسة ظاهرة، في حين اكتفت هي بأن أطرقت. كعادتها. لم يتبدل شيء فيها.

غرام حياتها، أشارت بيدها إلى القصبجي، وبسطت يدها حاملة منديلها. غير أن الجمهور كان في حال هياج لا توصف. ما كان باستطاعته أن يلجم حماسته، وحين تلزم فئة الهدوء، تنطلق فئة أخرى بهرج يطغى على كل شيء. تضحك دون حرج، فيضاعف الجمهور تصفيقه. إنها امرأة، الاسم الآخر لمصر. لعبة مرايا غريبة بينها وبين الجمهور، نحن مصر، وأنت مصر.

بدأت الأوركسترا عزفها. "مصر التي في خاطري وفي فمي.."

، اضطرّت إلى التوقف عن الغناء حيال هذا الهياج الذي يصرخ: "تحيا
مصر" يرددها الجمهور ثمالة. كانت الأفواه تصرخ: "الله أكبر!" ويسود
هرج موقّع كأن الحشد كتلة واحدة. فانحنت استجابة لتحية الجمهور،
وإذا بالتهليل يصبح أشبه بمهرجان تمرّد. فكسرت الحلقة المفرغة وأنشدت:
"مصر التي في خاطري وفي فمي.. (ماجت الصالة مرة أخيرة..) /أحبها
من كل روحي ودمي/ يا ليت كل مؤمن بعزها/ يحبها حبي لها/ بني
الحمى والوطن/ من منكم يحبها مثلي أنا". كان من المفترض أن تردد
الجوقة مقطعاتها، فقد وضع السنباطي لحنا مدروسًا بعناية، ووزعه على
أدق ما يمكن أن يكون، غير أن الجمهور في ثمالته وطربه طغى على
التوزيع، وراح يردد ببعض التأخير كلماتي التي كان يقرأ ألفاظها على
شفتيها: (كورس): "نحبها من روحنا/ ونفتديها بالعزيز الأكرم/ من
عمرنا وجهدنا".

أما أنا فما الذي افتديته بأولادي؟

8

كل ليلة كانت الفيلا تعج بالبزّات العسكرية. قبعات الكاسكيت
مصفوفة عند المدخل، كأننا في اجتماع لهيئة الأركان. كانت قيادة الثورة
قد أنشأت تعاونيات لتوزيع الأراضي على الفلاحين، وشرعت في تطبيق
برنامج التعليم المجاني والإلزامي، وسنّت قانونا يرفع السن القانونية

لتزويج الفتيات. انقلاب هائل يوازي كل ما حلمنا به منذ الاستقلال. غير أن هذا لا يبرر اضطرارنا للعيش محاطين بالجنود.

شهد العالم العربي سقوط فاروق. وكان ملك العراق يرتعد خوفا، وملك السعودية ومعهما الإنجليز والفرنسيون. ذلك أن مصر اختارت أن تكون برأيهم المثل السلبي، فراحوا يهاجمونها دون هوادة، ويطلقون عليها أشنع التسميات. ولمجرد سماعي ما يقولون، أنحاز للثورة. وكنت منحازًا لها. لا بل كنت مستعدًا للدفاع عن معظم قراراتها الحاسمة، كالإصلاح الزراعي وسواه. غير أني لم أكن أشعر بالارتياح معهم. لا هم ولا سواهم بأية حال.

ادركت الأمر حين بدأت أكره شقتي. فرحت أمضي سحابة نهاري في المكتبة، وأحاول، ما استطعت، أن أؤخر موعد عودتي إلى البيت. ولكن أين أذهب في الأثناء؟ فمحمد منغمس في علاقة غرامية جديدة، والقصبجي يمضي أوقاته مع العائلة، حتى المقاهي ما عاد يرتادها أحد ممن أعرفهم، وإن عرفت واحدًا منهم أسارع إلى مغادرتها. لذا أضع قبعتي البيريه على رأسي وأسير في نزهات طويلة وحدي. أستهلك أحذيتي على أرصفة الميناء، وأقتعد الدكات الخشبية في المتنزهات. تغيرت القاهرة، أصبحت أشد ازدحامًا، وأكثر وسخًا، وأصدق واقعًا. مكثت على هامش الإعصار، غير مبالٍ، غير موجود، لا يثير فضولي شيء. أنتظر اليوم الذي تأتيني فيه هدى بالأولاد لقضاء ساعات ما بعد الظهر بحضانتي، وأهيئ نفسي لاستقبالهم، لكي لا يروا ما صرت عليه.

هدى، جسد هدى، وأستيقظ منتصف الليالي وغيابها بين ذراعي.

. ا،ها الذي يلتصق بجلدي وأتحسسه تنمّلا مبهجًا وأليمًا. راسي مُلقى
،ل، الوسادة، في العتمة المستدامة أرى أطياف المشاهد القديمة التي
. ها بشيء من السهو غير أن حواسي، تستذكرها جيدا. هدى لقد
ا.ـي بالكلية إلى العالم كما كانت، كما لم أرها، أبدا من قبل، كانت
. ا وفقدتها.

في الأمسيات القليلة التي أقصد فيها الفيلا، كانت نجمتي تستقبلني
.. ارة، بكثير من الترحيب والحرارة. كما لو أنها مدينة لي بشيء
، ونخلّت عني. وحين تفعل كأنها لا تكون ذاتها، فلها اهتماماتها
.' حرى. ومع ذلك تحاول في الاتجاهين. كنت ألزم ناحية الظل حيث
ا مي الطموحون المغضوب عليهم. و لم أكن لا من صنف هؤلاء ولا من
صـف أولئك. كنت لا شيء، مجرد غلطة. وكانت تسعى في غمرة تلك
الأنوار، باسمة، منطلقة، طيفا ملونًا وحيدًا وسط جمهرة الخاكيّ تلك.
احيانًا يحملني وهمي إلى الاعتقاد بأنني لمحت في عينيها نظرة حيوان
مريح. كانت غارقة في اللعبة، لا بل في معتركها. فالنظام البائد أفسح
لها مكانة وحفواة، غير أن قادة الثورة هم من الفلاحين، ويتحدرون من
نفس تربتها. لقد استولت طينتها على مقادير السلطان، واجتمعت لديها،
عشيرة من الذكور، حصرًا، في أعينهم الخطيبة، المرأة والأم الوحيدة.
وحسنا فعلت، فلن أنتمي دهري، إلى هذه اللعبة.

لو سُئلت: لما أخفيت انحيازي إلى اللواء نجيب الذي وعد بأن
يرخص للأحزاب التي حُلت بالعمل مجددا وغداة الانقلاب، ووعد
بإلغاء الرقابة والعمل على إجراء انتخابات نزيهة. ربما لأنني من أهل

المدن قلبًا وقالبًا. لم تجر الرياح كما يشتهي نجيب، واستطاع عبد الناصر وضباطه أن يفرضوا الحل.

وسط الليل يرن جرس الهاتف. اسمع صوت سعدية منتحبًا، وأفهم أن الشيخ خالد قد وقع أرضا فجأة. كانت بمفردها والصغيرة في أمريكا، ذهبت إلى هناك لأنها نالت جائزة. ارتديت ملابسي. دون جدوى. فقد مات بنوبة قلبية، لم أحبه أبدا، لقد أمضى حياته مستغلا تعلُّقي بشقيقته. حتى على فراش الموت، محاطا بأطباء هرعوا بعد فوات الأوان، لم أتمكن أن أحظى بوده. ومكثت سعدية طوال الوقت متشبثة بذراعي، لم أمعن في وجهها. امرأة مُتغضنة الوجه منهوكة. وأدركت أنها لا تبكي الشيخ خالد، سوى أن العزلة التي اختارتها فلاحتي تحيرّني.

كان الشيخ زكريا قد توقف عن التعامل معها لأنها لا تجزيه ما يستحقه من أجر، فغادر محظرا عليها أن تستخدم ألحانه. والقصبجي ما عاد يُعطيها الحانًا، بل يكتفي بمصاحبتها على عوده وسط فرقة تزداد عددًا وضخامة. وفي تلك الأيام كانت تستعد لتصوير فيلم عن حياة رابعة العدوية، إحدى أشهر متصوفات الإسلام. وفضلت أن يتولى كتابة الأغنيات شاعر آخر هو طاهر أبو فاشا. فهناك جيل جديد من النظّامين والعازفين يحيطون بها. و لم يبق من الجيل القديم معها سوى السنباطي. فألحانه تُلهب الشعور الوطني، وصار مُلحنها الرسمي.

فاتحتني بالموضوع، وهي تصعد السلم، يحتلون قناة السويس وهي

نريد أغنية تطالب برحيلهم، أشبه بنشيد جلاء، من شأن الناس جميعا أن يرددوه.

– منذ أن عرفتك وأنت تنتقد الإنجليز، فلمَ لا تكتب قصيدة؟

– وهل يمكن أن تسمي مثل هذا الكلام قصيدة؟

– ما خطبك؟

– لا أدري. الثورة أمر رائع. وربما كان الناس في حاجة للتعبئة، ولكنني..

فتشت في حقيبتي وحاولت أن أعطيها قصيدتي، فأشارت برأسها أن لا، فقرأتها أنا. قاطعتني، وقد احتقن وجهها بغضب مضطرب.

– وأنا، تراني ماذا أشعر؟ أنت تكتب وأنا أغني قصائد الغرام التي تكتبها و..

نهضتْ فجأة، وأسندت مرفقيها إلى الحاجز الحجري. مكثت مستغرقة في تأمل جريان النيل. على حافة البكاء. كنت أحسب أن حفلات التكريم والغناء تُشبع غرورها. لكنني أدركت أني لم أفهم شيئا، لم أحس بشيء. فراغ. حتى إننا لم نستطع أن نكون سويًا، أنا وهي بمفردنا. عادت وجلست في مكانها.

– اقرأ بعد.

تناولت ديوان شعر كيفا اتفق: وكان للمعرّي. كان كلام الشاعر المتوفى منذ ألف عام يخاطبنا، أنا وهي:

لم تحرك ساكنا، فأمهلتها هنيهات، غير أن جمودها على هذه الحال

جعلني احسب أنها غفَت. بدأت بتلاوة قصيدة أخرى، غير أني بعد قراءة بضعة أبيات، رحت أُخفض صوتي تدريجيا، ثم لزمتُ الصمت، فتحت عينيها المطبقتين.

- لـمَ لا تعود هُدا (ك) للعيش معك؟
- ...
- سأتزوج.
- ماذا؟
- سأتزوج.
- ممّن؟
- سيّان عندي.
- كيف؟
- ..
- لا تقولي إنك ستتزوجين من أجلي!
- أنا أيضا أعود إلى بيت خال كل مساء.
- قولي لي مَن هو؟
- أنت تعرف جيدا قلة اكتراثي بالرجال. فمن دونهم لكان العالم اهدأ واعف واخلص.
- كفّي عن الهراء؟

طال الصمت بيننا. وحل الليل، فهمست قائلة:

- انت وأنا لا نستطيع ان ننفصل، فالماضي يبقينا أسيري ذاتيْنا. نحن

تعيسان، لذا ينبغي أن ينتهي الأمر بيننا، لذا..

و لم تُكمل. وودت لو أعينها على إكمال عبارتها.

- لقد قررتِ أن تتزوجي.

كانت عبارتي تُسمّي الأمور كما هي، وكأنها رضوخ لواقع لا رادّ له. فتكلمت بسرعة:

- عندما كنت في أمريكا، توقفت بعض الوقت في واشنطن لرؤية الأطباء الجراحين الذين أجروا لي العملية. لا أحد يعلم بذلك، ولكني أتابع العلاج منذ بعض الوقت.

وبدا صوتها أكثر فأكثر تهدُّجا.

- الأمر ليس خطيرًا، غير أن مراقبة الحالة ضرورية. علاج روتيني. ومنذ ستة أشهر والدكتور حفناوي، يزورني باكرًا في الصباح.. لإعطائي الحقن الضرورية.

- ثم؟

- في البداية، كنت أشعر بالحرج لأنني مضطرة لخلع ملابسي أمامه. وتدريجيًا اعتدت الأمر. ولذا قررت أن أتزوجه.

- مَن؟ الطبيب؟

- أجل، الطبيب.

بدا جوابها حزينا فخجلت من رد فعلي. إنها تتزوج من أجلي. من أجلها ومن أجلي. تحاول أن تكسر اللعنة بيديها، بمفردها. فالرابط الذي يجمعنا جائر. حاولتُ أن أرتمي عند قدميها، فصدتني. جذبتني نحوها

وطوّقتني بذراعيها.

9

كان الشيخ العجوز ضريرًا، لم يدر إلى أي بيت أتوا به. أرسلتْ سيارة لاصطحابه عند صلاة الفجر، في اللحظة الأخيرة، وفي صالون الفيلا، جلس مترجِّح الراس والجذع لا ينقطع عن الذكر، كأنه في داره. طاعة وخضوع، المرأة هي تسكن الرجل، وهو سكنها، متحدان في الحياة الدنيا كما في الآخرة. كانت الكلمات تنساب عذبة من شفتيه، ووجهه أشف من جناح حباحب، مشرق البسمة رقيقها.

كنا وصلنا جميعًا في وقت واحد، للمساعدة على إتمام ما ينبغي أن يحصل هنا في الخفاء. جلسا جنبًا إلى جنب على الكنبة، غير أن عينيها ترمقان، بين الحين والآخر، بنظرات توجس وخشية. كانت أعصابها المستثارة تجعلها غافلة عن مجريات الحفل. ارتدت للمناسبة ثوبًا أبيض، وإلى جانبها جلس أحد أعمامها، بوصفه الوكيل الذي سيتكلم باسمها وفق ما يقتضيه الشرع.

أمسك الشيخ بيد د.حفناوي، ووضعها في يد العم. وغطى بمنديل أبيض أيدي الرجال الثلاثة مشبوكة متضامنة. وسأل وكيل المرأة: إذا كان يقبل بهذا الرجل زوجا لها، فأجاب الوكيل بنعم. وبهذه النعم كان يهبها له. وأوضح الشيخ أن الزواج يتم على أن تكون العصمة بيد

السيدة، وهذا شرط نادر للحصول في مثل هذه الحال، لأنه يعطي المرأة حق الطلاق، وأوضح أنها اشترطت ذلك بموافقة الزوج.

ولم يبق سوى تلاوة الفاتحة. الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم. وما عاد صوت الشيخ يسعفه في التلاوة. لم تفارقه البسمة غير أن حنجرته تصفر حين يأخذ انفاسه، وكان جسمه النحيل سيُمازج الهواء. مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، وبدا منهكا، كأن تلاوته تصدر عن صدى كهف. اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير أن همهمات وجلبة حيّة راحت تتناهى إلى مسامعنا، فتضفي على الصلاة حشوعًا مهيبًا. التفت إلى الوراء. أخيلة هائلة بيضاء قد اجتاحت الصالة ووقفت حول الكراسي وقد بسطت أذرعها. إنهم العاملون في المنزل، أهل "طماي الزهايرة" وسكان البدروم الذين صعدوا لإحياء عرس مليكتهم الحميم. تحت المنديل تخيلت مسرح دمَى، أجيالا من الأسلاف، أرواحا تحضر بأسماء أرواح أخرى. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين. أجشهت سعدية في البكاء، واقترب الحضور من العروس وأحاطوا بها. راحت تدور حول نفسها وسط حلقتهم وقد فاض التأثر دموعًا.

سار موكب السيارات باتجاه المحطة الكبرى، وكانت الشوارع لا تزال خالية من المارة. رافقناهما على طول رصيف المحطة حتى القطار. رحلتهما ستستغرق نهارا وليلة. في مقصورة درجة أولى مُعدَّة لنوم المسافرين. وحجز باسمهما هناك، جناح خاص بالسيد والسيدة حفناوي في فندق السد الكبير في أسوان. فهي لم تُرد أن تكون في القاهرة

حين يشيع الخبر وتنشره الصحف.

حين غادرنا المحطة، ودَّعتُ موكب السيارات لتنطلق من دوني. ورحت أسير على طول ضفة النيل في حديقة الأزبكية، كأني أمشي في داخلي. المارة يتدافعون من حولي ترتطم أطرافهم بي ويتجاوزنني، جنود وعمال وتلاميذ، أقدامهم تسير بهم إلى أمكنة يقصدونها. السيارات، الحافلات، المدينة تنهض إلى حياتها. في المكتبة لم استطع حتى أن أقول لم حاجتي لإجازة.

مضى النهار من دوني. وعند المساء قصدت بيت محمد. لم يبلغه الخبر، فأخبرته. هو الذي أقسم في صباه أنه لن يتزوج، أصبح مُطلقًا مرتين. وقصة غرامه الأخيرة انتهت. لذا يشعر في هذه الليلة بأنه أعزب مثلي. اصطحبني إلى الملاهي الليلية. و لم نسع في تسكعنا لأي رفقة من الجنس اللطيف، رغبتنا الوحيدة أن نشرب، كأسا بعد كأس، وأن نحتفل. لطالما رأى العالم العربي أن الحياة الحقة تكون بمعزل عن النساء. لم نكن مؤمنين بذلك، فنحن ننتمي إلى جيل من الناس تأثر بالغرب الذي حثنا على تقبُّل المزيد من الاختلاط بين الجنسين. لكن ليلة تسكعنا كانت مختلفة. كأن ميراث العصور قد استيقظ فينا ألقه الغابر، بين رجال. ملهى إثر ملهى، حتى الصباح. وعدت إلى بيتي وبي إحساس عميق بأني دفنت إلى الأبد الصبي الذي في داخلي.

لم يعثر مفتاحي، رغم معالجتي على قفله، غير أن الباب فتح من

لمفانه. وإذا أمامي هدى والأولاد. كنت أحسب أنهم لن يأتوا إلا مد الظهر. لكنهم هنا. كل ما فكرت فيه طوال الوقت بشأنها راح سدى، كل ما أردتُ أن اقوله لها. رأتني مُتعتعًا ضحكت. أول ما فعلته انها ضحكت ضحكةَ اغتباط مشوّقة. أردتُ أن اشرح لها، فأسكتتني. واعانتني على الدخول ثم أغلقت الباب واجلستني على كنبة الصالون. بدا لي البيت غريبا لم يتبدل فيه شيء، لكن جلبة الهواء، الطراوة التي كان يفتقدها. هرع الأولاد واصطفوا أمامي، أولادي الثلاثة بشيء من الخجل عادت هدى وقالت؛ إنها أرادت أن يتألفوا مجددا مع غرفهم قبل ذهابهم إلى المدرسة، كأنها تعتذر. وأمرتهم بان يعدُّوا انفسهم كما يجب قبل الذهاب. حسبتُ أنها أعدت لي قهوة مُرّة، وسكبت كأسا مترعة واحتسته جرعة واحدة، ثم سكبت كأسا أخرى. وعندها، أبلغتني، بشفتيها الرطبتين، والبهجة التي في عينيها، أنها مصرّة على استعادتي.

لم ينتشر نبأ الزواج في الصحف إلا بعد مضي أسبوع على عمودٍ جانبي. كانت العناوين تتناول محاولة الاغتيال التي تعرض لها عبد الناصر في الإسكندرية. رجل يدعى "محمود عبد اللطيف" أطلق عليه النار، وقيل إنه أحد أفضل المدربين على الرماية في جماعة الإخوان المسلمين. ومع ذلك أخطأ هدفه. غير أن أجهزة الأمن سارعت للسيطرة عليه، وأجبرته على الإدلاء باعترافات.

أثارت محاولة الاغتيال هذه موجة عارمة من الاستنكار. وقد اضطر

القطار الذي أقلّ عبد الناصر في طريق العودة من الإسكندرية للتوقف في كل محطة على طول الطريق، حيث أحاطت به تجمعات جماهيرية منظّمة. أما في القاهرة، فقد كان بحر من الناس واليافطات في انتظاره. الهتافات تجاوب الهتافات، والإذاعة تبث الوقائع مباشرة على الهواء. وأقيمت منصة للمناسبة داخل المحطة راح المذيع يصف حركات عبد الناصر مقتربًا من المذياع ومنتظرًا أن يهدأ تهليل الحشد. كان عليه أن يعيد عباراته الأولى مرارًا قبل أن يحل الصمت. لقد توقف العمل في أنحاء البلاد كافة، واكتظت المقاهي بالأهلين، جلوسًا أو وقوفًا بين الطاولات أو محتشدين عند الأبواب، يسمعون، "يا أبناء شعبنا"، وعرف الجميع صوته، "هذه الثورة هي ثورتكم، وهي تعمل من أجل التقدم، من أجل مستقبل البلاد، غير أن بيننا أناسا يفضلون، على ما يبدو، الماضي ظلامين يتسترون بإهاب الدين، لكي يقتلوا، رجعيين مأجورين للأنظمة الملَكية العربية والاستعمار. في البدء حاولنا أن نضمهم إلينا، وعرضنا عليهم أن يشاركوا في الحكومة فرفضوا. وراحت البلاد تتقدم من دونهم، وأسقط في يدهم، فانحازوا إلى الجريمة. وفي مواجهة مثل هذه هؤلاء، لا يملك السياسيون الذين يلهجون بالديمقراطية أن يفعلوا شيئا. فالإرهابيون لا يفهون سوى القبضة الحديدية التي تنهال عليهم. سوف نجعلهم عاجزين عن الإيذاء، وبكل الوسائل، للشعب العربي كل الحق في أن يدافع عن ثورته وأن يسحق الذين يعادونها والذين يحرفونها".

وفيما كان يُلقي خطابه، تعرض مقر الإخوان المسلمين في العاصمة

لهجوم من قبل المتظاهرين استنكارًا، وأحرق تحت أعين رجال الشرطة المتغاضية. أذهلني الأمر. فعند قيام الانقلاب العسكري وصفه الإخوان المسلمون بأنه انقلاب ميمون، وقيل، حتى، إن عبد الناصر أحد أعضاء الجماعة غير المعلنين. صحيح أنهم رفضوا أن يشاركوا في السلطة. لكنهم منحوه دعم القاعدة الشعبية العريضة التي استقطبوها منذ حرب فلسطين. والأغرب أيضا، أنهم بدوا وكأنهم فوجئوا بحملة القمع التي طاولتهم. آلاف من محازبيهم أودعوا السجون، حيث التقوا الناشطين الشيوعيين الذين سبقوهم إليها، وما كانوا يكنون لهم سوى الكراهية. وراحوا يصفون ما حصل بأنه استفزاز من قبل السلطة، واتهموا الشرطة بتدبير مسرحية محاولة الاغتيال، ولكن مَن يسمعهم؟ صحفهم ممنوعة وقياداتهم إما توارت وإما في المعتقل. فقد كان عبد الناصر رئيس الحكومة ووزير الداخلية، ورجل النظام القوي، ويشرف على أجهزة الأمن كافة. و لم يكن يعوزه سوى لقب الرئيس الذي كان اللواء نجيب لا يزال يحمله. وها هو القاتل الأخرق يمنحه، دون أن يقصد، الأحقية الحاسمة. وراح الشعب فجأة، يصفه بأنه الرجل التاريخي الذي أسقط النظام الملكي، وأعاد للبلاد اعتبارها.

عادت على متن أول قطار، نبأ محاولة الاغتيال أفقدها صوابها. كأنها استهدفت واحدًا من أفراد أسرتها هي، واستهدفت كل ما حققته الثورة من أجل البلاد، وخصوصا الإصلاح الزراعي. وكان استنكارها عنيفًا بمقدار ما هو صادق.

ظنت أن المدينة أصبحت مسرحا للحرائق وسفك الدماء، ووجدتها

هادئة، على أفضل ما يكون الهدوء. عبر إذاعة "صوت القاهرة" كان صوت محمد هو الصوت المُفضل والأثير. فقد لحن بسرعة قياسية أغنية "إنت الغالي علينا" تحية لعبد الناصر. وليلة وصولها بالذات، وبعد ساعات فقط من التمارين غنت "يا جمال يا مثال الوطنية" مباشرة على الهواء. "وواجهت النار/ بثبات وإيمان/ وقفة شجعان/ ما يقفها جبان.." السنباطي هو الذي وضع اللحن، ومن أجل الكلمات استعانت ببيرم. فالأغنية تخاطب عبد الناصر باسمه الأول، وأحسب أني ما كنت لأكتبها. كنت في عالم آخر. مع هدى، منهمكًا بالحاضر. ولكي أُفصح لها عما أريد، من أعماقي لجأت إلى بعض التلميح في تصرفاتي. هي والأولاد كأن لا شيء ينبغي أن يفرّق بيننا بعد الآن.

"يا جمال يا مثال الوطنية" و لم تمض ثلاثة أسابيع حتى وضع الرئيس نجيب، في ظل لامبالاة شبه تامة، في الإقامة الجبرية.

كنا جالسين، أنا وهي، على الكنبات الكبيرة من قش بجدول. هجرنا الشرفة. لقد تبدل طقس جلسات عملنا سويا، والذي دام طويلا. نزلنا إلى الحديقة. ربما كان ذلك إيذانًا بانخراطنا في طقس جديد، من يدري؟ مكثنا في مقاعدنا وعلى استرخائنا العميق، فالوقت مناسب.

فتيان وفتيات يفترشون العشب، خمسة أو ستة على بعد أمتار، وتتناهى إلى مسامعنا شذرات من أحاديثهم وضحكاتهم. إنهم أصدقاء محمود، ابن أخيها المحبب، الذي استضافته في الغرفة التي أقام فيها الشيخ خالد من قبل، وتعامله كأنه ابنها. جسده الرشيق فوق العشب، النحيل

،مص الشيء، تحدق به ولا تراه، تحدق به ساهمة. إنه يحمل اسم محمود
احر، محمود الشريف الكمنجاتي.

لحسن الحظ أن الغليان السياسي قد خفُت. فاستذكرت الصحافة
، واجها من د. حفناوي. فتحت أبواب فيلتها لرجال الصحافة وعرّفتهم
،روجها، ووقفت أمام عدسات كاميراتهم، فجعلوا من الحكاية رواية، كما
يبغي أن تكون الروايات في مثل هذه الحال، "الحب أخيرا" ثم رافقتهم إلى
البوابة الخارجية كأنها تتعجل خروجهم وأغلقتها وراءهم. خلال الأيام
التالية، غصُت عيادة الدكتور بالنساء، فارتباطه بالنجمة أكسبه قدرات
شبه سحرية. واستغرق في عمله أحيانا لعشر ساعات في اليوم، فما عاد
أحد يراه. وبذلك أصبحت فيلا الزمالك ساحتها هي، وحدها، إذ لم ننعم
من قبل بمثل هذه الطمأنينة.

تغير الضوء مرة أخرى، كنا نقترب من الحد. تضحك دونما سبب.
فقد يكون سهوها الصامت قد أطلق مثل هذا الضحك ختامًا.
استغرقت في ضحكها، وضحكتُ معها فبهجتنا تغتذي من ذاتها، ومن
طراوة النسيم. لقد تخطينا كل العقبات، ناورنا، وسلكنا ألف طريق
مُداورٍ وطريق، وها نحن أصبحنا عند خط الوصول، في هذه الحديقة.
هي متزوجة وأنا متزوج. ومحبسا المظاهر يحميانا. وكل شيء يجري
بحسب الأصول. وما عاد هناك ما يحول دون اشتعال نارنا الملتهبة
مجددا، هوانا الذي بقي على حاله. لقد استعدت قدرتي على الكتابة،
وتجرأت على النظم، وستستأنف هي إنشاد الجُرح السماوي. ما عُدنا

نحتاج أن نخفي مشاعرنا.

كان الفتيان المراهقون يرمقوننا مواربة، وخصوصا هي، عمة صديقهم، بفضول أبله. بعض مجدها يُثقل كاهلي. لقد استعدتُ مكانتي. كنت أحضرت لها معي أولى اسطواناتها الميكروسيون، "رباعيات الخيام" ومدتها عشرون دقيقة لكل وجه، أي أربعون دقيقة، أي الحفلة بأكملها. وكان ذلك آخر عهد من عهود طغيان اسطوانة الـ 78 دورة.

تتسع صالة المسرح الوطني لنحو ثلاثة آلاف شخص. وأضعاف هذا العدد تحيط بالمبنى، والسلاسل البشرية التي أقامها رجال الشرطة لم تنجح في اتساع الطريق للوصول إلى الأبواب إلا بعد مشقة. من الجانبين تمتد الأيادي نحو بوابة الدخول، صراخ يعلو حبًا، أو يعلو مجرد الصراخ، فالحشود تتدافع، كانت تحيّي الجميع بيدها، وتبتسم إزاء هذه الحماسة المتفلّتة.

الحكاية إيّاها مرة أخرى. كان الملك فؤاد قد طلب منها أن تفتتح إرسال "صوت القاهرة"، وعبد الناصر يتوقع اليوم أن تفتتح "صوت العرب". والإذاعة الجديدة تملك من قوة البث ما يجعلها قادرة على إيصاله من بغداد إلى الدار البيضاء، ومن دمشق إلى الخرطوم. فمن الآن وصاعدًا ستتمكن الثورة من مخاطبة الناس كافة، أينما كانوا، مخاطبة الشقيق للشقيق، ولا تحتاج في ذلك لاستئذان أنظمة الحكم. لم نعد مصريين، لقد أصبحنا عربًا، وستنقل الإذاعة، في بث مباشر، وقائع الخطاب الذي سيلقيه

عبد الناصر في ساحة الإسكندرية الكبرى، مباشرة بعد حفل الغناء.

توقفت السيارة أمام مدخل المسرح، و لم يصمد طوْق رجال الشرطة، ففي لمح البصر غطت الأكف والأنوف والأفواه والأجساد زجاج السيارة من كل جانب. وعلى الزجاج الأمامي التصقت كتلة وحيدة مؤلفة من أجزاء عديدة، لرجال مختلفين يصرخون ولَهِهم بكلمات غير مفهومة. حجب الحشد الضوء عن السيارة التي راحت تميل وترتج. فخلع د. حفناوي نظارته ووضعها في جيبه.

عندئذ تدخَّلت هراوات الشرطة. راحت مفرزة الشرطة التي استدعيت لتعزيز القوة الموجودة، تضرب بالهراوات كل ما تحرك أمامها، ومع ذلك بقي الناس كأنهم يتلقون الضرب بردًا وسلامًا. يتعثرون ثم ينهضون، فهناك دائما حشد يلي الحشد، بئر لا تنضب، وأياد مرفوعة. كل نسغ مصر الخصبة، كل ازدحامها الديموغرافي. أحد الشبان، و لم يبلغ العشرين بعد، راح يصرخ، إذ تقتاده الشرطة دامي الرأس، ملتفتا إليها: "أنت حياتي".

عدد آخر من رجال الشرطة، كان مصطفا عند محيط المسرح، الكتف على الكتف، والعيون شاخصة قلقة، كأن توتر عساكر الحماية يستدعي العنف ويثيره. فالجموع تتدافع في الممرات وتتسلق الجدران. تلك الدماء الفتيّة، ذلك الزخم الوافد من الضواحي، والذي لا يجد متسعا لاحتوائه، ذلك الدم الحار الذي يغلي. لم يكن ذلك يشبه النشوة الفتيّة، أو حماسة اليد التي تهلل طربًا.

أطلت على المسرح يصحبها التهليل والتصفيق والحماسة. أحكم

رجال الشرطة طوّقهم وحملوا هراواتهم تحسبًا. لم يكن بإمكانها أن تراهم. كانت من فوق رؤوسهم تبسط ذراعيها، باذلة جسدها للجمهور، كأنها تأنس إلى لجته بمعانقة غير مرئية. هناك الصخب، وصدى الصخب، ووحده صوتها قادر على لجم هذا الجماح. تقدمت نحو المذياع، غير أن صراخ الجمهور ازداد شراسة، كأن الحماسة التي التهبت فيه منتظرًا، قد انفجرت فجأة، واجهت الأمر، مستقيمة الوقفة، رافعة الرأس، فهياج الصالة يُسكرها، ويستثيرها وتغرق فيه مدركة ماذا تفعل. قرّبت شفتيها من المذياع وغنّت. وعبَرت شهقة صوتها الأسلاك والأجواء مقتحمة نصف قارة. عدن وطرابلس الغرب، دمشق وبنغازي. "ذكريات عبرت أفق خيالي/ بارقا يلمع في جنح الليالي/ نبهت قلبي من غفوته/ وجلت لي ستر أيامي الخوالي/ كيف أنساها وقلبي/ لم يزل يسكن جنبي/ إنها قصة حبي" قصيدة ذكريات(*) نظمتها كمن يرغب في سداد دين قديم، كمن يود أن يعلن على الملأ، دون حرج، شغفًا له وهوى.. همدت الصالة فجأة ودفعة واحدة. حنان وألم والكلام الذي يجعل السامع يبكي. ساد الصمت أرجاء الصالة، فغنت الأبيات ورددتها، وجوّدت أحدها طويلا، ورددت كلماته، بصوت أرادته نحيفًا، وأدغمته بآخر، ثم بثالث، وراحت تنقّل .

أداءها بين الكلمات والأبيات كيفما شاءت. كانت الكلمات تستكشف مكامن التوقع، فتترى وتدور كمثل رقصة الدراويش. الشبان لذهولهم، استغرقوا في سماع خاشع، وعجزوا عن أي كلام. كان الصوت يأسِرهم، كالأطفال، ويتلاعب بهم. حول تنويعة شبهة مستحيلة

(*) قصة حبي.

في أدائها، علا صراخ متذوقين فأثار هرجًا أشبه ببداية ثورة. غير أن نجمتي هذه المرة لم تستسلم لرد الفعل. استجابت لهياج الحشد، وفرضت عليه الصمت، تدريجيًا بسلطان غنائها. كأنها تملك زمام الأمر حين تشاء نرخي الحبل، وحين تشاء تقرصه. "صوت العرب" هو صوتها. وغرامي أنا، هو ما تنشده على مسامع الناس.

هكذا، لم يشهد الحفل أي تجاوز، بعد ذلك التقيناها في مقصورتها، منهوكة، مرتعشة للجهد الذي بذلته. وسرعان ما بثت الإذاعة فاصلا من الموسيقى العسكرية ثم تناهى إلينا صوت المذيع جهوريا رصينا: "هنا صوت العرب.. من القاهرة" وكأنه على وشك أن يُغمى عليه. كل مكبرات الصوت في مبنى المسرح تبث البرنامج، والحشد لم يبرح مكانه. فالغليان السائد في الإسكندرية أصبح الآن يُنقل إليهم، فقد تبادلت فرق النقل المباشر مهامها. فلاحتي حشدت الشعب العربي بصوتها، والآن حان دور الريّس ليخاطبه مباشرة. أعلن المذيع أن المنصة أقيمت عند قاعدة تمثال سعد زغلول، قبالة الحشد، قبالة البحر. وصاحب إعلانه هذا هتاف عشرات آلاف المحتشدين هناك. أطل عبد الناصر، كان يرتدي بدلة مدنية رمادية، وربطة عنق غامقة، رئيس الدولة، لقد منحه الناخبون المصريون أصواتهم.

"يا أبناء شعبنا العربي العظيم.." كان صوته الذي لا يُضاهي يرشح من الجدران، خفيض جدا، غير تحريضي، دافئ يكاد يكون رقيقًا. ومَن يسمعه يحسب أنه رجل من العامة يريد أن يُسرّ ما في قلبه، وأن يبوح بمشكلاته على مسامع الناس، كأن كل واحد منهم شاهد عليه: "نحن

عشرات الملايين وتخطط الإمبريالية لخنقنا، نحن عشرات الملايين، لكننا شعب عربي واحد من الخليج إلى المحيط، وله رسالة خالدة. لدينا لغة وثقافة وحضارة وثروات لا تستنفد، إذًا ما الذي نحتاجه بعد لكي نتحرر؟ إني أقول لكم: إن ما ينقصنا هو أن نتوحد، وأن نؤمن بأنفسنا رافعي الرأس. ارفع رأسك يا أخي العربي".

هتاف يمتزج بهتاف، من بيروت إلى الجزائر. حتى أنا انتابتني رعشة هزّت أعماقي، كالآخرين كالجميع. أمهل عبد الناصر الحشود ريثما تُفرج غضبها وحماستها، وتابع خطابه. كان خطابا ماراثونيا. تحدث طيلة ساعتين، من قمة باندونغ، إلى حرب استقلال الجزائر، إلى العالم الثالث، إلى سعر القطن. شرح كل شيء كان الكلام يكتسب معنًى من لسانه، وله وقْع ورنين كأنه التراوح بين الرفق والقوة، بين الوعد والوعيد، فيقابل بفورة وجْد، بنشوة عارمة. "لأننا طلبنا السلاح الذي رفض إمدادنا به الغرب من المعسكر الشرقي، أوقفت عنا الإمبريالية المعونات. ولذا أصبح مشروع سد أسوان العالي مهددا، وهو إنجازنا الأهم، فلن نتخلى عنه. يريدون أن نركع بسبب المال، وأن نغير لهجتنا. غير أننا نعرف جيدا أين نجد المال". وفي تلك اللحظة، أمام الناس أعلن الخبر، الخبر الذي لم يصدقه أحد برغم بساطته. وفطنت إلى مقصده قبل أن يلفظ الكلمات التي لا رجوع عنها: لقد أعلن تأميم قناة السويس.

لطالما قلت: إن بحرا صغيرا يفصلنا عن أوروبا، فنحن وإياها من طينة واحدة، وأنه في نهاية الأمر لا بد أن يتم تجسير المسافة التي تفصلنا عنها. أصدقاؤك. قالت وفي صوتها شوب حقد، لقد أسهمت في أن

يصدق الناس ذلك؟ وكذلك الأمر فعل طه حسين وعبد الرزاق بك، سيكون المتوسط بحرا داخليا، وسوف يؤوينا غطاء واحد. والعلائم لا نكذب، لا هنا ولا هناك. الإنجليز والفرنسيون قصفوا مطاراتنا وهاجموا بورسعيد، وتقدموا باتجاه الاسماعيلية. ليُعاقبونا لأننا أردنا أن نسيطر على مواردنا، وأن نصبح بلدا حديثا، مثل بلدانهم. كان ردهم علينا: الحرب. الحرب الحقة. قتلى وجرحى بالآلاف. لا، بل الأدهى من ذلك أن إسرائيل انضمت إلى الجوقة، وما عادت مكتفية بفلسطين، بل وصل جنودها إلى القناة التي أممناها للتو. لقد أغرقنا فيها سفنا، وأغلقناها، فماذا نفعل بعد؟ الشعور الذي ألهب أحاسيسي كان شعورا عاما، لدى الناس جميعا. وللمرة الأولى، نبذت الغرب الديمقراطي المزعوم، واتضح لي وجهه الاستعماري.

أصدقاؤك تقول فبماذا أجيبها؟ ابني سمير، لو كان أكبر بسنتين أو أكثر، لكان جنديا. لكنه اختار منذ الآن، ونزل إلى الشارع للمشاركة في التظاهرات. إن مصر تمارس حقها، وكل معذبي الأرض يساندونها، الهند والصين ويوغوسلافيا ومجمل الشعوب العربية، والأميّون قاطبة. المتحضرون هم المعتدون، وهي تمارس حقها.

أصدقائي. إلى ذلك أخطأوا في حساب الزمن الذي يعيشون فيه، فأجبرهم الأمريكيون والسوفييت، عنوة على التراجع. وكانت تلك خاتمة عهد المستعمرين الأوروبيين. وأصبح عبد الناصر الذي أرادوا قتله، بطل العالم الثالث، وزعيم العالم العربي. كنت مغتبطا مثلها، لقد انهارت سياسة المدفع، وانقلبت مجريات المعركة غير المتكافئة التي خاضها، إلى

عكس ما يشتهون. لقد انتصرنا.

كيف أشرح لها أننا خسرنا، نحن أيضا؟ فظنها أن الخيانة قد أقامت في رؤوسنا، والوعد أضعف نفوسنا، وأفسد الروح فينا. فالخطر كان جاثما وواضحا، الإنجليز والفرنسيون يسيطرون على الاقتصاد، ومن الطبيعي أن يحاول النظام إحكام السيطرة على البلاد، وأن يعمد إلى تأميم الشركات الأجنبية. لم تكن تدرك الواقع. فمثل هذا القرار يُفرغ مصر من قسم لا بأس به من أسباب حياتها. المال، بالطبع، ولكن أيضا، الناس، وليس فقط المالكون منهم. آلاف من اليونانيين والإيطاليين والفرنسيين والمالطيين والبريطانيين، والأقليات كافة. ولا شأن لذلك بالسياسة. "غارو" الخياط الأرمني الذي يفصّل قمصاني ويملك مشْغلا في شارع شامبليون و"سالتيل" الذي يعمل في المكتب المجاور لمكتبي في مبنى المكتبة الوطنية منذ ثلاثين عاما. و"باولو" طبيب الأسنان، ومدام "إيرولا" صاحبة المطعم اليوناني في شارع قصر النيل. أناس من زمان آخر. لا وزن لهم ولا حساب. وفي أول عصفة رياح، تبددوا في الهواء.

أحياء بكاملها في الإسكندرية، كانت تستعد للمغادرة. خيط الحرير الذي نُسج، بأناةٍ في هذه المدينة رقعة من كل لون، نسيجًا هجينًا هشًا. واقع صنع من بشر وحجر، فسحة حطت في رحابها، على نحو غامض، رغبتنا في الانفتاح والاختلاط، رغبتنا في التسامح. وإذا بحشد من الناس الخائفين يوقفون حياتهم هذه فجأة، ويبداُون بتوضيب حقائبهم.

من بينهم عدد كبير من اليهود الذين أُبعدوا. وهم الذين طالما عاشوا على هذه الأرض منذ زمان سحيق، مصريون مثلي، لولاهم لما عرفت

صناعة الاسطوانات والسينما الازدهار الذي شهدته. فالملحن "داود حسني" كان يهوديا، وهو الذي اكتشف "أسمهان" وعلّمها، وحتى نعمني كانت تغني ألحانه. و"زكي مراد" وابنته "ليلى مراد"، وأعداد من المغنين والملحنين والعازفين. ميراث كامل، رُكن مؤسس في ثقافتنا اقتُلع هكذا على هذا النحو.

لا أخفي أن مثل هذا الأمر، كان يؤلمني وينبت الحسرة في قلبي. ومع ذلك، فإن خطاب عبد الناصر كان علمانيا، واستعانته بالإسلام كمرجع محصورة جدا، فالأصولية قد أعلنت خارجة على القانون. والعروبة ليست دينا. غير أن إسرائيل عملت ما وسعها لكي ترمي الشبهة على يهود الشرق، ولم تكن دولتنا واثقة من قدرتها على اعتبار جميع المواطنين سواسية. وتلك كانت هزيمتنا. فقد رضخنا، ضمنًا لمنطق الطوائف، وهي الأخطر، القادرة على كسر تضامن الرأي كما يكسر الجليد الحجر. حوادث مؤلمة شهدتها موانئ الإسكندرية، وفي التجمعات السكنية العمالية، كان الشعب يحتفل برحيل المستغلين.

تلك الهجرة تركتنا وحيدين. ولكن ما السبيل للاعتراض، عبر أي صحيفة، وبرفقة من؟ كانت الجماهير تحتل الشوارع، أجساد خصبة وعفية، جنود، وأعداد غفيرة. وكانت الحماسة الثورية من الاحتدام بحيث إن كل رأي مخالف يعتبر تواطؤًا مع المعتدي يعتبر خيانة. وفي غمرة هذا الكرنفال انعزلت مصر عن الغرب فكريًا وفنيًا وثقافيًا، ولا أجرؤ على القول: سياسيا فالسياسة أي العيش ككائنات بشرية كانت لهم وليس لنا.

كانت حصيلة المغامرة قيام بلد أكثر استقلالا، لكنه أيضا أشد قسوة،

وفقير، وعدائي. كنا أحرارًا ربما، ولكن فيما بيننا، وبعد أن فقدنا أحد ساعدينا. بقيت لنا القناة، لقد أصبحت الآن ملكنا، وليست ملك أحد غيرنا. إذا ربحنا برغم كل شيء. وستعيننا عائداتها على بناء السد العالي والعمل وتنمية البلاد.

من يُرد الرحيل فليرحل، فالتاريخ يسحق الأبرياء، ومثل هذا الأمر ليس جديدا، لم يكن لدينا خيار آخر، ينبغي أن نرقب المستقبل، هذا ما كانت تقوله وغنت احتفالا بالنصر: "والله زمان يا سلاحي/ وحشتني في كفاحي/ قل لي إنك صاحي/ والله زمان يا حرب" وردد الجميع وراءها هذا الكلام، حقول القطن في مصر، وضفاف نهر العاصي في سوريا، والريف الجزائري، ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين، جميع أرجاء الإمبراطورية التي أصبح عبد الناصر مرشدها المطلق. أما هي، فكانت الوجه البارز فيها.

وأنا، مَن كنت؟ أحب بلدي بمقدار ما تحبه هي، بمقدار ما يحبونه، وأحب العالم العربي، غير أن سلسلة أحداث لا مرد لها ربما كانت لا مرد لها أوْدت بنا إلى الارتطام بذواتنا. وكان ذلك يُفسد بهجتي.

الجزء الرابع

(1975-1965)

1

كان هواء الغرفة ثقيلا، ناعما، ومُشبعا بتلك الرائحة الخاصة بالمواليد الجدد. وكان ذلك الشيء الصغير ساكنًا في الضوء الخافت، مستلقيا على ظهره، وعيناه مفتوحتين على أحاسيس لا اسم لها، رفَعت الناموسية وادنيْت وجهي. راح يرمقني بنظرات ثابتة. جئت أقول لك إلى اللقاء، ..اعود غدا لأراك، أما الآن فادعك لعناية امك وابيك، يجب ان اغادر .نغني بعد قليل في غضون ساعتين من الآن، وأنت تدرك جيدا أنه ينبغي ان اكون إلى جانبها. ففتح فمًا أدْرَدَ، وانساب من طرف شفتيه خيط لعاب بلّل الوسادة. إنه حفيدي الذي ولد بعيدا عني، في عالم موازٍ لعالمي، نشبثت يده الصغيرة بإصبعي كأنه لا يريد أن أغادر.

سأحكي لك فيما بعد، أما الآن فهي تنتظر قدومي. أنت، أحبك كمثل هبةٍ لطالما ظننت أنها لن تصل، أنت لحمي.. غير أن روحي بقيت معها. ما باليد حيلة، لست ثمرة هذا الحب بالذات.

أصر على تشبثه بإصبعي، كأنه غير معني بما أقول. فتابعت كلامي إليه خفيضا، فيما عيناه تصغيان أوتدري، كنتُ لأقول لك إن ذلك يعود إلى زمان الصبا، منذ وقت بعيد، وأُحدثك عنه بوصفه أثرا لحب عنيف كسواه، ذلك الحب الذي يستطيع المرء أن يلتفت إليه أخيرا بنظرة جدّ. غير أنه ما زال مستعرا فيَّ كما كان في اليوم الأول، ما زال حيا فما عساني

أفعل. أن أنظرَ بحياد إلى العاشقين في حيرتهم على الضفة الأخرى من النهر، لن أقدر على ذلك بالتأكيد. أنا، ما زلت واقفا على تلك الضفة، أنا لم ويحدوني الرجاء مثلهم. ربما لأن حبي لم يتجسد يوما، استطاع أن يرتحل عبر الزمان. لم يُضعفه و لم يفسده شيء فنجا، وعندما يناديني افهمني جيدا يجب أن اهرع إليه.

كانت يده اليمنى ممسكة بإصبعي ومد يده الأخرى، ولمس أنفي وأطبقت أصابعه الصغيرة على شعيْرات شاربي. ما عدتُ أقوى على الحراك أو الكلام. واغرورقت عيناي فجأة بالدموع فاللعبة لم تكن لعبة. ذلك أني لم أتحدث إلى أحد من قبل عن حبي على هذا النحو. راح يثغو دون أن تفارق عيناه وجهي. أطبقتُ شفتيّ على يده وعضعضتها، بدرت منه صيحة مفاجئة مكتومة، وقوّس ظهره ضاحكا، وراحت قدماه تضربان الهواء فرحا. رحت أرمقه بشغف، فبادلني نظراتي. وعندما دخل ابني سمير الغرفة وجدني على هذه الحال، فربَت على كتفي وذكرني بموعد الحفلة.

في طريقي إلى هناك في سيارة الأجرة، غمرني حنان مفاجئ حيال ذلك الطفل. طارق؛ أسميه باسمه للمرة الأولى، كأني بذلك أعترف بوجوده المستقل، والأقوى من أي شيء آخر. وكلما اقتربت بي السيارة من مكان الحفل، امتزج هذا الإحساس بإحساس آخر، الرهبة التي تستبد بكياني قبيل كل حفلة غناء، غير أني هذه المرة أشعر بها أشد وطأة. منذ أربعين عاما وأنا أشهد حفلاتها، و لم يُبدل هذا من الأمر شيئا. "كيف لي أن أدرك كُنه

الأمام والوراء/ حين لا تكون شمس معشوقي لا في الأمام ولا في الوراء"
.. هذا القول لمولانا "جلال الدين الرومي" الفارسي، تعبر عن حالي أفضل
..هم . إذ يكفي أن ترحل، وكانت غالبا ما ترحل.

لقد غنت في مناطق مصر كافة، وفي نصف مناطق العالم العربي
أنشدتْ "الفجر الجديد" احتفاء بالوحدة بين مصر وسوريا، و"بغداد يا قلعة
الأسود"، يوم انهيار النظام الملكي العراقي، وأنشدت كل أغنيات الحب.
لقد آمنت حقا، وارتعش كيانها على وقع ما آمنت به حقا، واستبطنت
ذلك التحول المذهل في جسدها. غدت في حلوان، المدينة التي غزت
الصحراء. واشتعلت أفران الصلب لأجلها. وغنت في أسوان "كان حلما"
على هياكل السد العالي الذي تشيده الأيادي كأنه الهرم الجديد. آلاف
مؤلفة من الأجساد نصف العارية، وحفيف الجلابيات بألوانها الترابية،
على مدّ النظر. وسمع عذابه في ذلك الصوت، وكانت له وطنا، رافقت
دربه، وطمأنته، لا تخف، إنك تغيرّ مستقبلنا بيديك، أنا أيضا كنت
فلاحة، وانظر أين أصبحت الآن، وأنت تستطيع كما استطعت، نستطيع
سويًا. "عوّدت عيني على رؤياك" و"هجرتك" و"حيرت قلبي معاك"،
كانت تخاطبه بما هو جوهري، عذاب الحب، عبر أبياتي أنا، ولكن بعيدًا
مني. وعبر أبيات الآخرين أيضا. عنوان إحدى أغنياتها: "ما أجملك"
فقط، بمثل هذه البساطة. أنت البطل الجديد، الجسم الذي استيقظ ليعالج
الفولاذ، ويبني الصروح، ويلبس قناع الحديد لاتقاء الشرر.. "ما أجملك".
كان هذا الإنسان هو حبيبها الجديد.

أطلّت مرة أخرى، وشقّت قامتها المفضضة صيحات التهليل، ورافقتها تصدية الأيادي كأذيال طرحتها. راح الحشد يهتف باسمها وباسم آخر بأعلى صوته، اسم محمد. كان صديقي جالسًا على بعد ثلاثة مقاعد، ورمقني بنظرة مواربة، شديد التأثر، منحنيا لسيل الهتاف والتصفيق. تابع الناس هتافهم وصياحهم، بمزيد من الحماسة والإصرار، فنهض وبادل الجمهور التحية، ثم أشار بيده إلى نجمتي كيما يخصها الهاتفون بالتهليل وحدها، غير أن محاولته أخفقت، وازدادت اندفاعة المهللين إصرارًا. فرضخ محمد وصعد إلى المسرح. كانت الحفلة لم تبدأ بعد، وافتتاحها يشهد ما لا يُصدق، هو وهي، يدا بيد يرفعان ذراعيهما لتحية الحشد.

التفتُ نحو القصبجي فاحتضن العازف العجوز عوده، وبدا أثرا من زمن سابق أمام الأوركسترا المتألقة، غابة من الكمنجات والفيولونسيلات، والنايات والكونترباس والطبول، والطبلات، وخصوصا الغيتار الكهربائي، الشهير الذي لفت الأنظار. ثم انتبه مجفلا مثل غافل استيقظ فجأة من حلمه. الناس كلهم يعلمون أنها تعافت من جراحة أجريت لها أخيرًا، وان إطلالتها هذه، كانت الأولى بعد شفائها. أمسكت يده فيما الهاتف يعلو باسمه "قصبجي" من الصف الأول، حيث أنا أستطيع أن ارى انعكاس أضواء الكشافات في عينيه. وأمسك محمد بيده الأخرى ووقفوا طويلا يحيون الجمهور معا.

أن تعمل مع محمد. كانت قد صممت أخيرا على الوفاء بالوعد الذي قطعته لجمال عبد الناصر، الذي ألحّ عليها بأن تفعل. وذاع الخبر في كل مكان، غير أن أحدا لم يصدق، مع أن الصحافيين استماتوا في تأكيد

... ، وتفننوا في إبراز أدق التفاصيل. كانوا يغطون جلسات التمارين
،، حدثون إلى العازفين، ويستدرجونهم إلى إفشاء بعض ما ينبغي التكتم
،، وفي آخر الأمر لم يتوصلوا إلا إلى معرفة القليل القليل، فالمفترض
ا، عنوان الأغنية هو "أنت عمري" وهي قصيدة من نظم أحمد شفيق
،،امل.. وأن نزاعا قد نشب بخصوص حكاية الغيتار الكهربائي تلك. لقد
اصر محمد عليه، زاعمًا أن جمهوره أحدث سنا من جمهور نجمتي، وأن
ه.ا الجمهور يطالب باستخدام آلات حديثة، في البداية جابهتْ إصرار
محمد بالرفض والامتعاض لكنه لم يتراجع. واستشارتني بهذا الشأن،
ه! جبتها بأن الموسيقى ليست من اختصاصي. واستشارت القصبجي لكنه
يهرب من الإجابة بدوره. فقد كان رأيي؛ أنه إذا كانت النهضة الموسيقية
التي قادها الحامولي أواخر القرن الماضي لن تُسفر إلا عن استيراد الغيتار
الكهربائي، فهذا يعني أننا خسرنا إلى الأبد. غير أني لم أقل شيئًا.

ولكن قُضي الأمر الآن، وإذا بكوكب الشرق، أمام أنظارنا تستعد لغناء لحن من ألحان محمد عبد الوهاب. كان الشعور الذي يُطبق عليَّ أشبه بالذعر، هي وهو. وبكلمات ليست من نظمي أنا. وإذا بعالمَيّ المتوازيين يلتقيان عند خط الوصول ويجعلانني، على نحو غامض، خارج اللعبة. طالعتني صورة حفيدي في تلك اللحظة بالذات، ولا أدري، لماذا كانت هي، في الأثناء تشير إلى العازفين مؤذنة بالبداية.

شرعوا في عزف المقدمة الطويلة. أخيرًا اجتمع الجمهوران. الوجوه السمراء القائمة إياها، وصبر المومياءات إياه، والعيون المعلقة النظرات إياها لا شيء يفرّق بينهم. ومع ذلك هم، مجموعتان متمايزتان، معسكران

يتبادلان ازورار النظرات منذ دهر. امتزج الناس واختلطوا بفضل شباك التذاكر، وما عادوا يملكون إلا أن يترامقوا خلسة بشيء من الاستهجان فما زال الحذر سائدا بينهم - ومعه الخَفَر - حيال مصالحة تاريخية غير متوقعة.

عندما أشرفت المقدمة الموسيقية على نهايتها، نهضت واقتربت من الميكروفون. كانت كاميرات التليفزيون تصور من بعد خمسة عشر مترا على الأقل، فقد رفضت أن تغني وفوهة الكاميرا على صدغها. وبأية حال.. قلة من الناس تمتلك أجهزة تليفزيون، فالإذاعة ما زالت سيدة الموقف دون منازع، والإذاعة ترافقها أينما ذهبت.

خفُت حدة التصفيق تدريجيا، وخيم إثرها صمت ليس هو الصمت المعهود في حفلاتها، ليس صمت الحماسة الغالبة المتجانسة، بل صمت الترقب المشدود الموشك على التفلت.

انفرجت شفتاها أخيرًا، في المدة الأولى كان الصوت متداركا على نحو مذهل: "رجّعوني عينيك لأيامي اللي راحوا/ علموني اندم على الماضي وجراحه". والأوركسترا تُصاحب الصوت عن كثب، تنتحل منعرجاته، متراوحة، مترجحة، مثيرة للأعصاب. كما يُرى في فيلم سينمائي لحن مفرط في هدوئه. تراجعت نجمتي قليلا، واستأنفت المطلع مجددا، وهدأت اللعبة، واستغلت وقتها ما أمكنها في تقفية الدور بالدور، وتريثت عند الشطر الثالث، الذي جزأته إلى عبارات قصيرة "اللي شفته.. اللي شفته.. قبل ما تشوفك.. عينيّ.. عمر ضايع.."، كانت أنغام الكمنجات تتعاظم

..الر المقاطع كأنها ترتاض لما يلي. وعندما بلغت الذروة صدحت
ا. ـ عمري!" كدوي ومُدّت آخر اللفظ ومدّته، وداور به صوتها،
، جعله ينهمر على الرؤوس والأذرع الممدودة. كأنه أطلق فجأة من
ا ارء، فانفجر الجمهور آهات وتهليلا.

حدست على الفور ببراعة محمد التي لا يُستهان بها. لقد استدرجت
الموسيقى الصالة بدراية جعلت الطرب يشيع من صف إلى صف حتى
الطلاقة الحماسة الختامية، والتي لا مفر منها، لقد سرت موسيقاه تدريجا
، مـحوبة بلذة تلقائية، أما صوتها فقد نثر البناء أشلاء لكي ينبثق طليقا من
اي عائق، وأفلح النجمان في الانصهار، كما بأعجوبة، في إله وحيد.
ا جابها الجمهور بصيحة: انت أيضا أنت، أيضا أنت عمري.. وإذا بها
بدأ بالكلمات الثلاث الأولى من المقطع التالي، "الليالي الحلوة.." مرتجلة
ما أعانها إلهامًا على الارتجال، محاورة الأوركسترا التي تصاحبها طائعة
ونستجيب لها بردٍّ غرامي. "الليالي الحلوة، والشوق والمحبة/ من زمان
والقلب شايلهم عشانك" قوبلت المدّة بغليان أقام الصالة وأقعدها هتافًا
وتكبيرا. أما هي، فوقفت على المسرح مُتلقيّة عاصفة التهليل بذراعين
مبسوطتين، وردت بترداد البيت بأكمله، متريثة في كل عبارة على هواها،
مرددة الكلمات، لاعبة بها، كأنها تنكأ، وتنكأ الجرح بسكين.

تجاهلت حال الهيجان في الصالة، وخصتني وحدي بنظراتها،
واقتربتْ. أشارت إليّ بحركة من رأسها، كأنها تسخر من شحوبي.
وعندما لامست شفتاها المذياع مجددا، همست بصوت لعوب:

"دوق معايا الحب دوق" فتصدّعت جدارن الصالة، ضحكتُ، كأنها تتعمد الإثارة، ورددت شطر البيت "دوق معايا" ورددته حتى استحال كلمة واحدة: "دوق" التي كررتها بأكثر من ترخيم وعلى نحو لا يخلو من الإيحاء الواضح. كانت قد جاوزت الستين من عمرها، فتجرؤ على ذلك دون خجل أخيرا، وأنا المقلبُ الآخر من مرآتها، جمهورها المجسد في شخص واحد، لم أنتظر عبثا. كنت "عمرها".

2

كان طارق قد بلغ سنته الثانية. وعلى جاري عادتي، كنت أحدثه عنها باستمرار. أصحبه من عند والديه إلى ضفة النيل، وفيما ينهمك باللعب اخبره عن حفلاتها، وأنتبه إلى أنني ما عدتُ أميز بينها، كأنها جميعها حفلة واحدة لا تنتهي. أريد أن أشرح له، لا أدري ماذا بالضبط، ولكنه أمر جوهري. ذاك الذي حصل بيننا، أنا وهي، ذلك السر، فلربما أضاء له مستقبله. أشعر بأني مستعجل ملهوف، فلم يعد لدي المتسع من الوقت، وقريبا سيكون عليَّ أن ألزم الصمت .. لأنه قريبا سيصبح بإمكانه أن يفهم ما أقول.

كان الجميع يقولون إن مصر على وشك النهوض، فقد تضاعف الناتج القومي خلال عشر سنوات. غير أن شيئًا من بوادر هذا الأمر لم يظهر في الحياة اليومية، لا، بل ربما ظهر العكس. فالحركة التي أخرجت الفلاحين

.. فراهم من أجل حياة أفضل. قد بلغت أوْجها وكفايتها. وفجأة، أصبح
الناس يتذمرون من الشعارات والخطب والشرطة الموجودة في كل مكان،
، الاشتراكية والغد الزاهر الذي لا يأتي على الإطلاق. توالت الإضرابات
العمالية، وتم قمعها بقسوة، وتفاقمت التظاهرات الطلابية التي تطالب
بإطلاق الحريات العامة. وعدد الطلاب في مصر بلغ حجما لم تشهده
من قبل.

كان صوتها يهدهد كل ذلك الغضب، كل ذاك الشقاء. تطل من على
المسرح، بثوب أبيض، أو أصفر أو أخضر، فيرمي الناس قلوبهم نحوها
، حتضنها في كنف دفئها، بعطاء، ولأوقات طويلة.

عند منتصف الليل. وفي ختام برنامج سهرتها المقرر، تبدي رغبة
في المزيد من الغناء وتنشد "يا ظالمني"، وهي قصيدة طويلة نظمْتها لها
قبل خمسة عشر عاما، أو تغني "أمل حياتي" الأغنية الثانية التي وضع
لحنها محمد. ذلك الجزء من السهرة يكون حرًا للاستمتاع، ويُسمح فيه
كل أنواع الارتجال. فجأة تخلع الصالة مظاهر رصانتها، وتُشمر الأكمام
والجلابيات. ذلك أن الأسى الذي يحياه الجميع ستعبر عنه معبودة
الجماهير، ستخوض في غماره وتجعله خفيفا. وهي تعلم يقينا أن الشعب
العربي سيبقى، في الأثناء، ملتصقا بأجهزة الراديو وأن الشوارع ستقفر،
وسيجتنب القادة الإدلاء بأي تصريح، لأن شعوبهم في تلك الليلة لن
تكون لهم آذان صاغية إلا لغنائها. ولكن بعد منتصف الليل لا يعود مثل
هذا المجد مهمًا. يكفيها نفَس ورائحة البشر الجالسين قبالتها. فالسيرة
أصبحت أمرا مجردا. حتى ما نالته من تكريم، حتى عبد الناصر، حتى

السياسة، إني أعرفها جيدا. أن يُحبط الحلم بقيام وحدة عربية في غضون أربع سنوات، أن تنتهي الوحدة بين مصر وسوريا بانفصال ضغينة، فهذه من أمور الواقع الذي لا تدركه. وحدها، خشبة المسرح هي الواقع. هناك يستسلم جسدها للنشوة بوصفها السبيل الوحيدة التي تمنحها إحساسها بالوجود. وهناك تكون موجودة. بارتعاشة أحشائها بثمالة صوتها هي، وصيحات الحب التي تستجيب لغنائها. وحده الحيز المثقل بالأضواء، يُتيح لها أن تخدر وعيها الأشياء. وهناك، ترخي، في شبه إغماضة الكوابح وتواصل إنطلاقها حتى الصباح.

حكيت لطارق. أنها تقول وتردد لكل واحد منا، وحده معها. "بعيد، بعيد أنا وأنت بعيد بعيد وحدينا .." أنت الرجل الجالس في العتمة، الذي يبكيني ويجعلني اتألم، لو كنت أدري لما احبيتك، أنت عمري أمل حياتي الحب هكذا، فلمَ لا أستطيع أن أصحو من الحلم الذي تأسرني فيه. تقول إنها تنتظره في الليالي الطويلة، الليالي الطويلة، فلمَ لا يأتي، و لمَ و لمَ.. يغيب الصوت ثم يرجع، يتلبس النغم الذي ينفلت فجأةً في حال انتشاء، فتتحرر آلاف الصدور من ضيقها معا.

لا تترك الأوركسترا مجالا لأن تطلق الأفواه أرواح السامعين طربا، فتباشر المقطوعة الثانية، وتكون انطلاقة جديدة لثمالة تبادلية جديدة. غير أن الكلمات تفقد معناها. ففي ظل دوار الصالة تروح تلعب بالمقاطع الصوتية بأجزاء منها، وترجّح صوتها على حرف واحد. فلا تعود القصيدة سوى ذريعة لتنويعات مجردة على أصوات مشحونة بالانفعال. ولا يدرك

ا امع أين أصبح. من حين إلى آخر، يتنبه إلى أنه يصرخ مع الآخرين، عند ا ماعه إلى نبرة أعمق، وبالكاد يدرك ذلك ثم سرعان ما يصمت، ، سمته بكلام. "بعيد بعيد أنا وأنت" دوار طقس شعائري يخطفه المتاه االولبي ويتشبث به. يصبح بلا عائلة، بلا عشيقة، بلا أولاد، شقيقه لم يمنفل، ولا تعود نهايات الشهر من أوقاته الشاقة. فالليلة لن يذهب إلى اليوم إنه في إجازة ويستسلم بجسده المتوهج لمجرى اللغز. أنا وأنت بعيدا من عيون السلطة، بعيدا عن المصاعب المنزلية، وسط الدائرة الحميمة. في البيت هناك زوجة تنتظره، أو لا تنتظره، تحبه ربما، ولا يفكر فيها لحظة ، احدة. إنه هنا في الثقب الأسود حيث التعامل مع المعبودة هو المهم. وقد يصرف ليلته، لا بل عمره، طوعًا في سماع هذا الصوت.

سوى أنه سرعان ما تتناهى إلى سمعه مقطوعة الرحيل. مجددا تقول إنها تنظره فلم لا يأتي.. ويدرك أن السهرة أوشكت على الانتهاء، ويرفض الأمر بكليته. ربما لم يبزُغ الفجر بعد، أقبّل قدميك، ولكن تابعي الغناء. تعزف الأوركسترا ألحانا سريعة، وهو واقف لم يصمت الصوت بعد ويحصل الانفجار، يقفز مع الآخرين باسطًا ذراعيه حاضنا إياها من بعد، حاضنا الفراغ، ثم بضع دقائق أخرى. كان يود لو يقول لها صائحا: إن هذا ليس صحيحا، وأنه ليس كما تقول. ليس هو، لأنه هو ايضا يحب ويتعذّب وينتظر.. وأن السعادة قد تكون ممكنة للحظة.

في الأثناء، كان طارق يضرب الدرابزين بمشاطه ويصرخ بأعلى صوته كلاما غير مفهوم، فقط لكي يُحدث ضجيجًا وأصمت. وبرغم ذلك، أرى في عينيه أنه يفهم ما أقول.

لا أذكر حفلاتها، إلا واحدة لن أنساها ما حييت. غنت خلالها "الأطلال" إحدى أجمل قصائد ناجي(*). غير أن الكلمات وحدها ما كانت لتعبر عن تلك الكآبة كلها، وكآبة قد تكون أقل من المعنى، أقصد هذا الشعور المدمر الذي لا يحمل اسما ويعرفه واحدنا، حيث يستبد به. "يا فؤادي لا تسل أين الهوى/ كان صرحا من خيال فهوى/ اسقني واشرب على أطلاله.." لقد صدَّمنا وما زلنا على عتبة العالم. لن نبكي بل سنشرب اسقني واشرب. غير أننا احترقنا بنار الهوى، لا بل أكثر: "هل رأى الحب سكاري مثلنا/ ومشينا في طريق مُقمر/ وعدونا فسبقنا ظلنا". كان الرجاء يطيب عيشنا. ولكن ما إن استيقظنا حتى طالعتنا الأطلال، "وإذا الدنيا كما نعرفها / وإذا الأحباب كل في طريق".

الدنيا كما نعرفها. دونما خفة. دونما مقدمات كئيبة، عسكرية مُراقبة بشدة. تصرخ: "أعطني حريتي ، أطلق يدي/ إنني أعطيت ما استبقيت شيئا" فيرج الهتاف جدران الصالة لتأوّه جماعي من أعماق القلب. صراخ وبكاء على شيء ثمين جدا فُقد ويود الصارخ أن يعرف ما هو.

منذ أن أصبح الترانزستور شائعا ورائجا، أصبح الصوت في كل مكان. "أعطني حريتي أطلق يدي" هذه كلمات سمعها مصطفى أمين، وهو نزيل السجن وأذنه ملتصقة بجهاز الترانزستور. وفسر الكلام على أنه موجه له، فبرغم توسطها مرارا لدى عبد الناصر لم تفلح في إطلاق سراح الصحافي الذي توسط لأجلها غداة الثورة. إذ يبدو أن أخطاء الذين يجيدون استخدام القلم هي الأخطاء التي لا تغتفر.

(*) إبراهيم ناجي (المترجم).

اطلق يدي. كل واحد منا كان يقرأ على شفتيها ما يُطبِق على صدره، أمله الشخصي المغدور.. أو ربما لا. فما تغنيه يعبر عن جوهر الأمر، عن الحال النفسية، عن حنين متأصل لا غرض مرئيًا له.

ما عادت الصالة تسعى للتصفيق لها. أو توسُّل رضاها، كانت تقف الصالة إلى جانبها. شعور بالحداد يخيم علينا جميعا. ولا صلة لهذا الأمر بالقصيدة ولا بعذاب الحب ولا بالسياسة. أو ربما كان لهذه الأمور جميعها صلة بالأمر الذي جعلها فظيعة، غياب أبكانا فور حصوله، فخلف نجمتي كان كرسي القصبجي شاغرا. وعلى الكرسي المنقوش كان عوده مقلوبًا حائمًا برقّة مُقبضة إلى السماء.

3

في العتمة، كان رجل مستندًا بجماع كفيه إلى واجهة أحد المحال المغلقة الأبواب، ويصرخ "الله أكبر"، ويضرب باب الحديد بمقدم رأسه. في تلك الليلة كان هذا الرجل يختصر العالم العربي بشخصه.

الحرب. ظننا أنا ربحنا. وكانت خسارتنا من الفداحة بحيث خسرنا كل شيء. ما سعينا لإنجازه منذ عشرين عاما، منذ أربعين عاما، وكل ما حاولناه أفضى إلى الإخفاق الكلي، وأصبح لا يستحق الحديث عنه.

عنف ضرباته أدمى جبينه. و لم ينتبه أحد إليه. كانت الجموع الغاضبة تمرُّ به ولا تراه. فالجموع لديها ما تفعله، والرجل ليس في حسابها. بعضهم

يشد شعره. وبعضهم يصرخ نواحًا متصلا، وبعضهم لوّى فمه فزعًا. إلى أين المسير، فليس ثمة من مكان يُلتجأ إليه.

حسبنا أنه يكفي أن ننتزع استقلالنا وأن نوزع الأراضي، وأن نؤمم القناة، وأن نصنع وأن ندعو إلى الوحدة العربية، ونتزعّم العالم الثالث ظننا أنا ربحنا، أو في الأقل أن حظنا في النجاح كبير.

دنوتُ منه محاولا ردعه، لكنه فتيٌّ وأقوى مني بما لا يُقاس. مكث على وقفته لا يريد التعاطي مع أي إنسان، فالباب الحديد يكفيه، يكفيه ذلك الحيز بين ذراعيه. لم يكف عن ضرب الباب برأسه، ولم يلحظ حتى إني احاول أن أمسك بذراعه لكي أردعه. لمحت في الأثناء وجهه الهاذي فشعرتُ بالخجل. كمن يقتحم بابًا يستر عورة صميمية مقززة بعض الشيء، مُفرطة في إنسانيتها. ابتعدت عنه واعتذرت. غير أنه لم ينتبه، ما عاد ينتبه إلى أي شيء. يضرب رأسه لكي يفقد وعيه، ولكنه لا يفلح حتى في هذا.

"يا أبناء شعبنا، لقد اعتدنا أن نجلس ونتحدث معا في السراء والضراء.. ما زال الصوت المتهدج يرن في أذني. ذو الكبرياء الذي تحدى الإمبريالية وإسرائيل ونصف الكرة الأرضية، هو الذي عمل على إسقاط النظام الملكي العراقي، وأرسل قواته لمحاربة ملك اليمن وشيوخ النفط، هو "يا أبناء شعبنا". إنه لا يخاطب الآخرين، بل يخاطبنا نحن وجها لوجه نجلس ونتحدث معا. كان وجهه يحتل مساحة شاشة التليفزيون الذي يبث

،الأبيض والأسود، أو بالأحرى، بالرمادي المشُوب بخطوط تشويش
..ط وئيدًا من أعلى إلى أسفل. يا أبناء. ثم جاءت الكلمات القاتلة التي
' معت في اللحظة ذاتها في العالم العربي بأسره الكلمات التي ما كنا
! صدق أن نسمعها إلا على لسانه هو. "يجب أن نعترف بأنها نكسة
نبيرة وخطيرة..". منذ خمسة أيام والراديو يذيع بلاغات النصر المتتالية.
, بما كانت البلاغات تحمل القليل من المبالغة. ولكن الواقع! الريِّس نفسه
يعلنه. نكسة كبيرة وخطيرة.

كان مغضيًا وشارباه الرفيعان يرتعشان، وكان ينبغي أن نصدقه، فما هو الخيار الآخر؟ لقد روى في خطابه التفاصيل، تفاصيل الحرب التي خسرناها. مجمل الطيران الحربي المصري دُمِّر على الأرض في أقل من ست ساعات، وضاعت سيناء وغزة، والضفة الغربية واجتيحت مرتفعات الجولان، والأسوأ من ذلك: ضاعت القدس.

هزيمة، قتلى وجرحى بالآلاف ولكن عندما قال: "دعوني أعود إلى صفوف الشعب لأتابع مهمتي كأي مواطن.. دعوني.. كأي فرد من بينكم.." أصبح الأمر حقيقة. فالنكسة إذًا من النكسات التي لا تخلّف أثرا. فالأب يمحو ما كان ويتنحّى. هذا الكلام وحده، جعلنا ندرك حجم الكارثة. ليست مجرد هزيمة عسكرية، بل أشد خطورة بكثير من الإذاعة. سمعنا أن الإسرائيليين يقيمون حفلا ضخمًا للموسيقى الكلاسيكية احتفاء بالانتصار، وكان واضحًا أنهم منهمكون بأمور أخرى. فقد عاد العالم إلى دورته المعتادة من دوننا. وسقطنا مجددًا في ماضينا.

كم من الوقت يستغرق الجسد في استعداده لقول: لا؟ وللمناسبة هذه الـ (لا) في وجه من؟ إنها الـ (لا) ببساطة. دونما قرار مسبق وجدتني أهبط السلم هرعًا برفقة ابني سمير، حتى دون أن نتفق. والقاهرة بأسرها فعلت مثلنا آنذاك، وبيروت ودمشق وبغداد والإسكندرية والجزائر.. عندما خرجنا إلى الشارع، كانت الساعة قد جاوزت الساعة السادسة مساء، واعتم الضوء قليلا كأنه كسوف، وشعرت بأن النور سينطفئ ونحن هناك، في الشارع، ذلك أن إعتام السماء في اللحظة التي يخرج فيها الناس من مبانيهم لا يمكن إلا أن يكون نهاية العالم. وكنت واحدًا منهم، يتدافعون فاميل يمينا ويسارًا، وأتعثر تحت وطأة ذلك الظل الهائل. متقدما كما في لحظة العماء وسط حشد يصرخ من أعماقه: "ناصر، ناصرا" وأُدرك فجأة أن الصوت الهاتف، هو صوتي.

استسلمتُ لموجة التدافع فوجدتني يسارا، توقفت وأسندت ظهري إلى جدار لكي أستعيد أنفاسي. تجاوزني السيل البشري في وقفتي، ونالني منه بعض كدمات. وسمعت أصداء هتافه المبتعد في الأنحاء. كانت التظاهرات العفوية تلتقي في المنعطفات وعند الجسور، وتختلط، والمدينة المتروكة هملا لذاتها، تسير في دائرة يتعاظم حجم أفرادها دقيقة بعد دقيقة. انفصلت، في الازدحام عن ابني وأصبحت وحيدًا.

ربما كان الرجل الذي راح يضرب باب الحديد برأسه محقا، والأحرى أن نحذو حذوه، وإلاّ فلنجلس على حافة الرصيف لنبكي. لقد حاولنا فعلا، ومنذ عشرين عاما أن نبقى واقفين، "يا أخي العربي ارفع رأسك"

، إذا بنا في غضون ست ساعات، في غضون ستة أيام هبطنا إلى أسفل الطريق، كان سقوطنا سريعا فلم يعرف أحد منا كيف يستوعب الهزيمة ، كيف يحياها.

استعادت الحشود لحمتها دونما قصد، وسارت في اتجاه القصر الرئاسي هاتفة باسم الرئيس. وفي العواصم العربية الأخرى، كانت التظاهرات تسير في اتجاه السفارة المصرية أو مقر الحكومة أو دار المفتي. وكان الهتاف: لا! جواب السؤال. حل الليل وبقيت الإنارة الأميرية مطفأة. وفي العتم اجتاح السيل البشري وسط العاصمة، وكل أوساط العواصم، حشد منصهر من أخيلة مرتعشة، والنور الوحيد كان في العيون الناقمة. حين وجب عليه الاختيار، اختار الشعب العربي غريزيًا أن يشل مدنه كافة. إضراب هائل. والعدد فيه كان القوة، حشد أجساد. ولن ينفك جسد عن آخر قبل أن يتراجع عبد الناصر عن استقالته.

حاولت عبثا أن أسلك وجهة الحشود، غير أن الشوارع ما عادت هي الشوارع، وما عادت المسافات الفعلية هي المسافات. كورنيش النيل مغلق بسبب الحشد، فلم أستطع أن أسلك جادة رمسيس، سلكت دون أن أعرفه، شارع شمبليون، حيث صادفت عددا من التظاهرات التي جرفتني في وجهتها. ظلال المباني الجرداء تحنو علينا من كل صوب. الزجاج صُبغ باللون الأزرق الغامق بسبب الحرب. والمدينة العمياء التي اجتاحتها الهتافات هجرت بيوتها لتحتشد في الشارع. للحظة ما شعرت بالإنهاك لأن ركبتي ترتعشان، فاتكأت على سيارة مركونة، لم يلبث الصراخ المتدفق نحو نقطة استجماعه أن أجفلني. مستحيل أن أكون

بمفردي وسط هذا الانهيار العصبي الجمعي. واصلتُ السير مقتفيًا حركة الناس وألمهم، متدافعا معهم وضدهم، حاضنا في أعماقي غضبهم الذي هو غضبي. وربما فات أوان القول: أنا، أو أحسب أنا، كنا نحن، وليس باليد حيلة، غارقين في طينة الأصل التي لا شكل لها، الحارقة، الخانقة نفسها بنفسها.

المعاندة في السير، ثم إعمال المرافق والجذع لكي أخرج. عبثا إمّا أنّ السيل البشري أشد بأسا وإما أنني عجوز أكثر مما ينبغي. تماوجت لساعات برفقة أبناء مصر والعالم العربي، مُنداحًا من مكان إلى مكان، منصهرا برغم كل شيء في ذلك الجسم العجائبي. (التوحيد) كان ذلك هاجس عبد الناصر، توحيد العالم العربي، كما أن الله واحد، وقد عرف صوت نجمتي كما لم يعرفه أحد سواها. غير أن ما يحصل اليوم هو التوحيد ولا شيء آخر. مُسَرْكلاً بين المناكب، أسير بوتيرة تقدم الحشود. ناصر. ناصر. وكان الاسم (كرامة) ذلك الزيّاح الليلي، ذلك العرس الهذياني للمأساة.

ومع ذلك كان اسم آخر يقود خطواتي بوصلة أخرى، ووجدتني أمام باب الفيلا، ولا أدري كيف أمكنني الوصول.

كتلة بشرية تحول وصولي إليه. آلاف من الرجال مثلي شاخصون في نوافذ الدار المنارة ينتظرون. وشعرت بأنني عاجز عن شق صفوف هذا الحشد، فذاك أمر يفوق طاقتي. لقد سرت طيلة الليل لأخفق على بعد أمتار قليلة. فقدتُ الأمل، وإذ رأيتني حبيس الصفوف الأخيرة ذرفت دموع عجزي، خلف هذه الأسوار، ثلاثون مترا فقط. وددتُ أن أمسك

..بها وأقبلهما، وأن أغسل وجهي بدفء راحتيها. لقد اجتزت المدينة ..را على القدمين لهذا الغرض.

مكثت بجانب الدرابزين، أغصّ بفكرة المنفى. لم أكن معروفا برسمي مع أن اسمي هو المشهور. وللمرة الأولى في حياتي قررت أن أستخدمه. اما شاعرها وتجرأت على قولها. وسرعان ما أحاطت بي سلسلة من الأذرع التي أفسحت لي الطريق فوصلت إلى السياج. سلسلة أخرى من الجنود تحرس السياج، جنود فتيان تفوح الهزيمة من فوضى ملابسهم.

كل الأنوار مضاءة، وردهات الاستقبال مقفرة، لم أر أحدًا. وفي الطبقات الأخرى لم أجد سوى حجرات خالية. بدت الفيلا وكأن أهلها غادروها هلعين على جناح السرعة، فقصدت جناحها.

فتح لي الباب محمود، محمود ابن شقيقها. لم تنبس بكلمة، تعانقنا. في صالة الانتظار، حول بابها المغلق، رأيت بضعة أشخاص؛ السنباطي وبيرم والشيخ زكريا، وبعض المقربين. رمقوني بنظراتهم. كنت في المعمعة فقدت طربوشي، وصار شعري كالدُّغل البري، وقلبت ياقتي، وبدا ذيل قميصي من تحت السترة. صافحت الأيدي التي امتدت، وجلست على كنبة شاغرة بين السنباطي والشيخ العجوز زكريا. سُررت لوجود الشيخ هناك، فالمصالحة بينهما لم تتم إلا منذ وقت قصير بعد خصام دام عشر سنوات. في زاوية من الصالة، وضع جهاز راديو يبث الأنباء المأساوية بأعلى طاقته ولكن لا أحد يصغي. فالمهم قد بلغ الجميع للأسف.

فُتحَ باب الغرفة، وخرجت سعدية، وجهها منتفخ كئيب وشعرها يميل إلى الزُّرقة. ثم تبعها الدكتور حفناوي والمسماع بطوّق عنقه.

– لا بأس، قال بصوت خفيض. لقد أعطيها مهدئا. لكن حالتها لا تسمح برؤية أحد.

اقترب مني وصافحني، ثم جلس في غمرة ارتباكه مع الحضور، قُدِّم لنا شاي مر. وبصوت خفيض استفسرت من الشيخ زكريا عما حصل.

– أصيبت بوعكة. كنت قد وصلت لتوي وتقدمت نحوي. كأنها شاخت دفعة واحدة. كأن جسدها هي، هو الذي تلقى الهزيمة. قالت: "أترى.."، ووقعت أرضا. فنقلناها بمساعدة د.حفناوي وسعدية إلى غرفتها.

مال السنباطي نحوي وقال:

– إنها مؤامرة. مؤامرة أكبر منا.

– وهز رأسه مرارًا كأنه في محضر عزاء.

– حلفاؤنا الروس خانونا. فالأسلحة التي باعونا إياها كانت أقل فاعلية. قل لي، بربك ما هي مسئولياتنا في ما جري.

– لم أكن في حال تعين على المناقشة، وبأية حال، ما كنت قادرًا على قول أي شيء.

– لم الروس ؟ سأل الشيخ زكريا. ليس لديهم أية مصلحة في ما جرى.

– ومن يدرِ؟ لابد أن الأميركيين والروس قد عقدوا صفقة من وراء ظهورنا. أعطيك هنا فتعطيني في المقابل هناك .. أو ما شابه.

قررت أن لا أسمع. فالهتافات التي تجتاح الشوارع ما زالت تتردد

ادني. والأحرى أن أمتنع عن التفكير في شيء. طارق لم يتجاوز بعد
عامه الثالث، وسوف يترعرع في مناخ الهزيمة. كأن التعب في جسمي
أثار فيّ نعاسا متيقظا. فتهالكت، مسترخيًا، على الكنبة. لكن حديث
السياسة الذي بدأ بنبرة خفيضة ازدادت حدّته. وتضاربت الآراء: خطأ
الأميركيين، خطأ الروس، خطأ العالم بأسره، كنا ننتظر طائرات العدو من
الغرب، فجاءت من الشرق .. لابد أن حاملة طائرات أميركية قد حملتها،
سرية فائقة، مؤامرة أقل، أكبر منا.

– مَن لا يجيد الرقص، يحسب أن الأرض غير سويّة.

فتحتُ عينيّ. العبارة الأخيرة قالها الشيخ زكريا. بحزن وغضب،
أشاركه فيهما. من يسمعنا يظن أن المسئولية لا تقع على عاتقنا. فذاك ليس
انتصارهم وتلك ليست هزيمتنا. لا ذنب لنا فيما حصل، لم نكن هناك لم
نكن نحن.

4

تراجع عبد الناصر عن قرار استقالته نحو منتصف الليل. وبثّت
الإذاعات والتلفزيونات في جميع الأقطار العربية هذا الخبر، غير أن المدن
بقيت مغلقة على حشودها. لم يصدق أحد مثل هذا القرار الذي اتخذ
باكرًا، إذ ينبغي أن تُلعب مأساة التنحّي حتى آخر فصولها.

وهذا ما حصل. ففي ساعات صبيحة اليوم التالي صدّقت الحشود، وكان مثابة خاتمة سعيدة مستنفدة، إثر تجربة رهيبة. كانت الحرب لم تنته بعد، والإسرائيليون يواصلون اجتياحهم الجولان السوري، وفي الوقت نفسه، كانت الشعوب العربية تعبر عن بهجتها. فقد خسرت المعركة، غير أنها لم تخسر قدوتها. لقد أنقذت، في هذه المسألة الشيء الجوهري، الرجل، قائدنا الذي يجسد وحدتنا. فإذا كان المسير نحو الهاوية، فالأحرى أن يكون بصحبته، هو الأب المخذول، لكنه الأب برغم كل شيء. أنا أيضا شعرتُ بالارتياح، وكيف لي أن لا أقرّ بذلك. إني أنتمي إلى هذا الشعب. وعزاؤنا الوحيد، مثل هذا الوفاء المُعلن في أكثر الفترات حرجاً.

غير أن ذلك لم يحُل دون غرق السفينة. بعد يوم أو يومين تفاقم حجم الهزيمة، وبلغتنا تفاصيل مُحزنة، وأخطاء مميتة. بلغتنا الحقيقة برغم الرقابة الساهرة، أكثر من أي وقت مضى. والإذاعة لا تكل. النكسة تقضي بأن نرص الصفوف، وأمنية العدو أن نمزق بعضنا بعضا في الساحات العامة. نحن عائلة صامدة، مهزومة ولكنها لم تفقد كرامتها، خسرنا معركة و لم نخسر الحرب. وبمقدار ما عبّر رد الفعل ليلة الاستقالة عن مشاعر كامنة، كان الرجوع إلى الدعاوى الرسمية يثير الغثيان.

مَن هو المخطئ إذاً، بقي السؤال شوكة في الحلق. وحين تبدّى أن فرضية المؤامرة قاصرة، ابتكرت الأذهان حكاية أخرى: "لقد أمضينا ليالينا ونحن نغني يا ليل!" كتبت إحدى الصحف اليسارية، وصرفنا أيامنا ونحن نأكل "الفول" ونضحك من النكات التي ألفناها عن قادتنا، في

...، أنهم هناك، خلف كثبان الرمال، كانوا يستعدون للحرب، الحرب ...، وما كنا لنصاب بمثل هذا الإذلال لو أننا عرفنا كيف نعبئ أنفسنا، ... ونصبح حديثين ونصبح جديين.

على هذا النحو، بدأت التلميحات، بعد ذلك أصبحت النبرة أشد ...وة. لقد ضيعنا مزاجنا الحالم، وحسن المتعة لدينا، وغرامنا المفرط ...الكلمة. ومن كان يغذي فينا هذه العادات، هذه اللامبالاة القاتلة منذ ...عقود وعقود من الزمن؟ "نحن لا نعطي صك براءة للفن، أجابت إحدى ...الصحف التي قادت مثل هذه الحملات. وينبغي الاعتراف: أن فننا ...الشرقي هو أحد أسباب النكسة. ففي بلدان أخرى، الفن يحيي الأذهان ...والنفوس، وينبه المدارك. ولكن عندنا، وإن أمعنا التفكير، نراه تحفيزا متواصلا للامبالاة والتسطيل. فيكف لشعب أن يستعد للحرب إذا كان ...يصر على السهر حتى الرابعة صباحا لسماع مطربة عبر الإذاعة".

ما عادت تغادر غرفتها، وما عاد أحد يراها. ولأننا كنا لا ندري أين نذهب، اعتدنا اللقاء كل يوم في ردهة الانتظار أمام باب غرفتها. د. حفناوي عاد إلى مزاولة أعماله اليومية في العيادة واختفى المستخدمون الآخرون لم يبق سوى سعدية العجوز، لاستقبالنا. كانت تلعب دور الوساطة، تُعلم سيدتها بحضورنا ثم تبلغنا أجوبتها. فالصغيرة تشكرنا لزياراتنا، وتعلم أننا المقربون، وهي ليست حزينة بسبب ما تتعرض له من حملات تشهير بل بسبب النكسة بالذات.

بعض الصحف قالت بوضوح: إن الهزيمة في الحرب سببها ذلك الجيش من الموسيقيين والشعراء المنتمين إلى رعيل سابق، والذين عمدوا

بذريعة النشوة الفنية، إلى حرْف الأمة العربية عن واجباتها السامية. وكنت لا أصدق مثل هذا الهراء، غير أنه يجرحني، فالتأوهات المسكرة حول الحب المستحيل. هي أنا، وشغفي أنا هو قصر الأحلام الذي أفضت تأملاته إلى الهزيمة. وهذه حقيقة حتى لو أنكرت وأنكر معي آخرون. إنها غلطتي وغلطة المرحوم القصبجي أيضا، والشيخ زكريا والسنباطي وبيرم ومحمد عبد الوهاب. لقد أردنا أن نحيي وأن نواصل حلما قديما، ولكن محدثًا وحاولنا.. وكان الأحرى أن نربي عسكريين وأخصائيين وتقنيين في شئون الحرب. العبث سيد الأحكام، فأي شعب نكون إن أغفلنا ثقافتنا؟ إني أرى أن سبب المأساة هو العكس تماما، لأننا لم نفلح في التقدم، وفي تنوير ميراثنا لكي يُثمر. هذا هو إخفاقنا.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ لقد فُرضت حرب السويس علينا وكانت ضربة حاسمة للكوسموبوليتية التي صنعت رفاهنا. وأصبحت مستلزمات المعركة هي الأساس. فأوقفنا كل بحث عن العصر الفرعوني واللغة والإسهام القبطي في حضارتنا. وأصبح حمانا مُدقعًا، وأصبح مجتمعنا هشًا. إذًا ماذا؟ أما من حل؟ أيعقل أننا هباء في الأصل؟ هذا بالضبط ما لا أستطيع أن أقرّ به.

اصطحبت طارق إلى ضفة النيل، إلى الأماكن التي كنت أصطحبها إليها. اعترافاتي الخاصة التي سمعها مني في أول سنتين من حياته خفرًا في التعامل معه. أصبح الآن في الثالثة والنصف من عمره، غير أن هذا لم يكن السبب الوحيد. فما عاد باستطاعتي أن أحدثه عن هذا الحب الهائل الذي قاد (الأمة) إلى الهزيمة. فأكتفي بالإصغاء إليه هو، أن يذهلني بصمت

، القلب حزين. أصبح له أصحاب ويستخدم عبارات يعرفها، وأخرى لا يعرفها أيضا من قاموس لا ينضب، وهي جديدة عليّ.

ذات مساء، في طريق عودتنا ابتعت صحيفة. على الصحيفة الأولى "منبر حر" تعليق كتبه أحد قادة اليسار المصري، وكان العنوان يُغْني عن قراءة التعليق: "إني أتهم كوكب الشرق بأنها أفيون الشعب"، ودون أن أكلف نفسي عناء القراءة، حضنت طارق بين ذراعي وركبت سيارة اجرة.

فتحتُ باب غرفتها بعصبية، وأطللتُ على الشلة المقيمة في صالونها. الجرنال في يدها.

– لقد تصرّمت أزمنة الآهات، والحداد أقام وقتًا طويلا. أما الآن، فينبغي أن نستأنف صراعنا.

جاء كلامها حاسما. لقد أعاد إليها الغضب ألوان سحنتها، وأعاد لجسمها ذلك الاتساق. الغضب يزيل التجاعيد كافة، وسوف تمحو ما مضى. استدارت نحوي وذابت رقة. اقتربت ببطء وسألتني إذا كان هو مَن تظن، فهززت برأسي. أرادت أن تحضنه لكنها، قبل قليل، كانت غاضبة، فبكى طارق ولاذ بحمى ذراعي. قالت: "بإمكانك أن تبكي هيا. لقد غنيت لجدك ما استطعت. ومنذ الآن سأغني لك".

صمَّمت على الرحيل. فقد تكون تلك هزيمة السلاح. غير أن النفس ما زالت كريمة. خطتها؛ التجوال في أنحاء البلاد، مدينة بعد مدينة، حيثما كانت الهزيمة. فهذا الصوت الذي قيل عنه إنه يجعل الشعب خانعًا، سوف يوقظه، وسوف ترون.

سأُحال على التقاعد بعد ثلاثة أيام. كان ينبغي أن أتقاعد منذ سنة، غير أني سعيت في تأجيل الأمر شهرا بعد شهر. فقد صرفت عمري في تلك المكتبة، ثلاثة وخمسين عاما من حياتي المهنية، أي كلها، أراد زملائي أن يقيموا لي حفل وداع، ودُعي إليها الوسط الموسيقى والكتاب والشعراء، توفيق الحكيم ونجيب محفوظ.. وكان ظني أني سأحمل حزني إلى هذه المناسبة، فهي بداية النهاية. وحين حصلتْ شعرتُ بغبطة الفتيان. بعدها مباشرة، كانه عليّ أن أهرع إلى المحطة الكبرى. فقد أصبحت بلا عمل، أصبحتُ حرا، لقد طلبتْ مني أن ارافقها في هذه الجولة على المدن في البلاد. ما يشبه شهر عسل.

"ابقى فانت السد الواقي لمنى الشعب/ ابقى فانت الأمل الباقي لكل الشعب/ أنت الناصر والمنصور/ ابقى فانت حبيب الشعب(*)". هذا الكلام الذي نظمه "صالح جودت" عشية التنحّي. تُطلقه كلامًا يجيبه العالم بأسره من دمنهور. وأدّته بقناعة أثارت الجمهور. ناصر المنتصر؟ المنتصر على مَن؟ كيف لأحد أن يتلفظ بمثل هذا الكلام؟ ذلك مرضنا المزمن يعود. أن نجعل الكلام محل الوقيعة. في القطار، اوشكت أن أثير الموضوع. "ما الحل الذي تقترحه؟ أجابت. جولة غناء مكرسة للنقد الذاتي ولإنكار الذات؟ لن أكون يومًا صوت الانهزامية. الشعب يائس وقانط. وما ينبغي أن نفعله أولا أن نوحد الشعب، ونعيد إليه ثقته بنفسه. هذا هو الأمر الملح. وفيما بعد سوف نرى".

(*) حافظنا على ما ورد في النصوص التي عدنا إليها في ترجمة كلام الأغاني المعروفة والمتداولة؛ وأبقينا الخطأ خطأ للأمانة (المترجم).

حفلتها التي بثتها الإذاعات كافة كانت، قبل أي شيء. ردا على النقد المغرض. إني لا أخدّر الشعب. وعلى المسرح كفت عن التنويعات الشهوية الشهوانية. وخلا أداؤها من ترداد الجملة الموسيقية الواحدة مرارًا ونكرارًا فما من مجاراة أو تواطؤ. صوتها المُثقل بالرصانة، قابله الجمهور بخشوع شبه صامت. هو أيضا يحاول أن يحفظ مكانته. أن تشرد في الليل يدكُّ على أذنك، ووجهك يقابل السماء، فهذه ليست المشكلة. ففي قرارة نفسي، كنت لا أبالي. سيّان. بإمكانها أن تفعل ما تشاء. أن تتلو نصها أو تُضنيه تجويدًا أو تستظهره. المسألة برأيي ليست هنا. كنت غارقًا في مقعدي في الصف الأول، ومضطرا لأني أراها، لا أكثر على بعد أمتار، واقفة لا تزال، وعلى قيد الحياة. وخلفي هدير الصالة صاخبا يستجيب بصيحة ألم.

حين همّت بإنشاد المقطع الثاني أخفقت. كفت عن الغناء، واتّكأت على الكرسي، وأشارت إلى الأوركسترا. فتوقف العزف. و لم يُسمع في الصالة رجْع نفس. وإذ ذاك أمسكت المذياع بيديها وقالت: "شهد الله، عليّ، كما على كل فرد منكم، ظننت أن داري قوّضت، وأن الشقاء مكتوب علينا إلى الأبد. غير أني مكثت مستنكفة في داري لا أريد أن أرى أحدا". لم يسبق لها أن فعلتْ من قبل ما فعلت.. أن تتحدث إلى الجمهور، لا بل أن تحكي عن حياتها الخاصة. "غير أن واحدنا لا يستطيع أن يمكث في الظلمة. ذات يوم تساءلت عما إذا كان صوتي، وهو هبة من الله، سوف يخذلني، عما إذا كانت عاجزة عن إغاثة بلدي الجريح، أو أم الجندي الذي قُضي في ساحة الشرف أو ابنه الذي يتمته الحرب. والجواب

ماثل أمامكم الليلة، وهو حضوري، لقد صممت على الغناء حيثما كان، لأثير حمْيا القلوب والإيمان لأقول في كل مكان إننا إنما خسرنا معركة ولكي نكسب المعركة المقبلة علينا أن نتوحد وأن نغير. إن شاء الله. أطلب من كل امرأة في هذا البلد أن تحذو حذوي، وأن تهب حليّها ومجوهراتها للمجهود الحربي. وأنا أعلن أن كل قرش سأجنيه من الحفلات خلال جولتي، وأن مجموع ما سأحظى به من ريع حفلاتي، سيكون هبة مني للدفاع عن الوطن".

أياد قليلة صفقت كأنها مرغمة. وفي فترة الصمت التي أعقبت كلامها، نزعت ببطء أقراط أذنيها، وهي هدية من أمير الكويت، تلقتها منذ سنوات، ونزعت القلادة والأساور. فعلت ذلك كأنها تتعرّى دونما ادعاء أمام الملأ. ثم دخل رجلان يحملان العلم من طرفيه، وأودعت هبتها في طيّاته. لم يكن عدد النساء ملحوظًا بين الحضور، فقد رُكِنّ في مربع صغير المساحة إلى اليسار. وحال حملة العَلم عليهن فتخلّين عن مجوهراتهن ووهبنها كما لو أن الأعطية مقدسة. أما الصالة التي احتشد فيها الذكور فسرعان ما صدحت في أرجائها موسيقى النشيد الوطني: "بلادي.." فهب الرجال وقوفا منشدين والغصة تهدج أصواتهم. وكانت تلك المرة الأولى، منذ نكسة حزيران / يونيو، والتي يجرؤ فيها المصريون مجددا، سواء في غمرة الغضب أو الحياء، أن يرفعوا رؤوسهم.

بلغت حصيلة حفلة دمنهور 283 ألف جنيه، وحفلة المنصورة 120 ألف جنيه، وحفلة الإسكندرية 100 ألف جنيه، باستثناء التبرعات بمجوهرات النساء. غنت "قُم بإيمان" و"خلّي الأمل بالعمل يُصبح وجود.."، وعلى

الأخص مقطوعة "الأطلال" الشهيرة "أعطني حريتي، أطلق يدي" التي تثير، كل مرة لدى الجمهور مشاعر العبادة والتمرد، سمعناها في بورسعيد المدمرة، وفي الإسماعيلية الرازحة تحت حرب الاستنزاف، وفي المنصورة حيث أعلنت عن تبرعها بعشرة آلاف جنيه إسهاما في إعادة إعمار المدينة. كما أنشأت تجمعًا وطنيا للنساء المصريات، هدفه إعانة الجنود الجرحى وأسرهم، ونظمت حملة جمع آلات الخياطة لتوزيعها على الأسر التي تحيا على طول ضفة القناة، والتي خسرت كل شيء. كانت في كل مكان، لكنها لم تجد الراحة في أي مكان. كأن الاسم الذي وُسمت به أفيون الشعب غير قابل للنسيان.

كان الرابح الأكبر هو السلطة. فالسلطة التي وجدت نفسها بلا سياسة، ومتورّطة في أوضاع كارثية رازحة تحت حرب استنزاف، كانت تحمد السماء كل يوم للمعونة المادية والمعنوية التي توفرها لها نجمة الطرب، لقد اصبحت حفلاتها هي المظاهر الوحيدة التي من شأنها أن تعّزز معنويات البلاد. اسمها أصبح مقرونًا باسم عبد الناصر. إلى الأبد. قران سعادة أو قران تعاسة، وحتى قران مغامرة. كانت تحمل الأسطورة على كتفيها، قادرة في الأثناء، على إنجاز تعبئة شعبية يعجز بها أي خطاب. يُقتفى أثرها من منطقة إلى أخرى. ويُفرد لها السجاد الأحمر في كل محطة. لكنها تأنف حفلات الاستقبال والتكريم. فالأضواء والمظاهر ما عادت تصنع الناس. حاضرة أبدا، وحضورها علامة. ما عاد الطرب هو المسألة، على الأقل رسميا، و لم أعثر بذلك يوما، فالغبطة قد تكون موجعة أحيانا غير أن المرض مقيم. النسغ المقيم، تلك اللذة المحرمة التي ربما شربنا من كأسها

حتى الثمالة، ولست أعرف سواها، صوتها وُجد لمثل تلك اللذة وليس في مقدور أحد أن يبدل في ذلك شيئًا. وآذاننا، وأجسادنا وأرواحنا. الرطانة الوطنية لن تبدل شيئا، ومثلها الموسيقى العسكرية. أما هي، فلم تشأ أن تعرف، ولولا بعض الخفر لارتدت البزة العسكرية. غير أن هذا، حتى هذا ما كان ليبدِّل شيئا. فالدوار الشهوي الذي يستبد بها قبل أن يفتن الجنود، كان أقوى منها.

5

وضعت يدها على يدي وابتسمت. عادت لتوها من باريس، حيث غنت في "الأولمبيا". كان من المفترض أن ارافقها في هذه الرحلة، غير أن ألما مفاجئا في وِرْكي الأيمن أقعدني رهين الفراش. "عرق النسا" بلى أعرف الاسم غير أني لم أعرفه من قبل. رحلت من دوني. وخلال غيابها تآلفتُ مع مفردات أخرى من المعجم الذي لم يسبق لي أن استخدمته. مرض، أوجاع وقت جامد، شيخوخة. كم اغتبطتُ لفكرة العودة إلى باريس بصحبتها. عاشقًا روح سلكا الدرب إلى آخره وعادا إلى نقطة الانطلاق هانئين، أو شبه هانئين.

لابد أنها تأثرت لرؤيتي طريح الفراش، لا أدري، ربما لأنها تخيلت اللحظة التي لن أعود فيها هنا.

- بعد الحفلة الثانية، اشتقت للقاهرة، لرائحة البلد، لطعم .. وطلبت من سعدية أن توضب الحقائب، المسكينة كم أصبحت عجوزا تكاد لا ترى ولا تسمع، غير ان وجودها في باريس أكسبها صبًا جديدًا. ومع ذلك، كانت فرحة لعودتها. ثم هناك تلك البرقية من عبد الناصر. يبلغني فيها أنه يمنحني جواز سفر دبلوماسيًا، ولقب سفيرة. فكان ينبغي ان نعود.

لم أقل شيئا، ما عدتُ في حاجة لأن أقول شيئًا.

ثم.. لقد اشتقت جدا لأصدقائي.

استرخى جسمي قليلا، فابتسمت.

- سأغني في دار عزيزة هذه الليلة.

- لن أكون حاضرا. فمثل هذا لم يحصل من قبل.

- ولن يحصل على الإطلاق. لقد تدبرت كل شيء. سيأتي ابن شقيقي برفقة ثلاثة من أصدقائه لاصطحابك عند الثامنة مساء. سوف ينقلونك مستلقيا، ففي هذه الليلة أنت هو السيد.

أردتُ أن أجيبها غير أن الكلام انعقد في حلقي. ولحسن الحظ دخلت هدى في هذه الأثناء. وضعت الصينية على السرير، وأدنت كرسيا آخر. لوقت لا بأس به، وبشعور من التوازن المطلق، كنت أرى أمام عيني معا المرأتين اللتين عُنيت بوجودهما، ثم نهضت هدى وكأنما أرادت فقط أن تمنحني رؤية هذا المشهد، وغادرت الغرفة متيحة لنا أن نبقى في خلوة مجددا.

– هيا.. أخبريني عن باريس، قلت بصوت خفيض، بعد صمت.

– لقد استخدمت كل العبارات الفرنسية التي لقنتني إياها. ولم يفارقني ابن شقيقي خطوة واحدة. في الفندق خُصصت له غرفة بجانبي، فكنت عاجزة عن الحراك. ولو ترك الأمر له لأمضى لياليه أمام بابي. فبالنسبة له كانت الرحلة عبارة عن مهمة في بلد عدو. تذكر جيدا أن الجميع قالوا إن هذه الرحلة مخاطرة إثر النكسة مباشرة، وأن الصهاينة لهم نفوذهم في فرنسا، وسيفتعلون المظاهرات. والحقيقة أن عددا كبيرا من المقاعد كان محجوزا ليهود مصريين، هذا ما أسره إلى مدير "الأولمبيا". خلال الأمسية الأولى وكانت الأوركسترا لم تنه عزف المقدمة الموسيقية، وحين نهضت لأغني "أمل حياتي" فإذا بشاب يقفز إلى المسرح ويندفع نحوي. لم يتمكن أحد في ارتباك المفاجأة، من إيقافه أو اعتراضه، وارتمى عند قدمي. كان يريد أن يقبّل قدمي! اندفاعته هذه جعلتني أفقد توازني. فوقعت من طولي على أرضية المسرح، أمام أنظار الحضور؛ في الأثناء تمكن رجال الأمن من السيطرة على الفتى، واتضح أنه شاب تونسي يحيا في شمال فرنسا. لقد أنفق المسكين كل مدخراته على تكاليف الرحلة إلى باريس وثمن بطاقة الدخول. توسطت له بإصرار لكي يسمح له بالبقاء في الصالة. وفيما بعد رحت أغني، ولا أكف عن النظر إليه في الركن الذي أمر بملازمته حتى النهاية. لو أنك رأيت بريق عينيه! وذاك كان الخطر الأكبر الذي تعرضت

له في باريس.

- لقد جئت لأخبرك.
- بماذا؟
- يجيب أن أسافر مجددا. في غضون ثلاثة أيام سوف أحصل على جوازي الدبلوماسي وأغادر إلى الفور.
- إلى أين؟
- نفس الجولة التي قمت بها في أنحاء مصر. سأقوم بجولة مماثلة في أنحاء العالم العربي. سأستقل الطائرة أولا باتجاه الخرطوم. وهناك أنتقل مباشرة إلى فاس والرباط وتونس والمدن الأخرى. أردت أن أخبرك ولن أمرّ بالقاهرة بين مواعيد الحفلات. هذه الرحلة.. ستستغرق وقتًا طويلا.
- أنت راحلة ولن تعودي .. أهذا ما...
- أجل إني راحلة ولن أعود أبدا.

قالت عبارتها بجدية مفرطة، ثم ضاحكة أردفت قائلة:

- هذا ليس صحيحا، بالطبع سأعود، يا لك من أحمق. ولكن بعد أن أعيد توحيد العالم العربي. أما متى سيحصل ذلك؟ الله أعلم.

6

أسهم التليفزيون في تغطية رحلتها، فكان يبث حفلاتها بعد يومين أو ثلاثة من إحيائها. لقد شاهدتها مثلا على مسرح "الأولمبيا" حيث كان الراديو يبث وقائع حفلتها في الخرطوم ، تعلن الصحف انتقالها من الخرطوم إلى طرابلس الغرب، في ليبيا، وحيثما حلت يتم استقبالها كرئيس دولة، كأنها خشبة الخلاص الأخيرة. أسماء الأمكنة ما عادت ذات معنى، وهذا المطار كسواه لا موضع جغرافيًا له. تهبط سلما أبديا وتستعرض ثلة تشريفات خيالية، وتصافح وزراء لا ملامح لهم، وقدماها لا تلامسان الأرض. لقد حظيت بنعمة الحضور في كل مكان.

إن أردتُ أن أعثر عليها، يكفي أن أعالج زر الجهاز في أي ساعة، وما إن تتحرك إبرة التأشير، تكون هناك دائما في مكان إقامتها الحقيقي. ومسمرًا على ثلاثة أمتار مربعة هي مساحة سريري، أمكث منتشيا على أنغام هذا الصوت الروحاني الذي يهُب في فضاء العالم العربي، ينسل من مساحات جلدي، يغني في داخلي، يهمس في صدري. النهارات هي تكرار النهارات، وحتى الليالي. أتنشّق صوتها مع الهواء الذي أتنفسه، إني طافح بها، وعاجز عن أن يطفح كل ذلك من أعماقي، إلا إذا رحت أقلب رأسي يمنة ويسرة على الوسادة كالدراويش.

كانت فكرة نقلي مستلقيا إلى دار عزيزة قد جعلتني أقسم بأن لا أكرر الفعلة مرة أخرى. كادوا يوقعونني على السُلم، فاستيقظتْ فيَّ أوجاع

"عرق النسا". وطيلة السهرة ضاعف غناؤها أوجاعي فأصبحتْ فوق طاقتي واحتمالي. لذا ينبغي أن ألزم الفراش الآن، مهما حصل.

كان طارق يعودني كل يوم بعد خروجه من المدرسة في طريق عودته إلى البيت، يرتدي البلوزة الباج ذات الجيبين، وحافظة كتبه على ظهره. يصل لاهثًا لأنه يقطع المسافة ركضًا ثم يجلس بجانبي على طرف السرير. يلزم الصمت وأنا أيضا يرمقني بعينين فاغرتين يصغي إلى الصوت مثلي.

لم تكن الخرطوم مجرد مكان متخيل. فليلة وصولها إليها، شاركت في "ليلة الحنة" وصبغت راحتيها بعربسات دقيقة، وهو الطقس الذي تنسبها القبيلة من خلاله إليها بوصفها عروسًا. "السودانيون والمصريون هم شعب واحد، صرخت شاهرة راحتيها، شعب واحد وسط الشعب العربي العظيم". ودوّى التصفيق الذي لم يهدأ إلا حين اخترقه صوت رسمي يُعلن أن إحدى مدارس العاصمة سوف تحمل اسم "كوكب الشرق"، شقيقتنا. قبل ذلك بأشهر قليلة، وفي هذه المدينة بالذات، اجتمع ملوك ورؤساء الدول العربية لإعلان رفضهم الاعتراف بإسرائيل، ورفضهم المفاوضات المباشرة أو أي تنازل بشأن حقوق الشعب الفلسطيني. وأصبحت "اللاءات الثلاث" هي خط دفاعنا الوحيد بانتظار إعادة بناء جيشنا. وفي الأثناء، كانت هي تغني.

في ليبيا، نُظِّمت لها حفلة لجمهور اقتصر على النساء، "يا أخواتي انزعن حجابكن، نحن القوة المنتجة في مجتمعاتنا، وبإمكاننا أن نبقي

رأسنا مرفوعًا وسافرًا" وخلال الجولة نفسها في أنحاء البلاد، لم تدْ
عن نداءاتها لتحقيق الوحدة العربية، ما سبّب إزعاجًا واضحًا لنظام ملكي
أصبحت أيامه معدودة.

أما في الرباط، فلا أدري تماما ما الذي أصابها. كانت أوجاعي قد
سكنت، وغادرتُ الفراش للمرة الأولى منذ شهرين. دعاني محمد لمشاهدة
الحفلة في بيته، وجلسنا قبالة التليفزيون. وعلى جاري عادتها خلال الجولة
كلها افتتحت الحفلة بـ "الأطلال"(*) قصيدة بيرم، والتي قد تعتبر، على نحو
ما، أغنية تعبوية. وقد أظهرت استجابة الجمهور المغربي للأغنية أنه يفهم
اللهجة تماما، وأنه ينتمي إلى العائلة نفسها. ولكن بعد الاستراحة، فاجأتنا
بإنشادها: "هُوه صحيح الهوى غلاّب"، وهي أغنية عاطفية، فرحة،
لا يزال نجاحها متواصلًا منذ مطلع الستينيات، قبل النكسة بوقت طويل،
يوم كان الرجاء لا يزال ماثلا نُصب أعيننا. ربما كان السبب وجودها
في المغرب، البلد البعيد عن ساحة المعركة، أو ربما مجرد مصادفة سعيدة،
فخانتها رنة صوتها وأرادت أن تهرب تلك الليلة، أن تخلّ بوعد الوطن،
وتسترجع ثمالة الأصل، فاصلة، ولكن ملحاحة، إجازة ليلية تمنحها
لجسمها على مضض، مستدرِجة في إثرها عالما عربيًا مجروحًا.

"نظرة.. وكنت أحسبها سلام". ثم راح صوتها تدريجيا يفيض بانفعال
على وشك التدفق يلهبه في أعماقها هتاف الجمهور، وإحساسها الداخلي
هذه الليلة بالذات لأن تستجيب له. تبادلنا أنا ومحمد نظرات استفهام.

– إنها تبدو في أحسن حال، همس قائلا.

(*) أبقينا على خطأ المؤلف حسب ما ورد في النص الأصلي (الناشر).

، الحقيقة أن هذا أقل ما يقال عنها. كانت أوتارها الصوتية تتريّث في
.م كل عبارة وترددها إلا ما لا نهاية، ولكن كل مرة بطريقة مختلفة،
... كلمة واحدة، نظرة لكي تعبر بها عن أمداء مناورة الصوت الكبرى.
.. ان عليها إلا أن تترك العنان لتدفق الصوت من تلقائه، مالكة الموقف
. لحكته، فلا تحتاج أي التزام بالقواعد. لم تكن تغني ببراعة بل بإحساس
الصفة الطليقة التي ترتمي في الفراغ. "نظرة.. وكنت أحسبها سلام..
، مر قوام! / أتاري فيها وعود وعهود وصدود وآلام!" تتريث عند المقطع
المعلي الثاني من عبارة "سلام" وتقلبه على تنويعات مذهلة لا تُحصى تبتعد
.ها عن جذر معناها، ولا تبالي، كانت تبني بترددها "عَرْبَسَات" مستقلة،
على حدة، وحدات ضئيلة دائرية تماما، وغير بديهية، كانت تبني هندسة
صوتية لا مثيل لها. أحسست فجأة أن ما يحصل هو حدث فريد.

الأوركسترا تصاحب غناءها متتبعة تقلباته كمركب ينتظر هبوب ريح معاكسة. وكانت تستدرجها مرة في اتجاه ومرة في اتجاه آخر، مفرطة في الإدغام، بالغة بها ذروة طاقتها. وكان الجمهور يصغي بحماسة، يهلل عند محطات الوقف لكنه سرعان ما يلزم الصمت حين تستأنف غناءها. وحيال مثل هذا الحشد المطواع، بدرت منها ضحكة اغتباط حاولت، عبثا أن تستدركها وكان أن غنت "وتمر قوام / أتاري فيها.." والضحك يغالب صوتها، وللمرة الأولى لا تتمكن هذه المرأة، التي اشتهرت برصانتها وسيطرتها على المسرح، من تمالك نفسها حيال لذة الأداء التي استخفت بها. كنت واحدا من أقدم "سماعها" وبجانبي محمد الخبير العارف، وشعرنا بأننا لم نسمعها من قبل تغني بمثل هذه الغبطة. لا بل أحسب أنا

شخصيا، أن هذه الحفلة كانت إحدى أعلى القمم التي وصلت إليها: كأنها تتويج. كأنها وداع.

غادرت المغرب، رافلة بالأوسمة والتكريم. وعند وصولها إلى تونس، علمت أن جادة رئيسية في العاصمة باتت تحمل اسمها. لم تكن حفلة الرباط قليلة الأصداء. وتهافتت السلطات السياسية على اختلافها للإغداق عليها بجميع أنواع التكريم والتشريف. وليس السلطات وحدها. ففي غمرة الإحساس بالانهيار، استطاعت أن تمس مشاعر الناس، الملايين من الناس، المهملين، أن تستحثهم، أن تمنحهم حافزًا، ربما كان الوحيد لأن يشعروا بالفخر.

بيد أن الرحلة كانت أطول مما ينبغي، أو ربما استهلكت منها أكثر مما ينبغي. فأعلنت الصحافة فجأة أنها ستؤجل حفلاتها التالية لأسباب صحية. وأغلق الدكتور حفناوي عيادته للحاق بها. غداة وصوله، أبرق إلينا مُطمئنا: إنه مجرد إرهاق ويكفي لتتعافى أن تمضي بضعة أيام من الراحة على الشاطئ التونسي.

هرع الصحافيون لإجراء تحقيقاتهم الصحافية حول منتجع الحمامات حيث أقامت. ثم بعد أن طالت مدة نقاهتها، راحوا يعودون تدريجيا إلى مصر أو إلى بلدانهم التي قدموا منها.

بالطبع، استمرت الإذاعات في بث أغانيها، كلها كانت مجرد

تسهيلات. فجأة اختفت كشخص، كإعصار تتبعها وسائل الإعلام من مدينة إلى أخرى.

عندئذ.. أدركت المكانة التي احتلتها. فبفضلها، بفضل أمطار صوتها، وليس هذا فقط، بل أيضا بفضل الرفعة التي كانت لروحها، بدت الأشياء موجودة، كأن نورًا داخليًا يضفي عليها ألقًا طفيفًا، وما إن تغيب حتى يعود الواقع فجأة إلى قتامته وإحباطه وخلوّه من أي رغبة.

برمًا مني بقعودي دون شغل أو مشغلة، قررت أن أخصص يومين في الأسبوع للقاء طلاب، فترة بعد الظهر، في المكتبة الوطنية، أقرأ عليهم خلالها شعرًا من قصائدي وقصائد آخرين. المهم، أن أشْغل نفسي، أو هذا ما كنت أقوله في سري. ولكني منذ اللقاء الأول وجدتني، دونما قصد، أقرأ أبياتا لشوقي، وخصوصا تلك التي غنتها هي. "سلوا قلبي"، "سلوا كؤوس الطلا"، "بأبي وروحي الناعمات"، "النيل"، "السودان"، وبتلاوتي القصائد أسمع في أذني صوتها مصاحبًا صوتي. ولكن سرعان ما أصبح هذا الأمر قاصرًا عن رغباتي. فُرحت أتحدث عنها مباشرة، أشير على الطلاب بهذه أو تلك من أغانيها، إذ أصبح ممكنا الحصول عليها بأسعار معقولة مسجلة على الأشرطة الممغنطة، آخر ابتكار في هذا المجال. وفاجأني كثيرا أن ألاحظ قلة اكتراثهم بهذا الأمر. لم يُبد أحد منهم ما توقعته من حماسة. فبالنسبة لهم، "كوكب الشرق" هي مطربة أهلهم أو حتى أجدادهم. فقد ولدوا في ذلك الكنف، صوتها الذي كان رائحة من

الروائح اليومية في شوارع القاهرة. وكانت لهم بالمجان، لا، بل كانت المجانية مجسدة.

أذهلني ما أدركت من أمرهم، ربما لم تكن انخطافا ووجدا سوى لجيل أو اثنين. وما غنت إلا لنا نحن. لكنني في قرارتي لا أصدق. أدركت أنها لا تلقي استحسانًا في الثامنة عشرة من العمر. ينبغي أولا تلقّي الصدمة، ابتلاع الغُصة الأولى، وإذ ذاك فقط، حين يُصبح طعم عذاب الحب في فمنا، يصبح واحدنا مستعدا، عالقًا إلى الأبد.

7

لم أكن عالقا، كنت مُلْتَهِمًا. والأيام القليلة التي ينبغي أن تحظى بها بنقاهة تطاولت حتى أصبحت ثلاثة أسابيع. وما عدت أُطيق صبرًا، ويوم صدقت أن لا رجاء، خرجت من عزلتها لكي تعلن استئنافها جولتها.

قبل أن تغادر تونس أحيت ليلة ذكر، احتفاء بأحد الأولياء مع التكرار الهجاسي لمدائحه. فبذلك تعيدنا إلى الرحم، إلى الترتيل، لم يكن الجمهور قبالتها، ذلك أن الحضور ليس جمهورا بل حلقات حول حلقات من المريدين الجالسين متربعين من حولها ويشاركونها الوَجْد. وقد مست الرعشة، التي تملّكت جسمها من خلال طقس الإنشاد، أجسادهم، ومنها إلى العالم العربي من أقصى إلى أقصاه.

استقلت الطائرة باتجاه عمّان. كان الملك حسين في استقبالها واحتفى بها الشعب كمثل الابن الضال، كمثل الذي يُبعث حيا. كانت تلك هي المرة الأولى التي تعود فيها إلى الشرق الأوسط -إثر النكسة- إلى أحد البلدان المعنية مباشرة بما حدث، ودفعت ثمنا باهظا، صورتها على شاشة التلفزيون بدت مفعمة بالحياة، واثقة من نفسها، وحتى فرحة. لا شك في أن أيام الراحة التي قضتها قد أسعفتها، فانتظرتُ الليل بفارغ الصبر عندما تفرغ الشوارع من المارة ويتحلّق الناس لكي يسمعوا ما ستبثه مجددًا في لهيب المعركة.

"إنا فدائيون/ نفنى ولا نهون/ لا هوادة في القتال/ لا ولا بترول/ بعده ولا قتال/ لا يا عدوى/ لا لن ترى بحري ولا أرضي ولا جوي/ إنا فدائيون". لعودتها المرتقبة اختارت نشيدًا غنته قبل الحرب مباشرة، حين كان القول في أوله. ولكن في الأثناء بدلت الكلمات معناها. وصار "الفدائيون" اسمًا لمن التحق من الفلسطينيين بحركة "فتح" والمنظمات التي نشأت غداة الهزيمة. فبما إن الجيوش العربية التقليدية قد هزمت ولا رجاء من استنهاضها قبل وقت طويل، قرر عبد الناصر أن يدعم هذه التشكيلات الصغيرة، التي لها ميزة النضال ضد اليأس. مثلها تماما.

صوتها الذي أطلق هذه العبارات على بعد كيلومترات من الخطوط الإسرائيلية، أثار حالا من الصدمة، خصوصا في مخيمات اللاجئين في محيط عمّان. فقد التحق الفلسطينيون، الذين غادروا للتوهم الضفة الغربية بالذين نزحوا، على التوالي، منذ عام 1948. غداة الحفلة، سارت تظاهرات متفرّقة في أرجاء المخيمات تهتف "إنا فدائيون!" ما أثار حفيظة جيش

المملكة البدوي! ولكن بعد الفوات، لقد اشتعل الفتيل. والفلسطينيون الذين طالما اتكلوا على أشقائهم العرب، اختاروا أن يتكلوا على أنفسهم. إنهم يحرزون استقلالهم، وينتفضون بشعارات هي كلمات إحدى أغنياتها. فهي على نحو ما، كانت قد أورثت الشعلة.

من الأردن طارت إلى لبنان. والتناقض في ذلك أوضح من أن يوصف. أحيت مهرجانات بعلبك الدولية، عند الخرائب الأثرية لتلك المدينة الرومانية، اليونانية الفينيقية القائمة وسط هضبة الخصب، بعيدا من العاصمة. وفجأة تبدّل المشهد، كأنه كوكب آخر، حيث فنون العالم الحق تستأنف حضورها، وتتواصل بمعزل عنا. المهرجانات التي شارك فيها بيجار وجان فيلار وأوركسترا برلين الفيلهارمونية. ولبنان نفسه الذي كان قطعة من لا أرض، سقطت، سهوًا على تلك المنطقة في العالم.

احتفال آخر كان يدور على مقربة. يكفي أن تتبع الأسلاك السوداء التي تمتد خلسة وعلانية من مكان المهرجان إلى خارجه. في العادة، لا يُبالي أهل بعلبك، البلدة الصغيرة، من أصحاب الحوانيت ومزارعي حشيشة الكيف، بالمهرجان إطلاقًا. ولكن حين علموا بقدومها، أصروا على أن يتاح لهم الاستماع إليها، وإلا أغلقوا الطرقات المؤدية إلى الحفل. طلبت أن يعمد إلى وضع مكبرات صوت في الشوارع والمفترقات لكي تنقل صوتها إليهم مباشرة. وعند المساء لم يبق نفر من سكان بعلبك داخل بيته، بل احتلوا الطرقات جالسين في الهواء الطلق. وشهدت ساحات البلدة وشوارعها ليلة طرب جماعي حتى الثمالة. أما فلسطينيو المخيمات

في الجوار، فكانوا يزحفون إلى أبواب البلدة لعل السماع يصيبهم من بقاياه بشيء.

ثم كانت رحلة الكويت. رحلة غريبة من الانغلاق ذي الحدين. فقد لاقتها الإمارة، ذات الثراء الذي لا يوصف باستقبال مجامل وجامد حيث الأمراء يليهم أمراء في صالونات مذهبة زاخرة بالورد، ذات الألوان الفاقعة. وعند المساء احتشدت الجالية الفلسطينية التي كانت تدير مجمل البلاد تقريبا، في هذه الصالات نفسها، وشربت حتى الثمالة من غنائها. من الجولة بأسرها كان هذا التوقف بين رحلتين، هو المثمر من حيث المال. لقد جاء وقت الحسابات، وبادرت الصحف إلى نشر الأرقام. لقد جمعت الجولة نحو أربعة ملايين دولار لصالح "المجهود الحربي لإزالة العدوان" وقياسا للاحتياجات كان المبلغ زهيدًا. ولكن في سعيها لرص صفوف العرب حول مصر، استطاعت فلاحتي أن تجني لمصر ما يفوق الأضعاف المضاعفة من الحماسة، وما يفوق الأضعاف المضاعفة لما يحتاجه كل إنسان من الدفء في قلبه.

انتهت الجولة، وكان قد مضى عام على سفرها. لا تستغرق الرحلة من الكويت في طريق العودة، أكثر من أربع ساعات طيران. لكنني ذُعرت فجأة. لقد اعتدت غيابها أو الأحرى، اعتدت تلك الحال، حالي الساكنة إلى الإحساس بأنها "موجودة في مكان آخر".

منذ وقت لم ار نفسي، كأن قسمات وجهي استحالت إلى ابتذال قسماتي. فقدت قسمًا لا يُستهان به من شعري، وفطّست الأيام أنفي وأرنَبت أذني، وجعلت في كل ثنية من جلدي ألفا من التجاعيد. وخوفي

البادي في عيني أن تراني كما أصبحت الآن. غدا أو ربما اليوم.

أعلنت أنها قبل أن تعود ستعرج على النمسا لقضاء أسبوعين أو ثلاثة في منطقة سالزبورغ. وغادر د.حفناوي لينضم إليها هناك. جاء قرارها المفاجئ بمثابة مهلة فرحتُ بها. لن أستعيد شبابي بالطبع، ولكن على الأقل أستطيع أن أعتاد وجهي مجددا، أن أعتاد الفكرة.

ذهبت للاطمئنان إلى حال سعدية العجوز. كانت غاضبة، ما عادت تفكر في شيء، حتى فيَّ أنا، الخائنة، أهذا ما تفعله بي، بعد كل هذه الأعوام وهي التي كانت قرة عيني، أحملها بين ذراعي وأهدهدها، سامحها الله، فهو الوحيد الذي يعلم إن كنت سأحيا إلى اليوم الذي تتكرّم فيه بالعودة، ولكن لا بأس، فإذ ذاك ستبكي، ولكن بعد فوات الأوان، وسعدية تتحدث عن موتها منذ وقت بعيد، حتى اعتدنا أن لا نأخذ كلامها على محمل الجد. لكني شعرت أن مزاجي رائق، فأمضيت معها أكثر من ساعة. وأفلحت في تبديد وساوسها. حتى إنها ضحكت لكلامي. وقبل أن أودّعها تبادلنا نظرات صامتة. فنحن نعلم أن غرامنا واحد.

8

كانت تبذل جهدا، فحركة رأسها على الوسادة بدت شديدة التوتر. كنت أحادثها همسا:

- عندما تم الاحتفال بالألفية الأولى لإنشاء مدينة القاهرة، اخترت أن تغني قصيدتي: "يا مسهرني". وهي آخر ما غنيته. ولطالما تساءلت في سري أنه العدل بعينه. فهذا ما فعلته بي. أن أسهر، طوال عمري.

حاولتْ أن تبتسم بمشقة، فالألم يعصر جسدها حقا. يدها المحمومة امتدّت على يدي.

- اصبري على وجعك، واتكلي على الله. إنه مجرد التهاب في الكلْية؟ موجع لكنه ليس خطيرا. وهذا ما يردده زوجك على أسماعنا.
- ليس هذا ما أريد أن أسمعه. قل لي؟
- لقد حرَمتِ الناس من النوم.
- أتقول هذا لتسخر مني.. أم لتفرحني؟
- ليس سيئا أن تحرمي الناس من النوم. لقد أجبرتهم على الحفاظ على يقظة جسومهم ونفوسهم، على هذا النحو ساندت الشعب بعد الهزيمة بالأرَق. لقد حُلتِ بينه وبين الانهيار عندما أصبح كل شيء صعبا.

كانت بالكاد تسمعني، مغمضة العينين، غير أن المهم أن أواصل كلامي، لا أتوقف عن الكلام، لكي تبقى أنفاسي تلفَح أذنها. وأحسست بيدها تتراخى شيئا فشيئا.

منذ ستة أشهر وهي على هذه الحال، طريحة الفراش؟ أعودها كل يوم. تراني زوجتي مغادرا ولا تقول شيئًا. ما عادت المظاهر هي المهمة، فقد أخفينا عن بعضنا ما أخفينا، وأصبح واحدنا في السبعين من عمره؟ د. حفناوي هو نفسه حنّي على المجيء، ويستقبلني كأحد أفراد العائلة. لقد أصبحنا الرعيل الأول، أنا وهو، إذ لم يتبق من جيلنا سوى نحن. اصبحت لا أعرف أحدا من العاملين في الفيلا، خدمًا وطباخين، كانوا يُبدون لطفًا شديدًا، لكنهم لا يعرفون شيئا. وبمعنى ما، أشعر أني في بيتي بمقدار ما كان د. حفناوي يشعر أنه في بيته. هو القاطن في البيت الحقيقي، وأنا القاطن في البيت الآخر، المتخيّل حيث عشت معها.

بعد أن أغادرها، يُغلق الباب ورائي. لعبنا معا، أنا وهي، كما كنا نفعل دائما. أقرأ لها قصائد وأحدثها عن الماضي، الشيخ أبو العلا، صبري، ومنيرة المهدية السلطانة. وأذكّرها بالدُّعابات التي كانت تمازح بها القصبجي والسينما، وخصامها مع محمد، ولحظات الغضب لدى الشيخ زكريا. وكانت تصغي مثل طفل يعرف الحكاية، لكنه يسمع للذة أن يسمع.

كنت أحكي لها أي شيء حادثة من هنا حكاية من هناك، أخلط بين الأزمنة ولكن لا بأس. أحاول أن أنسى الزمان الحاضر، أن أنسى ما نحياه الآن، فالموتى فيه كُثُر. عبد الناصر أولا منذ خمسة أعوام ثم سعدية. سعدية التي كانت تخاف الوجع. وركوب الطائرة، والفقدان والشيطان والليل الذي يحل، سعدية هذه، لم تستيقظ ذات صباح. عُثر عليها مستلقية على

فراشها، مبتسمة كأنها عبرَت إلى العالم الآخر دون أن تنتبه. وفي ذلك اليوم كان نُواح فلاحتي يستدعي الموت، يُحطم آخر ما قد يفصلها عن النهاية، فما عاد شيء يُبقيها هنا.

حرب أكتوبر 1973، نفحت فيها شيئا من نسم الحياة. فالقوات المصرية اجتازت القناة، ونصبت العلم على الضفة الأخرى. استعادت عافيتها، وارتدت ملابسها رغبة منها في أن تحيي حفلة للمناسبة. أعادها التهاب الكلْية إلى رشدها وفراشها. وفي الأثناء كانت فترة الحداد على سعدية قد انقضت.

– لَم ما عدتَ تقول شيئا؟

فتحَت عينيها، لوزتان مشقوقتان شاخصتان في السقف.

– حسبت أنك نائمة. بماذا أخبرك؟ اليوم عيد ميلاد طارق. وأراد والده أن نحتفل به في بيتنا، فأصبح البيت مَرْجَة أولاد. كان يستعد لإطفاء إحدى عشرة شمعة عندما اتصل د. حفناوي ليسألني في أية ساعة سأحضر، إثر مكالمته عجّلت في إنهاء المناسبة دون وعي. أعطيت طارق هديتي، وهي قطار ميكانو، وأعنته على قطع الشريط الذي يلفها ونزع الورق. وكنت أهمُّ بارتداء معطفي عندما قال لي: إنه هو أيضا قد أحضر لي هدية. وقف وسط الصالة وراح يتلو، غيبا، إحدى قصائدي، لم يكن قادرا على إلقائها كما يجب، وعند نهايتها استدرتُ، غاضبا، وعاود تلاوتها من البداية. شعر بأني على عجلة من أمري، فأراد أن يُسرع واخطأ مجددا فسكتْ، وهو على حافة البكاء. خجلت، فحضنته بين ذراعي ورحت أتلو

القصيدة معه على مَهل. ولن تصدقي أية قصيدة. "إن كنت أسامح" التي غنيتها منذ أربعين عاما.

هدأتْ أنفاسها، وارتاحت يدها إلى يدي. ظلت ساهمة ولكن في حال أفضل. فقط ألم الكلْيتين. شاحبة ربما، وغضون قائمة تحت العينين.. وكثير من الهزال.

– غرزت أظافرها في راحة يدي، وبدا وجهها متألما من جديد.

– لا تقلق، همست قائلة، لا تقلق، شكة عابرة.

هدأ تنفُسها من جديد. وابتست بمشقة فهستُ منشدا:

– نظرة.. وكنت أحسبها سلام.. وتمر قوام..".

– خطأ: "ومرّت قوام" كان ذلك في الرباط، أي مضي عليها حتى اليوم ست سنوات. أتذكر؟

– أذكر كل شيء.

– تلك الليلة كانت ليلة ابتهاج.. لا أدري ماذا أقول.. كانت أكبر مني، كأني أخيرا ألمس خط الوصول، وهذا الإحساس كان يصدر من جسدي، أنا.

– لطالما صدرت من جسدك.

بدرت منها ضحكة كتوم لكنها مفعمة بالرضا، على ما أعتقد.

– لم يكن هذا مطلبي، همست قائلة، كنت أغني ما أمكنني الغناء، هذا ما أردت، أن يدعوني أغني. شعرت بذلك منذ البداية، منذ اليوم الأول. لقد أمضيت عمري وأنا أعتلي المسرح إياه، مسرحا

من الخشب المستطيل، لا حدود له، يمتد من بلد إلى آخر. لطالما وقفت في الجهة ذاتها، أضواء الكشافات تغشى عينيّ، وأغني أغنية واحدة كأني عشت لثانية واحدة، ولكنها ثانية أزلية، نوتة واحدة، مجوَّدة طويلا، إلى الأبد.

سكتت. لم أعرف بماذا أجيبها. يدها أصبحت متلاشية رخوَة. في يدي. أنظر في عينيها فتبادلني نظراتي بصمت. عيوننا تعبر عما في صدورنا دونما خجل. ومنذ بعض الوقت، أصبح مثل هذا الحوار الأخرس معتادًا بيننا. أن أمكث بلا حراك، صامتا بقربها، فالحاجز الأخير قد تهاوى فجأة أخيرا. وتمام الحب بعد الفوات.

- ليلة الاحتفال بمرور خمسين عاما على ارتقائي خشبة المسرح، كنت سعيدة جدا للأغنية: "القلب يعشق كل جميل ..".

- "... وياما شفت جمال يا عين / واللي صدق في الحب .. قليل..".

- قل أيضا.

- ما عدت أدري. "أنا اللي أعطيتك من غير ما تتكلم / دعاني لبيته، لحدّ باب بيته / مكة وفيها جبال النور ..".

- أحسنت. الحمد لله القلب عاشق الجمال، المفتون بذاته، هو وحده. إنها رسالة تخبر عن حالي. نقطة ختام جيدة.

- من يتحدث عن نقطة ختام؟

- أتظن أني لا أعرف شيئا؟ منذ بعض الوقت راح السنباطي يُطيل من

أمد الفواصل الموسيقية بين المقطع والمقطع لكي يتيح لي أن أستعيد أنفاسي أثناء الغناء. لقد أنهكت نفسي في العَدو بين لندن وبوسطن للعلاج. وآخر حفلة أحييتها كانت منذ سنتين.

– لم تُلغ الحفلة بل أجّلت. وحين أعلن أن حاملي البطاقات يستطيعون استرداد ثمنها. لم يتقدم أحد من حاملي البطاقات لاسترداد أموالهم، الناس ما زالوا يحتفظون ببطاقات الدخول إلى الحفلة. ينتظرونك.

– ألأنك تعتقد ربما بأن الستارة سترفع مجددا وأن الجمهور سيصفق، وما يليه وما يليه؟

– بالتأكيد.

– ضحكنا فعاودها الألم.

مدّدت جسدها المتشنج بقوة في جهد يائس لمقاومته، لم تفلح في إسكات الصرخة التي انطلقت من أعماق الألم على الفور، هرع د.حفناوي، فأدركت أنه أمضى كل هذا الوقت على العتبة، وراء الباب وبدل أن يعتني بها، أمسكني من كتفي، وتأمل شحوب وجهي وقال: إنه من المستحسن أن أغادر.

في الرواق لمحت زوارًا وأناسًا يرتدون الأبيض. رائحة المخدر عابقة في الأنحاء. لم أقو على احتمال كل تلك العيون البلا نظرات، كل تلك النساء المنتحبات بصمت. أردت أن أمكثَ هناك، ولكن بعد وقت أخذني الدوار، أصبح الألم أكبر من طاقتي.. ومن احتمالي.

9

مَن كان أولئك الناس؟ عجائز يرتدون الأسود بأناقة بالغة، وربطات العنق والسحنات الصارمة، وماء الكولونيا، نظافتهم أوضح مما أعرف، ولا أعرف أحدًا منهم يصافحونني ويشدون على يدي من صفوف لا تنتهي، ويتمتمون بعبارات لا أفهمها، كأن حصاة في فم كل منهم، بعضهم يقبّلني مثل صديق قديم، شعر أبيض، شعر رمادي، ونظارات ذات إطار من اللك. حسبت أنهم يكملون دورتهم على صفوف الكراسي المرصوفة ظهرًا إلى ظهر، فيعودون إليّ في طقس لا نهاية له ماذا يريدون مني، حتى إنهم لا يسعون للتعرف إليّ لا ابتسامة ولا إشارة مودة، والشمس التي تدلق أشعتها على النسيج الأحمر البرتقالي في الخارج، تحيلهم إلى أخيلة متشابهة كأنهم يسيرون في موكب حجاج ويلتزمون بشعائر لا معنى لها. كان حريًا بي أن أرفع رأسي وأحدق في الثريات التي تغرق النسيج الأزرق بأنوار تغشى عيني. لم اقتادوني إلى هنا؟ كان المفترض أن ألازم مدخل السرادق الصخم، مدخل الرجال، فآلمتني ذراعي، وراحت ساقاي ترتجفان لشدة التعب. و لم يكن بوسعي أن أجلس بسببه، هو د.حفناوي الجالس إلى يميني والمنهمك بمصافحة أناس لا يعرفهم مثلي ومن غير اللائق أن يُترك بمفرده.

كان السرادق فسيحا يمتد حتى الشارع، والسجاد يغطي نصف خطوط الطريق، ونحن جميعا في رحابه. وصلت سيارة ليموزين سوداء، سيارة

ليموزين تحمل العلم، وتسبقها ثلاث دراجات نارية، ترجل عسكري شاب من السيارة قبل أن تتوقف، تقريبا قبل أن تتوقف بأمتار قليلة، فدورات التدريب أعدته لمثل هذا الأمر، أن يقفز من السيارة في عاصفة الغبار التي تثيرها في سرعتها لكي يفتح الباب الخلفي. وترّجل رجل عجوز بربطة عنقه السوداء، طوى أعضاءه وترجّل، كأنه مومياء. فسرى همس بين الحضور: إنه موفد الرئيس السادات، سيادة الموفد الذي لا أعرفه ولا أحد يعرفه مَن حولي. هل كانت مشاغله كثيرة الرئيس السادات، أم أن مكانته لا تسمح له بالحضور شخصيا؟ أو ربما كان منهمكا في متابعة أمور أشد إلحاحًا؟ وكان عليّ أن أصافح يد الشخصية المجهولة. لو كان عبد الناصر. لا يزال حيا لتكبّد مشقة الحضور شخصيا، ولكن مَن يفعل ذلك يكون عبد الناصر فهو أيضا رحل من هذا المكان، من هذا السرادق الأحمر الذي نُصب عند مدخل مسجد عمر مكرم. واصطحبه إلى مثواه الأخير الشعب كله، وغطى الحشد طرقات القاهرة.

عندما أتوا لاصطحابي هذا الصباح، كانت الشوارع مقفرة، فسارت بنا السيارة بأقصى سرعتها، ما من حافلة، ما من عابر. بين الشرطي والآخر مسافة مترين. كأنهم دُمى نُسجت آلافا مؤلفة، جيش "ستردبوسكوبي" من الرجال الآليين الذين زرعوا على طول الجادات المقفرة. و لم ألحظ إلا حين سلكنا المستديرة المكشوفة، أن خلف هذا العدد الهائل من رجال الشرطة المرصوفين على طول الأرصفة، حشدا لا يُحصى المتجمهرين من الناس بصمت، حشدا مرعبا بصمته.

أحدهم أمسك بكتفي إنه يشبه محمد، لا، بل هو محمد، يدان قويتان

وحارّتان، غمر وجهه بجانب عنقي وطوّقتي بذراعيه، كان أول وجه بشري أصادفه اليوم، وبصوت متهدّج همس في أذني قائلا:

– "إن تفصل القطرة من بحرها..".

– " .. ففي مداه منتهى أمرها".

أجبته مرددا، دونما قصد، أحد أبيات الخيام.

تلك الكلمات دمرتني. لابد أني مكثت واقفا لوقت طويل فتهالكت ساقاي، وسرعان ما أسندني محمد؛ طوق جذعي بذراعيه، وحملني إلى آخر السرادق. عبثًا حاولت أن أسير، وكان الناس الذين يفسحون لنا الطريق، ثم يعاودون تجمعهم، وينظرون بعين مُشفقة ومُستهجنة، تلك النظرات البائسة التي يُرمق بها عادة سكّير لا يقوى على الوقوف، ويحتاج من يستند إليه لكي يمشي، وجوه الشيخوخة والقسوة التي استحالت تجاعيد إلى الأبد. دخلنا بهو المسجد، أدركت ذلك على الفور، لأنني وجدت نفسي داخل عُلبة أصداء. ولمحت يدًا تُقَرِّبُ كرسيًا خشبًا ذا مسند مكوَّر الطرف. كنت أود لو أُترك على الأرض. فأسند ظهري إلى الجدار. وجلس محمد بجانبي.

فاءت نفسي إلى الخلوة التي يتيحها المكان. خلاء المكان المطلق الذي لا يتردد فيه سوى آي القرآن بصوت المؤذن المتواصل الرخيم، الذي تبثه مكبرات الصوت والصمت المتواتر بين عباراته.

"اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير.."

ويتردد صدى الصوت هنيهات قبل أن يتلاشى: "سبحانك أنت السميع

المجيب" يا للرقة، أبقيت راحتي مبسوطتين أمام وجهي، وتمتمت شفتاي تصاحب الصلاة بصمت.

أسفل المنبر رأيت تابوتا، وُضع باتجاه "القبلة" تابوتا مغطى بنسيج من الحرير المغضن، لونه سكري وأخضر فاتح لُف بأشرطة، واعتلم بشكل أشبه بمسلة لكي يميز أين اتجاه الرأس والقدمين. بدا لي أن الموضع الذي خُصص له، وكذلك الاتجاه يُضيفان عليه معنى خاصًا، فكثافة حضوره توازن بالضبط خلاء المكان. وكم وددت أن أترك منسيًّا هنا.

اجتاح الرجال المتأنقون بالبزات السوداء أنحاء المسجد، وانتظموا في صفوف متراصة أمام المنبر، وبدت ثنيات بناطيلهم لشدة ما مُطت وكأنها ستتفتّق. يجلسون متلاصقين جنبا إلى جنب، غير أن خشوعهم مزيف، إذ يميل أحدهم نحو الآخر ويسرّ إليه بأمر ما، أو يتبادلون الإشارات أما ضحكاتهم العريضة فتكشف عما في أشداقهم من أسنان مذهبة. عرفت مَن هم، صفوة رجالات "الانفتاح" المزعوم الذي دعا إليه السادات. رموز الثروات التي جُمعت في بضعة أعوام، طبعا لأن عبد الناصر قد مات موتًا. أما هم، فإنهم الأزمنة الحديثة.

مررت إصبعي على مدار ياقتي، إذ عاودني الشعور بضيق النَّفس، فأدرك محمد ما بي. نهض وأعانني على السير إلى الخارج، لم أكن أحتاج حقًا من يعينني على السير، ولكني، ربما احتجت من يعينني على اجتناب السير عليهم.

انتعلنا أحذيتنا، ومشينا بضع خطوات في الهواء الطلق، فانتعشت. وسط الشارع اصطف أفراد جوقة الموسيقى العسكرية كما في تظاهرة قبل

ـرفها، عازفو الأبواق في المقدمة وعازفوا الطبول في الخلف. وبعضهم ..ادل أطراف حديث مع درّاجي الشرطة قتلا للوقت. وثمة أيضا حملة الأكاليل العملاقة من رجال الشرطة غير المهندمين الذين يقفون بين الورود والأغصان، مشيت طائعا إلى حيث يريد محمد. كانت الحرارة مقبولة، ـسرنا بعكس اتجاه الصفوف المحتشدة. طالعتنا مجموعة من النساء من جميع الأعمار، رفعت في طليعتها يافطة كُتب عليها: "عاملات شركة اسطوانات صوت القاهرة". كن متشحات بالسواد، بالطبع، واجتهادهن المتواضع في اختيار ملابسهن يعدل مقدار حزنهن: اليافطة التي يرفعنها هي ثوبهن المشترك. غير أن تأثرهن بدا أقرب إلى نكهة حقيقية.

فجأة، فتحت أبواب السرادق الضخم كما انفراج شفتي جرح أحمر. وخرج منه التابوت محمولا على الأكتاف، يشق طريقه وسط دوامة من الهَوام المستثار.

كان محمد ممسكا بذراعي، وكنت حلقة في السلسلة البشرية السائرة في الجنازة، لكنني أعجز عن تتبع الايقاع حتى أضاع الصف الذي أسير فيه وتائر السير، ربما بسببي، فقرعُ الطبول يصم أذني ولا أفلح في ضبط خطوي على وتائره. كم كنت أود أن أهرب، ولكن، مستحيل يجب أن أواصل السير، أتعثر، أعاود السير، أعاند المنطق الذي يدعوني إلى الهروب. أبقي أنظاري شاخصة بالتابوت الذي يتماوج فوق الأكف والهامات. فقد وُضع على قضبان طويلة من الخشب، يتناوب على حملها عشرات من رجال الإطفاء الذين يشكلون مجموعة متلاصقة متمايزة وسط الحشد، كبساط من البزات والقبعات السوداء، وكل حركة من هذه الكتلة

تجعله مائلا، وإذا استوى هنيهة فلكي يطوف مترجحًا على إيقاع موسيقى عسكرية بطيئة لا يمكن اتباع وتائرها. غير أن هذا كله، لا ينفي أنه هو الذي يستدرجني إلى السير قدمًا، النعش الذي يُصيبني بدوار البحر ويمنع عني الهواء، غير أن القبضة الممسكة بذراعي صارمة، فحتى لو أردتُ أن أهجر الصف، وأهرب، لما استطعت، ما باليد حيلة، لا أحد يريد أن يسمع.

الناس يحتشدون على الشرفات، عناقيد بشرية سوداء، تتشبث بحواف الأسطح وواجهات المباني، بلغ الموكب أخيرا ميدان التحرير ومداه الرحب، فهو أكبر ميادين القاهرة، وأكثرها توسطًا، وسلك الطريق المقفرة، كتلة واحدة من آلاف البشر الذين أثملتهم الأناشيد الجنائزية، وأنهكتهم مسيرة التجُّهم الرسمي تحت آتون الشمس. وأنا أسير معهم عاجزًا عن تحرير ذراعي لأرفعها طلبا للنجدة. عند الطرف الآخر من الميدان، من بعيد رأيت الحشدي يخترق الطوق الذي فرضه رجال الأمن على الأطراف، رأيت ذلك بأم العين. هراوات ترتفع وخوذ تتطير، وسمعت صفارات تحذير ولكن بعد الفوات، فقد انهار السد نهائيا وفي أكثر من موضع، وتدفق الناس بالآلاف بمئات الآلاف، بل كانوا مليون نسمة، يحتلون الساحة كأسراب من القتامة، ويصرخون متراكضين متدافعين يرفعون سواعدهم عاليا وظلالهم تسبقهم. عندما لاحظ رجال الشرطة الذين يواكبون مسيرتنا أن الحشد يندفع نحونا، أحكموا الطوْق من حولنا لتلقّي الصدمة، شعرت في سرّي بفرح غامر. راح حملة الأكاليل يتعثرون بما يحملونه، وبدت حركة الموكب مضطربة مذعورة. ما عادت الصفوف

مشبوكة بالمرافق، بل تفرقت الصفوف، وهرع كل واحد للنجاة نفسه. اصطدم المد البشري بالعساكر، واحتجبت أرض الميدان تحت الرؤوس الصائحة، المتدافعة تحت عشرات الألوف من الرؤوس المتدافعة. وتم احتلال المساحة الفارغة من الميدان من قبل السيل البشري، الذي فرّق صفوف أول الواصلين واخترق سدود كل الشوارع المحيطة، فيض متناقض، دورة دموية في جسم واحد.

انهار الطوق الأمني الأخير. وأصبح الضغط من الخلف أشبه بموجة بشرية هائلة تجتاح الشارع، وترفد الموكب بالآلاف المؤلفة من الناس. شعرت بأن السيل البشري يجتاحني ويحررني من قيد الصف المتشابك ويُغرقني في مجراه. التفتُّ فرأيت محمد غارقًا بدوره في مسار هذا السيل، رافعا يده باتجاهي. المهم أن لا أقع، الأهم أن لا أقع، ذاك كان هاجسي. كيف يمكن للمرء أن يقع، فالكثافة البشرية تُبقيني واقفا، أو تجتاحني أو تسحق عظامي. مع ذلك كان ينتابني شعور غريب بالغبطة، فالشعب يدفعني إلى السير قدما رغما عني، ورأيت المسافة تقصر بيني وبين النعش. ورفعت ذراعي باتجاه الفلك المستطيل، أردتُ أن ألمسه بيدي، أنا أيضا.

كان يترجح بقوة كأنه بُوغت في مياه شديدة الاضطراب، كأنه يهوى في مساقط مياه. ضغط الحشود يُرغم الموكب بأسره على الانحراف عن وسط الطريق، لا، بل يجعله عُرضة للتدافع والارتطام بواجهات المباني. وكانت فصيلة الإطفاء تحاول جهدها. فجأة، فقدت سيطرتها على الوضع. واختفت قضبان الخشب وأصبح النعش عائما، دون عائق فوق الرؤوس. ينتقل من ذراع مرفوعة إلى ذراع أخرى، من يد إلى يد، ورأيته

يترجح في الهواء كأنه ما عاد يدري أي طريق ينبغي أن يسلك. فالمسالك كلها قُطعت. سلك شارع قصر النيل، الشارع الأعرض الذي يفضي إلى مسجدي الأزهر والحسين. رأيته يبتعد فوق النهر البشري الساكن، رأيته راقصًا مترجحًا كالمركب السكران، ويغيب عن الهتافات، طائرًا فوقها متلاشيًا عند الأفق. لطالما أبحر في خضم الحشود التي انتمى إليها، وحنّته اللمسات الخشنة، والحركات المتكررة إلى الأبد، وها هو الآن يمازج الجسد، ويمازج الروح في كل إنسان، إنها أبديته الحقة.

29 كانون الأول / ديسمبر 1981
طارق

غادرت دون أن أقول شيئًا. كنت مرتبكًا ومنفعلا، فتلك سنتك الأخيرة في المدرسة، وامتحان البكالوريا، وهذا أنت. لطالما رددت عبارة إني أتخيل، إني أتخيل، كلمات قليلة غير أني أعشق ما أنت عليه.

تركت لي الرزمة. وغادرت، ففتحتها ورأيت العلب السبع، صورتها على كل علبة منها، لا أعرف لم انقطعت أنفاسي. وجهها هي في صباها، إني واثق أنك لا تدرك ماذا فعلت بي. وهذه الكتابة: "مختارات من الموسيقى العربية" بمساهمة اليونسكو، حسبت أنها حظيت بمكانتها في التراث الإنساني. قرأت العناوين على عجل، وجدت كل الأغاني التي سجلت على اسطوانات 78 دورة في البدايات، وهذا جزء لا يُستهان به بأية حال، أي تسع أو عشر أغنيات في الاسطوانة الواحدة، ما يجعل المجموع ستين أغنية، أي نجاحات العشرينيات والثلاثينيات المنسبة التي ما عاد أحد يعرفها لأن "الفونوغراف" لم يعد سوى ذكرى، ومعه تلك الأغنيات كلها. لم أجد فيها مثلا "الصب تفضحه عيونه" أولى قصائدي التي أنشدها و"إن كنت أسامح" أيضا ولكن "تراعي غيري وتبتسم" موجودة، و(شرُف حبيب القلب).

الاسطوانات صغيرة ومالسة، ولم أعرف كيف أضعها لأسمعها. أعانتني جدتك، وجاءتني بالجهاز الذي كان لوالدك.

وضعت الاسطوانة الأولى فابتلعتها الآلة. وذاك كان الخبر. موسيقى الشيخ أبو العلا وداود حسني وألحان القصبجي الأولى، ألحان الشيخ زكريا. منذ أربعين عاما لم أسمعها. ثم جاء صوتها كصفحة، صوتها الفتيّ أيام بداياتها. صعقتني. "جنة نعيمي في هواكي / ما أحب في الدنيا سواكي". ليس فقط لأني أعرف هذه الأغنية جيدا، بل لأني أراها تنشدها، هي، أرى خشبة المسرح والصالة ولن فستانها، وأرى الحقبة واللحظة. كل شيء استعدته بفضل هذا الـ C.D واحتل غرفتي.

أنا أيضا كنت أحفظ لك هدية، عملت طويلا لانتقائها نحو ثلاثة أشهر. هي تغني، فيمسك بي صوتها بيده، وينساب قلمي على الورق، أحسب أنها تحادثك حينما تحادثني.

ماتت منذ ستة أعوام لا يسعني أن أبوح لك بمقدار الذي كابدته، وجعلني افقد نفسي أعوام، لقد سحقني ألا أموت قبلها. لم يكن ذاك مجرد انهيار عصبي. لا، لا صلة لما أحسسته بالانهيار. كان غضبا بلا حدود. حتى الألم الذي أخبرتك عنه ما عاد شاغلي. واكتفيت بأن آكل وأنام وأنتظر .. أنتظر ماذا؟ لم يقبل الموت بي؟

ما كان شيء يهزني، عندما اغتيل السادات لم أشعر بشيء، مثلي مثل الآخرين، أن يقتل الإسلاميون رئيس الجمهورية في المنصة الرئيسية، وخلال استعراض رسمي، لم يكن خبرًا بالنسبة لي.

ولكن، على جاري العادة، كان هناك أنت. سألتني إذا رأيت المشاهد التي بثها التليفزيون، وحكيت لي كيف أن الشاحنة المحملة بالجنود، توقفت أمام المنصة الرسمية، واعتقد الجميع أنه طرأ عليها عطل ما، وكيف

قفز منها رجال يُطلقون النار من أسلحتهم، ويرمون المنصة بالقنابل اليدوية بهدف إحراقها، وحيث اجتمع كل قادة البلد في مساحة لا تتجاوز عشرين مترًا مربعًا. والأحياء كانوا ملفتين أكثر من الأموات، لأنهم استطاعوا أن يهرعوا سائرين بين الجثث، وبدا مبارك مضرجا بالدماء، وهذه روايتك أنت. لـمَ ينبغي أن تحصل الأمور على هذا النحو؟ لم؟

برغم محاولاتي، لم أعرف كيف أشرح لك، مع أني حاولت. ففي هذه البلاد يصعب التمييز بين الخيط الأبيض والخيط الأسود لشدة تشابكهما، نحن لنا قدم على أرض الماضي، وقدم في مكان آخر. تبدد أملنا في حرب الأيام الستة. وبعد ست سنوات لم تكن حرب 1973، انتصارا عسكريا بل بالعكس. غير أنها كانت ثأرًا رمزيا أعادنا إلى الخارطة، وجعلنا نفاوض دون خجل. كان ذلك لا يضاهي ألق أيام عبد الناصر بشيء، سوى أنه مهّد لنا الطريق. متعرج وشاق. و لم نفض إلا إلى هذه المحصلة العرجاء، إلى مصر التي نحياها بين منزلتين وهذا كل ما نملكه.

لم يرق الأمر للإسلاميين، وأرادوا أن يستأصلوا الخطيئة دفعة واحدة. لا حساب لأحد سوى جثث مقطعة الأوصال، تصفية تامة، علاج بالفراغ إنهم الماضي الذي يريد أن يمحو ما كان. وبالمقارنة معهم كان "الإخوان المسلمون" مجرد كشافة، إن جاز لي القول، فهم ينتمون برغم كل شيء إلى جيلنا، وبالنسبة لهم أيضا، كانت تلك البداية، فعلى الأقل كان السجال ممكنا. في حين أن أحفادهم اليوم لا رجاء في أعينهم، إنهم القيامة والطلاق مع العالم.

لحظتُ إحباطك وحتى مأخذك على الجميع، لم تحر جوابا وحدسي

أبلغني لماذا. كنت خائفًا حتى الهلع من بلدك الذي ينتظرك، بلدك أنت وميراث تلك المأساة التي ورثتها.

ساءلت غشمي، كيف أفضت بنا الأيام إلى هذه الحال، ما الذي حدث، وما هي الحكاية؟ أحضرت ورقًا وقلمًا، وشرعت في الكتابة. وبعد أن حبرت صفحات أدركت أنني أكتب قصة حبي منذ البداية. كان على واحدنا أن يدرك هذه لكي يدرك البقية، كأنها الطريقة الوحيدة لكي يفهم.

غير أن هذه الطريقة لم تكن، لا هي المثلى، ولا هي الأسوأ. وسرعان ما أدركت أنني لم أرد ان أبرهن عن شيء أو أثبت شيئا، وأسلمت نفسي لها لكي تخرج مني أخيرا. فكيف أصبح الشعور الذي أكنه لتلك المرأة هو المناخ الذي عاشته مصر والعالم العربي. كنت أكتب دون توقف. وأنا في الثمانين من عمري. طاقة ما، تحثني على الكتابة، ربما حاجة لأن أتقيأ والأمران ليس واحدهما الآخر. لذا خبأت ما سودته من صفحات.

الآن.. بلغنا الخاتمة. رويت كل شيء. لم احسب ان ما رويْته سيكون كتابا في نحو ثلثمائة صفحة أي حجم كتاب.

أدعه لك. إنه هديتي.

"أم" تعني أمًا، كما يعلم الجميع. بالمعنى الحرفي، كما قد يعني اسم أم محمد، أو بالمعنى المجازي الذي قد يعنيه اسم "أم كلثوم" المرأة ذات الوجنتين الكلثوميتين "اللحميتين" والوجه الممتلئ.

غير أن قلة تعرف أن أصل الكلمة هو "أما" وهو في الآرامية يعني

الحادث فجأة أو عرَضا، والبداية والقيادة. ومنها يُشتق عدد من العبارات: الأمّة، الإمام، الأمَة، وسواها، بالنسبة لي يعني الاسم: ذلك الشعور الذي استبد بنا قرنًا من الزمان بأكمله، ومفاده: الانتماء إلى رحم يستحيل هجرانه.

"الليل أهو طال وعرف الجرح ميعاده.." حين غنتها، كانت لم تبلغ بعد الخامسة والعشرين، والليل والجراح، آنذاك؟ غير أنها كانت عاشقة المستقبل، وهذا يُعرف من صوتها الذي يُسمع الآن، صوت جديد بالكلية، حاولت أن نسمعه بافتتان وهذا يعني أيضا أنه افتتان مميز.

ليس حنينا فلا شيء أدعي للضجر مثل الماضي، بالعكس إنه الحاضر، حاضر صوتها الفتيّ. "إن حالي في هواها عجب". هذا ما تقوله، تلك الأغنية المنسية، التي صاحبها العود والقانون والكمنجة، مثال البساطة الموسيقية، وأنا نفسي في حبها عجب. أنت لا تعلم ما فعلتْ بي هديتك. لقد أعدتها إلى وتركتني وحدي معها.

في العام المقبل ستكون في الجامعة، طالب هندسة معمارية، هذا ما تريد أن تفعله، وكُثْر من حولك يحسدونك. ولكنّ أحدًا لن يحسدك على هذا الصوت الذي كان في حياتك. لن ترحل إلى فرنسا لتتعلم الفارسية لأنك تريد أن تترجم قصيدة، ولن ترى على المسرح بدويًا سوف تغْلقه ويكون هو قدرك. لقد راودنا الأمل، بلاد فتيّة ونحن فتيان، على وشك أن نكسر القيود. كان عديد سكانه أربعة عشر مليون نسمة وجاوز اليوم خمسين مليونا.

لا أقول ذلك من باب تبرئة النفس، وإن فعلت لا تصدّق، لسنا أبرياء مما نحن فيه، غير أننا لا نملك مشيئة فيه.

ماتت دون ذرية، أهذا هو الأمر؟ إني لا أفكر في الأولاد الذين من صلب أي شخص وقد رزقت منهم، غير أن هذا لم يبدّل شيئا. أقصد بقولي: إن ما عشناه لا أعقاب له، صديقي محمد يزورني كل يوم، وأنا أحبه حقا، وقد حاول أن ينقذنا بالالتحاق بالغرب، ولكن عبثا حاول. هو أيضا كان آخر المحاربين، وهي أيضا. ما من صوت هو سليل صوتها ويُنسب إليها حقا، كانت أكبر من أن تُقلّد حتى، فالحامولي وعثمان والمنلاوي، ما كانوا سوى جذع الشجرة، وقال لي ذلك الشيخ أبو العلا شخصيا، أما هي فستكون وريثة فن بأكمله، وأصبحت وريثته، غير أنها الوريثة الأخيرة، ثمرة، ثمرة أخيرة وأي ثمرة! من النوع الذي لا يوجد له، مثيل له لأنه فاتن. ومن بعد، لا شيء، لا أحد.

تجديد الفكر والإسلام والأدب والسياسة، لا شيء من هذا القبيل. فالنهضة التي كان ينبغي أن ترج ثقافتنا، وتنفضها كما تنفض سجادة عتيقة كيما تستعيد زهو ألوانها، قد أخفقت، وهذه هي الحقيقة، لقد آلمنا المخاض طويلا و لم نُنجب شيئا. وأولئك الجنود الذين فتحوا النار هاتفين "الله أكبرا" هم في آخر المطاف، أولاد فشلنا، أولادنا الوحيدون.

اجفاني تعتصر أجفاني، وقلبي يؤلمني. ماذا فعلنا. وأين كان الغلط وأين خسرنا؟ أبقي عيني مغمضتين، صوتها يكتنفني، "على بلد المحبوب ودّيني.." أين دار حبيبتي؟ لن تكون هناك حداثة شرقية لن تكون.

"يا مسافر على بحر النيل .. ودّيني". تدور الاسطوانة وأنا أكتب. أغنية رحلات أغنية بدوية، عيناي مغمضتان لا مرارة لا ضغينة إنها "تودّيني". بعد عشر سنوات، بعد عشرين سنة يكفي أن تشغل الراديو، ومن أية إذاعة من بغداد إلى الدار البيضاء، سيواصل العالم العربي عيشه في إمبراطوريتها. وسيقول السّامعون: إنه صوت جميل، لا أكثر، وسيُفتنون بسحرها دون أن يدركوا لماذا. أما أنا فأعرف. قصر الأحلام الذي شيدناه بأيدينا، عشنا فيه، كان زمننا، ومزاج عالمنا كما هو. نحن نعرف ما الذي صنعه، وبأي حب حقيقي. سوف يديرون زر المذياع، ويظنون أنها مجرد أغنية.

ما حصل لن يضيع. ربما قال كل فان هذا الكلام ساعة موته، لا أبالي أنا أيضا أقوله. ما تحبه الحب يكون ميراثك. وبرغم كل شيء، تنفسنا. هي ومحمد والشيخ زكريا وطه حسين، ذلك العهد الذي أردنا فيه بشغف أن نرتبط ببقية العالم، وبقي شغفنا رهين المناخ والكتب والأغاني. وإذا كانت الأحلام قادته "والله أعلم بأنها كانت"، قد استطاعت أن تحلّ في أدق الثّنيات، وأن تحوم طويلا في الزمن، وتبقى كالبذار الذي يعرف أن يصمد أيام الشتاء.

غير أني قد أكون مخطئًا، ما عدت أدري. ربما لم يحصل شيء على الإطلاق، لفحٌ في مهب الرياح، مجرد وهم. أفتح عيني، أرى أنوارًا مفرطة في سطوعها أشعر بالبرد، أحاول أن أكتب المزيد. أغمضهم، تواصل غناءها في أذني، ما عدت أدري أي اغنية، صوتها يُشركني في دواره، أشعر بالغثيان. أفتح عيني مجددا خلال سقطتي أنظر بعينين جاحظتين، صدغاي

يندیان عرقًا باردًا فأدرك ما الأمر. لم يحصل شيء. ما زلت وحيدا، مستلقيًا على الفراش. والغرفة ما زالت على حالها. أحاول أن أستعيد أنفاسي. هي تغني "يوم الهنا" إنها أغنية مفرحة، حبيبة تلتقي محبوبها، وليس لي إلا أن أتشبث بالنغم وأتبعه، فمعها لا خوف علي. أشعر بذلك، ثمة شيء قد انقطع هناك عند حنجرتي. أشعر بأنه يكفي أن أُغمض عيني لكي ينطفئ كل شيء. الله وحده يعلم أننا حاولنا أن نلمّح صورة هذا العالم، وأن نرتقي به صوب الشمس. والآن هناك الظلمات. يكفي أن أُسدل أجفاني، أن افتحها. وأن أُسدلها مجددا.

"توفي الشاعر أحمد رامي عام 1981. وكان قد نظم 137 أغنية من أصل 283 أغنية أنشدتها أم كلثوم خلال حياتها الفنية".

"استوحيْتُ فصول هذا الكتاب من قصته. غير أن المذكرات التي تشتمل عليها هذه الصفحات هي مجرد خيال".

صدرت هذه الرواية بالفرنسية تحت عنوان غاية في الاختصار "أم" وهو الاسم المعروف لأم كلثوم بفرنسا، مثل "ثومة" بالعالم العربي. ثم ترجمت إلى الإنجليزية، والإيطالية بعنوان "أحببتك لأجل صوتك" فيما قام بترجمتها الشاعر اللبناني الراحل بسّام حجّار بهذا العنوان "كان صرحًا من خيال" المأخوذ من قصيدة "الأطلال"، وهي إحدى أغنيات أم كلثوم القليلة التي لم يؤلفها أحمد رامي، الذي يمكن القول: إنه الشاعر الخصوصي لها، حيث كتب 137 أغنية من بين 383 أغنية، قدمتها في مشوارها الفني.

سليم نصيب، اللبناني الأصل، الذي يعيش ويعمل في باريس منذ 1969، كمراسل لصحيفة ليبراسيون، استوحى أغلب أعماله من التاريخ العاطفي للشخصيات التاريخية من خلال موضوعه المفضل الغرام، لكن الغرام هنا عذري "ومن طرف واحد على ما يبدو" إذ تتناول الرواية غرام "رامي" بسيدة الغناء العربي، يحاول الكاتب على لسان "رامي" – الذى يبدو في حالة من العشق الصوفي – إحياء الحياة الأدبية والفنية، وتركيب تاريخ مصر منذ عام 1924، حتي عام 1975 "تاريخ وفاة أم كلثوم".



